

الرغبة والألم والرماد



حكايات وقصص قصيرة ليست
للتسلية وقضاء الوقت ..

عبدالرزاق يحيى

الفهرس ..

مقدمة ..	.1
ردّهة الطوارئ ..	.2
الذنبة الأولى ..	.3
حياة استثنائية ..	.4
اليد التي أهدت ورداً ..	.5
وَدَعَ كُلَّ أَحَلامِكَ ..	.6
الجنازة ..	.7
حِكْمَةُ عَلَى سَكَلَةِ ..	.8
لُغْزُ الْبَاصِ ..	.9
الْحَصَانُ ..	.10
الْعِقدُ الْمُزِيفُ ..	.11
الْمُسْبَحةُ ..	.12
الْمُعَادْلَةُ ..	.13
أَخْطَاءُ طَوْيِّلَةِ الْأَمْدِ ..	.14
عَامِلٌ وَلِبَاخٌ وَبَانِعٌ خَضَارٌ وَأَرْنَبٌ ..	.15
الضَّحْيَةُ ..	.16
مَنْ يَسْتَحْقُهَا ..	.17
خَمْرٌ شَايٌ مَاءٌ ..	.18
قَطٌْ فِي طَرِيقِهِ لِلأسْفِ ..	.19
الْمُخْلُوقُ ..	.20
لَا أَمَانٌ ..	.21
الرُّوحُ وَالْقَضْبَانُ ..	.22
سِيفٌ ..	.23
كَلْمَةٌ لَا بُدُّ مِنْهَا ..	.24

كان يُمكنك أن تُعامل أي فرد من العائلة بذاتِ الطريقة التي
تُعامل بها ابنتك .. لتحصل على ذاتِ العلاقة الجميلة التي تفخر بها ،
وتخبر عنها الجميع ..

مقدمة ..

وراء كل لحظة و موقف في حياتنا قصة و حكاية أو رواية تستحق ان تُروى ، و تحمل بين سطورها رسالة ، بعضها قد يدفعك للتأمل ، وبعضها الآخر قد يوقظ فيك شعوراً كنت تظن انك فقدته ..

يتكون المخطوط مما يقارب ثلثين نصاً بأطوال متفاوتة ، حمل كل نص منها عنواناً خاصاً منسجماً مع ما يحتوي متن النص من أفكار ، و حينما يباشر القارئ بقراءة أي من تلك النصوص سيجد نفسه في السطور الأولى منه أمام ما يشبه حكاية ، أو سرد لحدث معين ، وهذه الحكاية أو الحدث هو من تجاري الشخصية وأحداث من حياتي ، أو نادرة من النوادر ، أو قصة من التراث ، أحياناً مضحكة وأحياناً عميقة ، لكنها كلها تنبض بالحياة والدراما ..

ومع استمرار القارئ بقراءة النص ، سيجد ان سرد الحدث قد انتهى إلى عبرة ، أو دلالة ، أو فكرة ما ، سوف يخلص إليها القارئ من خلال القراءة ، وسوف نبدأ بمناقشتها معاً ، وعندها سوف تتغير لغة السرد ، وتصبح أقرب ما تكون للغة المقال ... وسوف يتضمن النقاش أسئلة وردود ودفع وجدل وكذلك اقتباسات وأحداث تاريخية حقيقة ، وكل ذلك طبعاً في سبيل الإيضاح وإثبات الفكرة ، وأثناء ذلك ستجد العديد من الفوائد التي تم اختيارها بعناية لينتفع منها القارئ في سبيل توجيهه نحو ما هو أصوب وانجع له في مسيرة حياته ..

ولتكون له إشارة تحذره من المفاهيم الخاطئة ، أو التصرفات التي يقوم بها في يومياته ، أو الأحكام المسبقة التي ورثها أو تم تلقينها له ، وكل ما يمكن ان يضعف من طاقاته أو ثقته بنفسه وبقدراته ، وكل ما يمكن ان يؤثر على مسيرته الحياتية سلباً أو .. أو .. انها ليست قصصاً للتسلية ، بل هي نوافذ صغيرة تُعيد صياغة نظرتنا للأشياء ، وتمحنا قوة لنستمر في طريقنا ، وبالتالي نحن أمام كتاب يحمل الكثير من التوجيهات للقراء .. غير انني اخترت هذا الاسلوب غير المباشر ، وبالشكل الذي ذكرته انفاً لإيصال الفكرة بطريقة أتمنى ان تكون عند رضا القارئ ..

فلنستمتع معاً في هذه الحكايات ، ولنسمح لكل كلمة وكل معنى في هذا الكتاب ان يتدخل ويحشر انفه في قراراتنا وخطواتنا القادمة ...

ردهة الطوارئ ...

يعتمد غالبية الناس على المنبه من أجل الاستيقاظ من النوم ، لكنهم لا يعلمون المخاطر الصحية التي تكمن وراء هذا الاستخدام الذي يتكرر بشكل يومي ، وقد نشرت إحدى الصحف في مقال لها ان المنبه الثاني اختراع مكروه في المجتمع بعد الهاتف المحمول ، وأوضحت ان المنبه يزرع في نفسية الإنسان الخوف والذعر وعدم الثقة ، وأن الاستيقاظ المفاجئ كل صباح قد يكون له مخاطر على الصحة القلبية ، وقالت: "لا يجب ان تكون طبيباً لتعرف ان المنبه يشكل خطراً حقيقياً على قلبك" ..

وفي دراسة مشابهة أُجبر المشاركون في التجربة على الاستيقاظ فجأة خلال عدد من الأيام ، ووُجد الخبراء ان هذه الفئة باتت تعاني ارتفاعاً في ضغط الدم وعدد ضربات القلب ، لأن التغيرات التي تحدث لجسم الإنسان خلال نومه تجعله ضعيفاً في حال تلقى إشارة مفاجئة للاستيقاظ ، سواء كانت منهاً أو صيحة أو بكاء أو ضحكة عالية.. خلال النوم يكون الإنسان شبه ميت مما يعني ان معدل ضغط الدم وضربات القلب يكون ثابتاً لكن هذه الأمور كلها قد تقلب في حال استيقظ مذعوراً مما قد يؤدي في بعض الاحيان إلى سكتة قلبية ..

ومن بين النصائح التي يقدمها الخبراء لتجنب خطر المنبه ، ترويض الجسم على الاستيقاظ بشكل طبيعي وفي الوقت المناسب ، مثل تدريب جسمك لكي يستيقظ يومياً في الوقت الذي تريد دون الحاجة للاعتماد على المنبه ..

ومن تلك الوسائل أيضاً "بزوج الشمس" مثلما كان أجدادنا يستيقظون على ضوء النهار بعد إشراق الشمس . . . لذلك يُنصح بالنوم في غرفة تسمح نافذتها بدخول القليل من ضوء الصباح المنعش والذي سيكون دليلاً للاستيقاظ ، ويقترح الخبراء كذلك أن تذكر نفسك قبل موعد نومك بالساعة التي تريد الاستيقاظ فيها ، ليصبح جسمك مستعداً لذلك ، وإذا كان من الضروري اللجوء إلى المنبه فمن الأفضل استخدام نغمة منبه لطيفة وهادئة ..

إلى هنا تنتهي هذه المعلومة الناعمة المهدئة المؤدية ، والتي وضعتها للفائدة . . . أما موضوعنا التالي فهو عن اختلاف وتناقض الدراسات مع دراسات أخرى ، وكذلك الاختلاف والتنازع بين وهم الأفكار وكتب الأحلام وروایات المراهقين وتضادها مع قساوة الواقع.. ولنأخذ عدة أمثلة بسيطة في هذا الصدد ..

المثال الأول .. وبما أننا كنا بصدد ذكر المنبه ومخاطر استخدامه ، سنذكر دراستين متناقضتين لخاصية الغفوة أو زر الغفوة ، التي نستخدمها يومياً بعد انطلاق جرس المنبه لكسب دقائق معدودة ، في محاولة أخيرة يائسة للاكتفاء والشعب من النوم . . . حذرت دراسة علمية من مخاطر العودة للنوم عدة مرات بعد رن جرس المنبه بصورة متكررة ، لأن العودة لإكمال النوم بعد انطلاق جرس المنبه ترفع معدل ضربات القلب ، وذلك بسبب رن جرس المنبه مجدداً مما يفاجئ القلب مرة بعد أخرى ، ويسبب عليه ضغطاً أكثر وأكثر . . . وقد أشار باحثون إلى أن الغفوة الخفيفة بعد الاستيقاظ على صوت المنبه وضبطه ليرن بعد بضع دقائق قد تكون مضرة بصحتنا أكثر مما تتوقع ، والاستمرار على هذا الأمر لأيام وأشهر وسنوات يؤدي إلى العديد من الآثار الصحية السلبية ، بما في ذلك الاصابة بالسكري وأمراض القلب ..

بينما على الجانب الآخر من هذه النظرية ، كشفت دراسة حديثة عن أن أخذ غفوة لمدة خمس أو عشر دقائق أخرى بعد قرع جرس المنبه ربما يكون مفيداً للصحة ، وان هذه الغفوة لبعض دقائق إضافية يمكن ان تساعد الاشخاص على التخلص من النعاس الصباحي.. حيث تهياً الدماغ والقلب والعضلات كافة لعملية الاستيقاظ من السبات ، وتسهيل الانتقال من النوم العميق إلى مرحلة أخف ، وتحسين الادراك والقدرة على التذكر ، وان هذه الغفوة اليسيرة قد تساعد بشكل فعال على الاسترخاء وتقليل الاجهاد وزيادة اليقظة ..

المثال الثاني .. منذ أولى مراحل الدراسة الابتدائية ونحن نقرأ في حصة العلوم ان البرتقال والحمضيات تساعد على راحة المعدة وتسهيل عملية الهضم ، ومن ثم نكتب ونقرأ دراسات ونظريات خبراء التغذية والاطباء التي تدعم هذا القول وتعززه . . . يتميز البرتقال بمحتواه الغني بالألياف الغذائية غير القابلة للذوبان ، التي تسهل عملية الهضم وتقلل من الضغط الواقع على المعدة ، وهذه الألياف تمهد حركة المواد عبر الجهاز الهضمي ، وتزيد كثافة وزن الفضلات مما يسهل انسابها خارج الجسم ويقلل مشكلات الامساك ، وتعمل الألياف الغذائية على امتصاص الماء من الفضلات وتزيد من كتلتها مما يقلل من الاسهال . . . كما ان البرتقال غني بمضادات الاكسدة ومضادات الالتهابات التي تقوم بمحاربة مسببات جرثومة المعدة ، مما يقلل من خطر الاصابة ببكتيريا الملوية البوابية التي تغزو غشاء المعدة المخاطي مسببة تقرحات المعدة ..

وكذلك فوائد الليمون للمعدة وبالرغم من حموضته العالية فإنه يساعد في علاج حموضة المعدة ، وذلك لقدرته الفائقة على تعديل مستوى الاحماض في المعدة لحين الوصول للتوازن المطلوب ، كما يحتوي الليمون على العديد من الألياف الغذائية التي تساعد في تحسين عملية الهضم وتنشيط الجهاز الهضمي ، ويعالج الغثيان والدوار الناجمين عن تلذذ المعدة ، ويعمل الليمون أيضاً على التخلص من الشعور بالحرقة والانتفاخ ..

بينما نتفاجأ مع تقدم العمر وكثرة الاطلاع ، على بحوث دراسات تفصح عن كلام نقىض ما سمعناه في السابق ، حيث يقول الخبراء والعلماء في دراسات حديثة عن الحمضيات: يعتبر الليمون من الفواكه الحمضية التي تحتوي على نسبة عالية من حمض الستريك ، والذي يسبب بعض الاضرار للجهاز الهضمي مثل الشعور بحرقة الصدر وحموضة المعدة وتفاقم اعراض داء الارتجاع المعدى المريئي ، وهي حالة تتنسب في ارتداد سوائل المعدة إلى المريء لذلك ينصح بعدم الافراط في شرب الماء الدافئ مع الليمون لأنه يؤدي إلى تضرر الغشاء المبطن لجدار المعدة والتهاب المعدة على المدى البعيد..

ويمكن ان يؤدي حمض الستريك الموجود في الليمون إلى ظهور اعراض مثل الغثيان ، وزيادة خطر الاصابة بقرحة المعدة ، والتي تؤدي مع مرور الزمن إلى حدوث ثقب في بطانة المعدة . . . ، أما البرتقال فكونه أيضاً فاكهة حمضية فإنه يزيد من حموضة المعدة ، وذلك يؤثر سلباً على ادائها الوظيفي ، ومن الممكن ان تزيد الاعراض سوءاً إلى نفخة البطن وسوء الهضم ، وبلا شك حرقة المعدة التي يعاني منها كل من يقرأ الكتب والجرائد ..

ان الحياة معقدة بما يكفي ، وأعتقد ان هذا النوع من البشر الذين يصنعون التناقضات يتمتعون بضمائر ميته ..

المثال الثالث .. حسأء الفاصلوليء مع الرز ، انها الوجبة التي لا يتأفف منها الصغير ولا يضرر منها الكبير . . خلق الله حبة الفاصلوليء على شكل يشبه الكليتين لكي نعلم بلا بحث ولا دراسة انها مفيدة للكلى . . تعتبر الفاصلوليء مدرة للبول وبهذا فان لها دور فعال في علاج المسالك البولية ، والخلص من العدو البكتيرية والقضاء على الفطريات التي تصيب المثانة ، كما انها تقلل كمية السكر في البول وتنظف الكلى من الرمل . . وبالمقابل تقرأ ان الفاصلوليء تحتوي على نسبة كبيرة من البروتين ، والبروتين بكل انواعه مؤذن للكلى ، وتحتوي أيضاً على مركبات تسمى الاوكسالات ، وهذه الاوكسالات تساهم في تكوين حصى الكلى في بعض الحالات ..

المثال الرابع .. تقوم النظارات الشمسية بتنقليل الوجه وتنقليل الشعور بالانزعاج ، وحماية العين من الغبار والأتربة ، وبالتأكيد فان ارتدانها ينعم بالراحة والتمتع بالمزيد من الجمال . . ومن فوائد النظارات الشمسية أن لها دور هام في الوقاية من الساد وتنكس الشبكية والعمى الجزئي ، وهذا بسبب قدرة النظارات على حماية العين من الأشعة فوق البنفسجية الضارة ، كما يجنب ارتداء النظارة الشمسية شعور الفرد بالصداع النصفي الحاد الناتج عن شد اعصاب العين أثناء النظر في الجو المتوجه ، وكذلك وقاية قرنية العين من الالتهابات والاحمرار الناتج عن أشعة الشمس ..

وفي بعض الحالات قد يتعرض العديد من الاشخاص لسرطان الجفون والجلد الرقيق المحيط بالعين نتيجة التعرض الدائم لأشعة الشمس بدون حماية ، لذلك تعتبر النظارة الشمسية جزء أساسى للوقاية من سرطان الجلد ..

وهنا يأتي التناقض المقيت ليحشر انفه وسط نتائجنا ، حيث أكدت طبيبة مختصة بالأمراض الجلدية ان لها رأي آخر ، عندما صرحت موضحة ما يلي: عند التعرض لأشعة الشمس القوية تقوم الخلايا الميلانينية وهي إحدى خلايا الجلد المنتجة للصباخ بإنتاج كميات أكبر من الميلانين ، وهو صبغة بنية اللون يجعل الجلد داكناً أكثر وتدوي إلى اسمراره ، والوظيفة الرئيسية للميلانين هي فلترة أو تصفيية الأشعة فوق البنفسجية المنبعثة من ضوء الشمس ، للمحافظة على بشرة الإنسان من الضرر والمساوئ التي تؤثر على شكل وصحة الجلد (مع أننا نؤمن وبقوه ان اللون الغامق وكلما ازداد سواداً يمتص أشعة الشمس ويضاعف حدتها ويزيد من ضررها على جسم الإنسان)

المهم . . . هذا غيض من فيض ، نستأنف مقال الدكتورة: وكذلك فانه عندما يتعرض الإنسان لحرارة شديدة تقوم الغدد الموجودة في الجلد بإفراز العرق ، حيث يت弟兄 العرق ويعمل على خفض درجة حرارة الجسم وتبریده ، وان ارتداء النظارة الشمسية يقلل من أشعة الشمس الداخلة للعين ، مما يجعل المستشعرات في العين ترسل معلومات خاطئة للدماغ ، مفادها ان درجة الحرارة الخارجية طبيعية

وان أشعة الشمس الحالية غير مؤذية للجلد ، لذلك يقوم الدماغ بإرسال إشارة تتفى حاجة الجلد لإنتاج الميلانين ، وكذلك بالتوقف عن إنتاج وفرز العرق ، وحصلة هذه المعلومات الخاطئة المُرسَلة من المستشعرات في العين إلى الدماغ ، بسبب النظارة الشمسية ، يقوم الدماغ بتعطيل آلية التسقّع الشمسي ، وهي آلية دفاع يقوم بها الجلد لحفظ على نفسه من الاشعاع الزائد ، وهذا بالطبع له مساوى وتبعات خطيرة على بشرة الإنسان وعاقبته الاصابة بالكثير من الأمراض الجلدية ، ومنها ..

الحروق البسيطة التي تصيب الطبقة الخارجية فقط من الجلد ، وتستمر لأيام قليلة أو حتى لأسابيع وفي نهاية المطاف تشفى ، لكن ليس قبل ان تسبب في نقشر الجلد . . . أما الحروق الشديدة فهي تصل إلى طبقات الجلد الداخلية وإلى الأطراف العصبية ، وهي مؤلمة جداً وتستمر وقتاً أطول ، كما ان أشعة الشمس تضر بالياف الكوLAGIN والالياف المسؤولة عن مرنة الجلد ، وبهذا تكون سبباً لظهور النمش والكلف والبقع الداكنة وتجاعيد الجلد وترهله ،

وقد يصل الأمر إلى الاصابة بسرطان الجلد وهو من أكثر أضرار أشعة الشمس خطورة ، حيث ان الأشعة فوق البنفسجية تُحَفَّز حدوث انقسامات غير طبيعية في خلايا الجلد ، لهذا تجد أننا عندما نرتدي النظارة الشمسية لا نشعر بلهيب الشمس وحرارتها على اليد والوجه والرقبة ..

هل سألت نفسك يوماً عن السبب من وراء عدم احساسنا وعدم
شعورنا بهذه الحرارة . . . في المرة القادمة حين ترتدي نظارتك
الشمسيّة وتخرج من البيت لا تفوت ان تجرب هذا ..

وهناك مئات الامثلة من هذا النوع والتضارب في
الاستنتاجات .. منها ان علماء الحياة البرية كانوا يفسرون ظاهرة تبول
الحيوانات ، ونشر رذاذها على جذوع الأشجار في الغابات أو على
اطارات السيارات وفوهات الحريق في الشوارع ، على انه فعل تقوم
به الحيوانات لتحديد مكان سبب رائحتها ونفوذها في المنطقة ، وطرد ابناء
جنسها بعيداً عن مناطق عيشها وتجوالها ، ثم تبدل قولهم مع مرور
الزمن إلى ان هذه الحيوانات تنشر رائحتها للبحث عن شريك واعلام
الآخرين بأنه في طور الاستعداد والتهيأ للزواج ، وجذب ابناء جنسها
للزواج وتكوين روابط اجتماعية فيما بينها ..

وكذلك النظرية القديمة ، بأن كل مطر ينزل فلا بد من وجود
السحب ، ثم اكتشفوا ان المطر ينزل في كثير من الأماكن مع خلو
السماء من اي سحب او غيوم . . . وغيرها الكثير مما لا يعد ولا
يحصى من نظريات ودراسات يتعلّق الناس بها ويستخدمونها قوانين
يسيرون بها أمورهم وحياتهم ، ثم يتبيّن ما يخالفها ويناقضها تماماً ..

ان هذه المعلومات المتضاربة لن تمر على حياة المراهقين بخير ، انها تغرقهم في متأهات سوداء ، واننا كبشر لا نحب هؤلاء العلماء الذين يتلاعبون بفطرة الله التي خلقها في هذا الشباب الطموح ، ارضاءً لترmentهم وتمسكهم بآرائهم وكبرياتهم العلمي .. إلا ان هؤلاء العلماء والاطباء لديهم من الصحة والصبر ما يسمح لهم بقول المتناقضات والثرثرة ، اما نحن فلا نملك راحة البال وصفاء الفكر لنسنوب كل هذا التشويش ..

صديقى سأخبرك أمراً ، اطمئن ولا تخف ، تناول الفاصلولاء
واشرب بعدها عصير البرتقال الطازج المثلج ، ونم جيداً ، سيوحظك
صوت المنبه ، أو بائع الحلوى ، ضع نظارتك حتى لو كانت تمطر في
شهر آب ، وانتبه حيث تجلس في الأماكن العامة لئلا يكون هناك آثار
لليول قط أو كلب ضال ، معدنك بخير ، ولن يتوقف قلبك فجأة ، ولن
تموت من حصى الكليتين ، وبشرتك ستبقى بيضاء تتوجه كالورود
النديه تحت الامطار ..

- عزيزي ، أعتقد انه سيحدث العكس ، لا تأخذ كلامي على
محمى الجد ..

- في الحقيقة ، أظن ان الأمور تبشر بخير ، والأشياء حولك
آمنة ، ولن يصيبك اي أذى ..

أو ، ربما ستصاب ببعض الأمراض ، نعم ، أعتقد هذا ..

- كلا ، لا تخف ، افعل ما يحلو لك ..

- حسناً ، لست متأكداً ..

- اممم ، ما رأيك انت ، فأنا لست مستعداً لأكون سبب

معاناتك

- حسناً توكل على الله ، انت حر في قرارك ..

ومن ثم تجلس مرهق البال خائراً التركيز ، تأخذ هاتفك
وتصفح الإنترن特 ، ويثير انتباحك منشور أعجبك وتقرأ فيه:

- لا يمكنك ان تشفى في نفس البيئة التي جعلتك مريضاً ،

غادر ...

ثم تنزل لأسفل الشاشة فتقرأ منشور آخر يقول بعكسه:

- هروبك مما يؤلمك سيرؤلك أكثر ، لا تهرب ، تألم حتى

تشفى ...

ويتكرر المشهد في يوم آخر وتقرأ:

- لا تسمح لمجرد يوم سعيد ان يشعرك ان حياتك سعيدة ..

بينما تقرأ في نفس اللحظة من يعارض هذا الرأي ويقول:

- لا تسمحوا لمجرد يوم جميل ان يشعركم بأن لديكم حياة سعيدة ، حياتكم جحيم وستبقى كذلك ..

ثم تنام ليلاً بعد هذه النظريات المتناحضة ، فتكون أحلامك على النحو التالي ،

الفاصلين جاهزة للحرب . . . فوهة حريق حامضة . . .
حيوان يتبول . . . رن رن . . . مؤلف مسرحي . . . السلوفي مضحك
وهو يرتدي نظارة سوداء ، يبدو وكأنه محامي قديم من الريف البعيد ..
ولدي الصغير حصل على شهادة الدكتوراه والآن يعمل في الاطفاء ..
حيوان الكسلان مضطرب المعدة لأنه تناول الكرز . . . فاصلين
ترن . . . دراسة تثبت ان البرتقال فيلسوف ولو نه حزين . . .
نغمة الحساء . . . حيوان يتصل بك . . . رن رن . . . حيوان الكسلان
يطلبك على الهاتف . . !

وعندما تصحو صباحاً تجد نفسك في دوامة حقيرة مبهمة من الأحلام المبعثرة ، وكان العلماء والباحثين والمنطوعين المشاركون في كل هذه التجارب ، ومعهم الشياطين ، يهيجون داخل رأسك ، ويسب بعضهم بعضاً ، ويضرب أحدهم الآخر بالعصي ، ويهوي كل واحد منهم على رأس صاحبه بال مجرفة ...

ولهذا ، لا أجد ما أخبرك به على يقين تام ..

حقاً بدأت أشعر بالقلق من تدهور حالي الذهنية ، وفي حيرة وتيه اكتب لك ، واعرض عليك اقتراحاتي ، مسترشداً بتجارب بعض الحكم ، ويعينني ويطمئنني ان العالم مليء بناس يبغضون مثل هذا الخلط والهدر ...

تعال معي لنكتشف ، نكتشف ماذا ، لا ادرى ، ولن ادرى ..
اعتقد انه لا أحد يبحث عن الحقيقة سوانا ، انا وانت ، نبحث عنها بطريقة غريبة وعوいصة ، والمشكلة هي ، حتى لو وصلنا للحقيقة فمن يؤكد لنا انها الحقيقة حقاً ، هل نُجهد أنفسنا ثم نقول ان الحقيقة لم تكتشف بعد .. لنكملي يا صديقي ..

ن تعرض يومياً لمثل هذا التشویش عند قراءة الكتب والروايات فتجد ان لكل مؤلف رأيه ، وقد حشد الادلة المقنعة وساقها بما يناسب محتوى موضوعه ، وكل عالم وطبيب يطبق المثل القائل: كل شخص يحود النار لخبزته ..

بل ان الكتاب نفسه يحتوي امراً غريباً اضافة إلى مخالفة المؤلفين لبعضهم في الآراء ، وهو ان لكتاب سحر عجيب للتحكم في تصرفات قارئه ، وتعتبر كلماته كأنها شيفرة ورموز تعالج أفكار القارئ وتغير نمط حياته . . . لذلك ، وفي الغالب ، تجد الشخص الذي يقرأ هادئ إلى درجة كبيرة ، وما هذا الا نتائجة اختلاط روحه بالكلمات والغوص العميق بين الاسطر ، فتراه يحمل في جعبته اطنان من الأحلام والامنيات والتي تكون خيالية أو بعيدة المنال ، وما هذا الا حصيلة قراءة الروايات ، وتمني عيش مغامراتها ..

كثير من المراهقين يحلم ان تسقط به طائرة أو تغرق سفينته قريباً من جزيرة نائية ، ليعيش وحيداً منعزلاً مع الحيوانات الصديقة والطيور التي تأكل من باطن كفيه ، والشواء ، والفاكهه ، وصيد السمك ، وما كل هذا الا من حشو القصص والروايات ، وعندما تقرأ روايات قصيرة كتبها المراهقين تجدها كلها تدور حول العيش في جزيرة وسط البحر ، وهناك دائماً فتاة كطرف ثاني في الحبكة ..

بينما في الحقيقة ، لن يستطيع الشخص العيش في هذه الجزر الا لأيام معدودة ثم يموت ، أو لا من انعدام الماء ، والحيوانات المفترسة والحشرات على تنوعها ، وأصغرها بعض الغابات وزواحفه ، ثم الخوف ، ثم الطعام ، ولا تظن انه سيأكل الحشرات كما في قنوات السفاري الوثائقية ،

الأمر كله تمثيل ومخالف عن الواقع تماماً ، لأن ابتلاع حشرة واحدة يجعل تنتقاً معدتك وعشرة أمتار من امعائك ، وتنقاً معها الكبد والطحال ، كلها دفعة واحدة ..

وتلاحظ ان القارئ معجب كل الاعجاب بالشخصية التي يسردتها المؤلف ، ولا يمكن للقارئ ان يرى مزية جميلة ونصيحة لا وحاول ان يعمل بها لاصلاح عيب فيه ، ومهما قيل ان على الإنسان ان يبقى على طبيعته فهذا لا يمكن ، لأن لكل شخص نواصص لا يدرى بها غيره ، وعيوب ينقض منها صدره ، فإذا ما وجد كلمات تساعده وتدفعه للأفضل ، فلا شك انه سيبادر للتغيير..

والكتب تعج بخطوات التغيير وأساليب التنوير ، ونصائح في تنمية المال ، والتحفيز لمستقبل أجمل ، وكيفية القيادة وإدارة الشركات ، وصنع العلاقات الاجتماعية والصداقات ، وأهمية العائلة ، ونجاح الفرد في كل مرحلة من مراحل حياته ..

لأخذ مثلاً صفحة واحدة من مؤلفاتي السابقة وقد كنت قد ذكرت فيها: "إذا أحببتك ان تكون شخصاً قوياً واثقاً من نفسك عليك باتباع هذه النصائح العشر" .. ثم تشرع بالقراءة بهم وتركيز ..

- اهتم بظاهرك ، فالناس ترى العيب ولا تعلم الغيب ..

- شد الظهر ، ورفع الرأس ، والنظرية القوية للعيون ، لغة يفهمها الجميع ، وعند التحدث مع شخص حاول النظر في عينيه ..
- احذر الاستهانة بنفسك ، فشخصيتك تقوى بقدر احترامك لنفسك ، ان كنت تعتقد انك لا شيء سيعاملك الناس على انك لا شيء . . . تقبل ذاتك كما هي ..
- اجعل صوتك جهوريًّا ، ولا ترتكب اثناء الكلام ، واغضب لكن لا تجعل الغضب يسْتَفِرُك ويفقدك تركيزك على الأمور ..
- لا تكشف أسرارك وأشياءك الخاصة ، كن غامضًا لأن الغموض يضفي على شخصيتك هالة من الاجلال والتوقير ..
- مرّن نفسك على قول " لا " وأوجز في الكلام ، وليكن جوابك على قدر نصف السؤال ..
- لاتكن ثرثراً ، ولا تتدخل في ما لا يعنيك ..
- احذر الاستعجال فإنه إعصار يسلبك حاضرك ومستقبلك ..
- تجنب الاكتثار من الاعتذار بلا سبب ، أو حتى ان كان هناك سبب .. فان الاسراف في الاعتذار يورث الذل ، بل ويغمرك في الذل ، وكذلك الحال مع تبرير كل ما تقوم به ، فالناس يكرهون القوي لكنهم يقدرونه ويطيعونه ، ويحبون الضعيف لكنهم يستحقونه ويستخدمونه ..

قائل النوم وأكبح بكل حواسك لتصبح غنياً ، فبدون المال
لن تنفعك كل الخطوات السابقة ولن ينفعك الآلاف مثلها ..
مرتبك بمستوى راتبك ، ومقدارك هو نفس مقدار ما في
جيبك ..

إلى هنا كل شيء بخير والأمور طيبة والكلمات حلوة مفيدة ،
وعلى ما يبدو أن هذه الخطوات قدمت لك ما يسألك لعابك لكن ، عند
المضي بتطبيق هذه النقاط العشر سيحدث ما يلي ..
تخيل انك تلقني بشخص وتطبق كل هذه القواعد ، سوف يكرهك
وينظر لك بسخرية ، ويعرف انك ضعيف تتكلف وتمثل ، ويتمنى ان
يصفوك بقوة ..

ستصبح نموذجاً غريباً لا طوار ان طبقت كل ما قرأت ،
وتخيل انك تدخل على صاحب محل يريد استخدام قاعدة بذل الكلام
المعسول لجذب القلوب ، فتقول له السلام عليكم ،

فيرد عليك وهو يفتح فمه وعينيه ، وكأنه يريد أن يبتلاعك ،
ويقول: عليكم السلام ، حبيب قلبي الغالي ، اهلا وسهلا ، تفضل انا
بخدمتك وتحت تصرفك . . . تطلب منه شيء بسيط فيقول لك: تفضل
انها أجمل قطعة ، لأجمل شخص في الدنيا ، تفضل يا طيب ..

ستهرب ..

وعندما يلتقي شخصان يطبقان بالحرف الواحد تعاليم كتاب في أسرار لغة العيون وبناء الشخصية ، يركز أحدهم في عيون الآخر بطريقة يصعب على أي إنسان في الكون ان يعرف نوعها ، عدا انها نظرة بلهاء غاضبة ، تشبه نظرة رجل مخبول نام أمام مكان عمله ، وعندما توقظه لأنك ت يريد ان تفتح أبواب دكانك صباحاً ، سترى نفس هذه النظرة والعيون المبحفة ، انا متأكد انك مررت بمثل هذا الموقف يوماً ما ..

او ان شخصا يحدثك بكل مفاصل وجهه وانت تركز بصلابة وجمود على طريقة كلامه ، وتعابير وجهه ، ورسم عينيه ، وحركة يديه لتجرب فراستك الطازجة في قراءة ما يخبيه بين السطور ، إلى ان تنسى فحوى حديثكم ، وتنسى سبب زيارتك ومجيئك إليه .. ستبدو احمق أيضاً ..

تقرأ مقالاً عن إعادة تدوير الشخصية والبدء من جديد ، وانه يجب عليك تعلم قول " لا " والا تسكت ولا تخدع بوجه الظلم ، وان تدافع عن حدودك ولا تهداً إذا أخذ حقك . . . ثم بعد ذلك تذهب برفقة زوجتك عصراً إلى باياع الخضار ، فيزن لك البطيخ والموز وانت تراقبه ، وتلوي عنقك لأنك حيوان اللاما لترى الرقم على شاشة الميزان ، فتكتشف انه يسرفك في الوزن ، وتتمنى حينها لو كنت لاما حقيقية فتبصق في وجهه .. انها دراهم قليلة لا تلقي لها بالاً ، لكنك ، وكم مصباحاً سطع في ذهنك ، تذكرت الكاتب والمؤلف اللطيف حين أوصاك ان لا تسكت ولا تصمت وأن تدافع عن حقك ، حتى لا يسود الشر في مجتمعنا الطيب .. عندها تقول للبائع انك غير منصف في الحساب ، والوزن الحقيقي هو اممم .. نضربه في السعر وهو اممم هم . . . والناتج يساوي ام همم هممهم . . . نعم ، سوف يقتنع ويعطيك حقك ، لكن البائع اظهر امتعاضه وبدأ الحمق والحنق يغلي في وجهه ، وعندما تقول له شكران تسمع رداً ، وعندما تأتي مرة أخرى وتسلم عليه لن يرد لك السلام ، وسوف يسرفك أكثر انتقاماً لنفسه ..

وأنت بدورك تغضب وتذهب لبقال غيره لكنه يسرفك أكثر وأخلاقه أسوء من الأول ، ويتكرر الأمر مع النجار والحداد والمصلح ، الواقع مختلف يا عزيزي ، عليك ان تتحمل بعض السرقة وبعض الكلام والقليل من الاذى ..

لا تقرأ كتاب وانت متعلق به حد الافراط وتطبق كل حرف فيه مساوى قراءة كتب التنمية والروايات كثيرة ، الرواية تجعلك كثير الأحلام ، وكتب التنمية تزيد همومك إلى حد الجنون ان صدقت كل ما فيها وآمنت به ..

لأخذ مثلاً عن أحد كتب التنمية ، تقرأ عن طريقة جمع المال وهو يبسطها لك في خطوات يسيرة ،

- ان تحب المال ،
- تعمل بلا انقطاع ،
- تدخل من ارباحك تحسباً واستعداداً للفرصة حين تأتي فجأة ..
- ثم تُفرغ كل أموالك في العقار" ..

نعم ، انها سهلة جداً وتجعلنا نبتسم ، وعندما تذهب لتطبيق هذه النظرية تصبح صعبة ، وتحتاج إلى عمل شاق ووقت طويل جداً ..

يظهر رجل على الشاشات وهو أحد المشاهير ، وأحد رجال المال الأغنياء ، وهو يعرض قاعدة بسيطة جداً لكسب مليون دولار ، بطريقة سهلة هينة لطيفة ، كألف ما يكون .. قاعدة لم تخطر على بال أحد منا يوماً .. قال وهو يتحدث عن خطوات هذه القاعدة بثقة وسعة اطلاع:

سأوضح لك كيف تصبح مليونيراً ، كل ما تحتاجه هو أن يكون لديك شيء واحد ، يمكنك من الحصول على عشرة دولارات.. لا يهم ان كان قص الشعر ، جز العشب ، الطلاء ، مجالسة الأطفال .. فقط اعثر على عمل يجني عشرة دولارات في اليوم ، وبعد ان تحصل على هذا العمل ، أريدك أن تكرر فعله عشر مرات أخرى ، الآن أصبح لديك مئة دولار .. أريدك أن تفعل ذلك عشر مرات أخرى ، أصبح لديك ألف دولار .. ما أريدك أن تفعله الآن ، هو أن تكرر ذلك عشر مرات أخرى ، لقد أصبح لديك الآن عشرة آلاف دولار جميلاً ..

بعد حصولك على هذه العشرة آلاف دولار ، من فكرة العشر دولارات البسيطة هذه ، كل ما أريدك أن تفعله ، هو أن تستمر بتكرار ذلك عشر مرات أخرى ، وسيكون لديك مئة ألف دولار ، نعم مئة ألف دولار ..

إليك خدعة ذكية جميلة أخرى ، بمجرد أن تجني المئة ألف دولار ، يستعين عليك توظيف عدد قليل من الأشخاص .. وكل ما أطلبه منك الآن ، بعد ان تجني المئة ألف دولار .. نفس الفعل الذي قمت به لكسب المئة ألف دولار ، أريدك فقط ، وبكل سهولة ، أن تكرر ذلك لعشر مراتأخيرة . . . تهانينا ، أنت الآن مليونير ..

أنها فكرة تجمع العمل الأكثر وفرة ، والأيسير أداء ، والأفضل نجاحاً ..
وها انت تفتح عينيك على مصراعيها ، وتعتدل في جلستك ، وتشنج ساقيك ، وتشعر بالأدربيالين يندفع في عروقك ..

ستحدث نفسك معاً: كيف لم انتبه لهذا قبل سنتين ، كم أتمنى لو اني سمعت عنه قبلًا . . . ثم تشجع روحك وتطمنها قائلاً: مع ذلك لا مشكلة ، لا يزال هناك متسع من الوقت لتطبيق هذه الخطوات ، إنها خطوات يسيرة : هي لنفعها ..

وعندما تشرع بتطبيق هذه الخطة الرائعة ، أو قبل ان تبدأ بالبحث عن عمل مناسب يضمن لك هذه العشرة دولارات الجميلة .. هل يمكنك ان تحضر آلة حاسبة وتعدّ معي ما يلي ..

كم من الوقت تحتاج للحصول على أول ألف دولار .. لنبدأ معاً بالحساب . . . أول عشرة دولارات تحتاج يوم واحد فقط ، ثم نضرب اليوم الواحد في العدد عشرة لتحصل على مئة دولار ، وهذا يحتاج لعشرة أيام . . . ثم للحصول على الألف دولار سوف نضرب العشرة أيام في العدد عشرة ، لتصبح مئة يوم . . . وحسب هذه النظرية فإننا لا يجب أن نتوقف هنا ،

بل علينا أن نستمر للحصول على العشرة آلاف دولار ، وما بعدها ، ولهذا فإننا نضرب المئة يوم في العدد عشرة وأصبح المجموع ألفاً من الأيام . . . وللحصول على المئة ألف دولار سوف نضرب الألف يوم في عشرة ، وهذا أصبح الوقت المستغرق للحصول على هذا المبلغ الكبير من الدولارات ، هو عشرة آلاف يوم ..

أريديك أن تنتبه معي أيها الصديق الرائع ، هل تدري ماذا يعني وقت العشرة آلاف يوم ؟ إنه يعني ما يقارب الثلاثين عاماً .. ومعناه أنك حين تملك المئة ألف دولار بيديك ، فإن عمرك قد وصل إلى ما يزيد عن الخمسين عاماً وقريباً من السنتين عاماً . . . والآن عليك أن تأخذ هذه المئة ألف دولار وتهديها لطبيب الأمراض الباطنية ، يصلح بها قلبك ، أو يستبدل إحدى كلويتك ، أو تذهب وتشتري نعشًا فاخرًا يليق بشرى ناجح مثلك ..

هل جفلت الآن ؟ هل خاب ظنك ؟ هل استسلمت للفقر وعدت تبحث عن طريق آخر للربح ؟ .. نعم الأمر أصعب مما تظن . . . وتخيل معي لو أنك حلمت بالمليون دولار لتصبح مiliardirًا كما يقول الرجل .. فإننا سوف نضرب الوقت الأخير في العدد عشرة ، ولا داعي لإخبارك بالنتيجة القاسية ، لأنها أصبحت قريباً من ثلاثة عشرة عام ..

وقس على هذا المنوال ما تقرأه من الكتب أو تشاهده يومياً على الشاشات . . . لأن هذا هو حال الكثير من الكتب ، وهذا هو حال صناع التنمية ورجال التطوير والنجاح ..

تقرأ عن فن التعامل مع الآخرين ..

- الابتسامة ،
- الكثير من المدح والكلام اللطيف ،
- حفظ أسمائهم ،
- الاهتمام بهوياتهم ،
- تجنب كلمة نسيت ولا ادري ،
- تجنب طباع الرفض ومعارضة الغير ..

أليس من قالها يعاني جنون العظمة ،

وما ان تلتقي بمجموعة من رفاق العمل حتى ترى ان الفجوة بينكم تزداد وتكبر .. الكتاب يدلك على ربح هذه الأمور بسهولة ، وعندما تحاول تطبيقها تفشل فتزداد هماً ، ثم تمل من التمثيل والتتكلف ، وتعود لما كنت عليه سابقاً ، مع نصيبك من الخذلان .. وهكذا قس على باقي امور حياتك ..

ان هذه المعلومات ومهما كانت مهمة وقيمة بالنسبة للقارئ ، الا انها لا ترتقي لطبيقة العلم ، انها مجرد بحوث صنعت من جانب واحد للتلاعب في عقول الهواة والطبقة الفتية ، بحثاً عن الاعجاب والشهرة ..

ولأن كل هذه النظريات والتناقضات لا تفعل شيئاً سوى دفع القراء المحبين للحياة نحو الجنون ، والأدهى من ذلك انهم ليسوا مجانين حقاً وإنما اذكياء لدرجة أكثر من الحد المقرر للذكاء ، وبذلك فهم واقعيين في نظرهم ، مجانين في نظر الجميع ..

كفارئ للكتاب تبحث عن ضالتك ، فأنت لم تشتري كتاباً وتقرأ عبثاً دون جدوى ، انما ت يريد ان تتعلم وتطور نفسك وتتغير للأفضل ، بعكس من لديه الكثير من الفراغ فيشاهد فلماً أو يجلس في مقهى ي يريد ان يقتل الوقت ، وعندما تحاول تطبيق مفردات وقوانين الكتاب ستقع في زوبعة تدفعك للنقيو ، مفادها هو ، إذا اردت إصلاح نفسك فهذا يعني ان بك عيماً ، إذا اردت التطور هذا يعني انك متاخر ، إذا اردت ان تصبح أفضل هذا يعني ان هناك أشياء سيئة تتدخل شخصيتك ، وبما انك تفكك كيف تصلاح نفسك هذا يعني انك مهوس بالأفكار السلبية ومراقبة نفسك ، ومراقبة الناس من حولك ، مراقبة تصرفاتهم ، مراقبة لكتفهم وافكارهم ، مراقبة عدد المرات التي ترمش فيها اجفانهم ، وعدد مرات فرقعة اصابعهم ، وتنتعرف على السيء والجيد في تصرفاتهم ، وتقارن وتستنتاج ، وبالتالي تتعب وتكره محاولة إصلاح النفس ، وتطبّعها وزخرفتها بالعبارات الرهيبة ، والحركات الأنثقة ، ثم تكره هذا الارهاق والكم الكبير من السير على القواعد وتطبيق الاساليب ، وبالتالي تكره محاولتك وتكره الخطة التي وضعتها للتغيير من الاساس، وقبل كل هذا ستكره روحك لأنك تظنها على خطأ، وتعاقبها وتلومها على أقل هفوة وزلل ..

ان النفس البشرية خلقت لتكون بين الصواب والخطأ ، وكل ابن آدم خطاء ، كما وصفها الله سبحانه في أكثر من موضع في القرآن الكريم ((جهولاً ، ظلوماً ، ضعيفاً)) ..

اهدأ عزيزي ، انت إنسان رائع ، يكفي انك تقرأ وتعجب نفسك وتبحث ، ثم تحاول ان تتغير وتصبح شخصاً أفضل ، بينما غيرك يتفاخر بعيوبه ، ويتباهي بها ، ويتحدث عنها بغرور . . . أعتقد انه من المفيد والأسلم لهذا القلب الطري ان نترك عيوبنا وشأنها ، فلا شيء يستحق اجهادك النفسي في هذه الحياة ..

إذا كنت تصدق كل ما تقرأ وتأسسى به وتتخذ منه جاً لك فتوقف فوراً عن القراءة . . . ان هؤلاء الفلاسفة هم بأنفسهم غير مقتنيين بأقوالهم ، ولديهم ارتياح من مؤلفاتهم ، كما صرخ فيلسوف من النمسا قائلاً: ان هدف الفلسفة هو ان تُظْهِر للذباب طريق الخروج من الزجاجة ..

ومن قرأ تلك الكتب قال عنهم: الفلسفة هي فن التحدث عن التفاحة بدلاً من أكلها ..

فكم من كتاب بنهاية مفتوحة ، أو مضاللة ، أو تحمل بين طياتها الكثير من الغموض .. انهم يتلاعبون بنا .. لم نعد بحاجة للاستغراب من كل هذه التناقضات .. فمع مرور الوقت سوف نذوب معها ونصبح قالباً واحداً ان لم نمسك زمام عقولنا عن التشعب في دهاليزها .. انهم يعبثونا بارتياح .. لا تستمع إلى النصائح لمجرد ان القائل من كبار السن أو من يظهر في الاعلام ، هل نسيت ان الاحمق والخبيث يكبر في العمر أيضاً ، وكذلك يصنع كتاباً ..

حتى هتلر الذي مات بسببه ما يقارب من مئة مليون شخص قام بتأليف كتاب اسمه كفاحي ، وكثير من جنود وضباط هتلر وهم من كبار القتلة وال مجرمين لديهم كتب تحكي سيرتهم الذاتية أو قصص وخطط الحروب التي قاموا بها ، وكذلك فعل ستالين ، وزعماء المافيا ورجال العصابات ، وكثير من السكارى والحمقى ، هل سمعت يوماً عن كتاب يشرح ويعرض لك طرق مختلفة عن الانتحار ، لا تستغرب، هذا الكتاب موجود وقد تم منع تداوله في كثير من الدول . . . وهذه المعلومات تتسرب إلى العقول بسهولة بحسب الطريقة الساحرة التي تقدم بها ..

لا تُتعب نفسك ونقرأ كتب تطوير الذات وتحسين العلاقات بإسراف واعجاب كبير ، وإلا ستصبح كإنسان آلي ، فكل الذين يطبقون القواعد بحذافيرها تجدهم غرباء الطبع ، غرباء التصرفات ، غرباء الكلام ..

ولا يمكن ان نجلس خائري الأفكار ونقول ان الأمر انتهى وليس هناك ما يقال ، بينما يعتقد من يقف على الضفة الأخرى ان افكاره غير قابلة للنقاش ، وتغدو الحقيقة نقطة بعيدة متوجة ، ولا يمكن أبداً ان نصرح أننا هُزمنا ، وإلا لماذا نقرأ ونبحث .. أما بخصوص موقع الإنترنـت فهي أكثر شرـاً وتخبطـاً في المعلومات ، ولو جربت وكتبت في محرـك البحث سـؤال بسيط عن مـضارـ الخـبـرـ مـثـلاً ، لـوـجـدـتـ انـ مـنـ مـضـارـ تـنـاـولـ الخـبـرـ ماـقـدـ يصلـ بـكـ إـلـىـ تـدـهـورـ حـيـاتـكـ بـالـكـامـلـ ، وـفـقـدانـ صـحتـكـ ، وـالـمـوـتـ المـبـكـ ..

أطـنـنـيـ أـعـرـفـ فـيـمـاـ تـفـكـرـ إـلـآنـ ،ـ اـنـتـ تـحـدـثـ نـفـسـكـ وـنـقـولـ فـيـ سـرـكـ وـتـسـأـلـنـيـ ،ـ وـهـذـاـ الـكـتـابـ ،ـ أـلـاـ يـنـدـرـجـ ضـمـنـ الـكـتـبـ الـتـيـ فـجـعـتـ رـأـسـيـ وـأـرـهـقـتـهـ بـهـاـ ؟ـ أـلـاـ يـنـدـرـجـ ضـمـنـ حـفـلـةـ الـتـنـاقـضـاتـ الـفـكـرـيـةـ؟ـ ..

نعم ، اـنـاـ مـعـكـ ،ـ وـاـنـتـ مـحـقـ فـيـ كـلـ مـاـ نـقـولـ ..ـ لـكـنـيـ اـدـافـعـ عـنـ رـأـيـ وـأـقـولـ:ـ اـنـ هـدـفـ الـكـتـابـ الرـئـيـسـيـ مـنـ وـجـهـةـ نـظـرـيـ هوـ التـسـلـيـةـ وـقـضـاءـ بـعـضـ الـوقـتـ الـجـمـيلـ مـعـ خـيـرـ جـلـيـسـ ..ـ ثـمـ اـضـفـ لـهـذـهـ مـنـتـعـةـ الـقـلـيلـ مـنـ الـفـائـدـةـ ،ـ فـلـوـ كـتـبـ الـمـؤـلـفـ عـنـ الطـبـخـ وـعـنـ تـصـلـيـحـ أـجـهـزةـ التـكـيـفـ ،ـ وـكـتـبـ عـنـ الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ ،ـ وـكـيـفـيـةـ تـلـمـعـ الـخـيـاطـةـ ،ـ فـانـ كـلـ قـارـئـ سـيـنـتـبـهـ وـيـنـجـذـبـ إـلـىـ مـاـ يـفـقـرـ إـلـيـهـ ،ـ وـيـعـطـيـ رـأـيـهـ فـيـ مـجـالـ تـخـصـصـهـ فـقـطـ ،ـ وـالـبـاقـيـ لـيـجـعـلـهـ لـلـتـسـلـيـةـ وـإـبـادـةـ الـوقـتـ ..ـ ثـمـ اـنـ لـكـ شـخـصـ اـتـجـاهـهـ وـسـرـيرـتـهـ فـيـ الـقـرـاءـةـ ،ـ لـذـلـكـ تـجـدـهـ يـرـكـزـ عـلـىـ مـاـ يـحـبـ..ـ وـتـكـفـيـكـ كـلـ كـتـابـ ،ـ وـأـخـذـ مـاـ يـلـأـمـ حـاجـتـكـ لـاـكـثـرـ ..

هذا شيء من كل شيء . . . أعلم ان خبر تجاهل معلومات الكتاب هو أمر محبط ، ولا اريد ان أفسد عليك بهجة القراءة ، لكنك ستشكرني لاحقاً . . . ربما ستقول لي: انا اقرأ لأنعلم وأنتفق وأغير حالياً للأفضل ، انت مصيبة في هذا ولكن ، هناك طريق مضمون لتنال كل هذا ، انه الاختلاط والتشابك مع أفكار الآخرين وتصرفاتهم ،

الثقافة من الاختلاط مع المتعلمين والمنتفقين والناجحين وليس من الدراسة والشهادة نفسها ، ولذلك فان دكتور وسط عائلة من الحمقى أو مهندس وسط سائقى الباص وبائعى الخضار ومصلحي السيارات ، ستجد هذا الشخص خليط من الحماقة والتكبر والشروع ..

انها نزعة اصيلة في النفس البشرية منذ بداية التاريخ ، وهي التأثر بالمحيطين به والاصغاء لحديثهم وتقليدهم ، انه شغف قديم ، قوي ، لا ينحني ..

حصلت على وظيفة في وزارة الكهرباء عام ٢٠١٩ في مشروع "ديزلات الحرية" الواقعة في بغداد على طريق منطقة الشعلة السريع ، عدد الذين تم تعيينهم في نفس المكان والزمان كانوا اربعين شخص ، تم توزيعنا إلى مجاميع من عشرون فرداً أو أقل ، وكل مجموعة كرفان خاص بهم للجلوس والاستراحة والطعام والنوم ، لأن المشروع كان متوقف عن العمل ،

ولم تكن الوزارة بحاجة إلى كادر موظفين جدد لكنهم اضطروا لاستحداث وظائف جديدة لتهيئة وامتصاص غصب الشارع اثناء موجة مظاهرات "تشرين" في تلك السنة ، في الكرفان الذي أشاركه مع ثمانية عشر شخصاً ، كان بينهم من حملة الشهادات الماجستير والبكالوريوس والاعدادية ، ونزولاً حتى نصل لمن لا يمتلك مؤهلاً دراسياً ولا يقرأ ولا يكتب ، أعاده الله على ازدراه زملائه واحتقارهم له ، ان لم يكن في تصرفاته أو هيئته ما يخيفهم ويرعدهم .. تلك الوظيفة التي حلمت بها وتمنيتها وسعيت بكل قوتي واظافري للحصول عليها ، كانت تشبه بقعة اتسخت من حياتي ، وما جعلني اكرهاها وتنقبض روحني من تعاطيها والاستمرار بها ، هو كمية السباب والكفر والكلام البذيء الداعر الوسخ بين الموظفين الجدد ، كل الوقت ، ويومياً ..

وعندما انتقلت لمشاركة مجموعة أخرى صغيرة في كرفان صغير خاص بمهندس الكهرباء حسراً ، انتقلت معهم خطوة استنبطها لراحة اذني وعقلي من لوث المفردات الآسنة .. لكنني تفاجأت ان معظم أفراد المجموعة الجديدة كانوا ، وبلا مبالغة ، من أقدر البشر الذين قابلتهم في حياتي على الاطلاق ، و مما زاد في البالية انهم كانوا على مستوى عالي من التعليم ، ولهذا لم يقدروا شهادتي الجامعية ، ولم يكرموا أخلاقي وأداء صلاتي عندهم ، على عكس المجموعة السابقة ، حيث كانوا وبالرغم من مساوئهم ، الا انني كنت ألمح بعضهم - أحياناً لا على الدوام -

يغمز لصاحبها منهاً له اني موجود بينهم ، ليخفف من وطأة وثقل الكلمات احتراماً وأثرة لمكانتي في قلوبهم ، كنت أعتقد ان الكلام القذر سببه ترك التعليم ، والافتقار للشهادة الدراسية ، والعمل الرديء في الشوارع الملطخة ، والتشابك والاختلاط مع النماذج الخبيثة الوضيعة .. يبدو اني لم أفهم ولم ادرك الحقيقة إلا بعد ان تخلصت من تلك الوظيفة.. وبعثت في ذكرياتي .. لأنني أتذكر جيداً أنه كان هناك كرفان قريب من الكرفان الذي كنا نشغله ، ويوجد في هذا الكرفان موظف واحد من القدماء ، وهو كبير في السن ، ويشارك خمسة عشر من المتعينين الجدد ، ولذلك لم نشم من هذه الغرفة زنخ الكلمات ، ونتنن الحوارات ، وحدث هذا لأن الموظفين الجدد خالطوا من لديه معرفة بأدب العمل الجماعي والسلوك الوظيفي ..

هناك حل آخر ، اضافة لمخالطة الطيبين ، اقرأ الكتب السابقة بالعلم ، الغزيرة بالفوائد ، مثل كتاب "تفسير القرآن الكريم" وكتاب "سير اعلام النبلاء" و "الرحيق المختوم" و "مجلد البداية والنهاية" وكتاب "التوابين" .. وستكتشف بعد أن تقرأ هذه الكتب أن عقلك يكبر بحيث انه لن يتنازل أو يداري بala لكل تلك الكتب التي قراتها سابقاً وإنما ستمرد عليها ، ولا عتب عليه ولا ملامة في هذا التمرد للمكانة والرتبة التي وصل إليها ، وكما يقال "التعلم في سبيل الله وسيلة إلى كل فضيلة" ..

ومن فائدة هذه الكتب انها تجعلك تنشغل بنفسك وتداري عيوبك وتترك الناس وعيوبهم ، وهذه الكتب لو أردنا تلخيص المفيد منها وحصره في كتاب واحد ، لاحتاجنا إلى إعادة كتابتها جملةً وتفصيلاً ، لأن محتواها كله فائدة .. ولأن هذه الكتب لا تحتوي على دراما ولا ألوان ولا كذب ، حتى ان أحد مؤلفي هذه الكتب يقول في بعض مقدمته: "وفيه قصص جميلة ، ونواذر لطيفة ، يكون بها بعض العوض عن غثاء الأسواق ، وقدارات الفساق ، الذين شغلوا الناشئة بالمجلات والقصص المجانية" .. وكثير غيرها من كتب العلوم والفيزياء والطب والتاريخ والاطلس ، وها هنا يكمن العلم والثقافة وصنع الذات ..

اقرأ لتنسل ، ومن ثم لتحصل على بعض الإلهام والتشجيع لكن ، لا تتخذ من بطل الرواية قدوة لك وتحاول أن تخطو على نفس خطاه ، ثم تتوقع أن تحصل على نفس النتيجة ، هذا لن يحصل أبداً ، لأنك شخص مختلف ، ومعطياتك وتفاصيل حياتك مختلفة عنه تماماً ..

لا تأخذ نصائح الكتب التي تملأ الأسواق والرفوف على محمل الجد ، وإنما لتكن كالملح على الطعام ، خذ القليل واترك الكثير ، أما ان بقيت تقرأ كتاباً بالطريقة الشائعة المنتشرة هذه الأيام ، شارداً بين الأحلام والأوهام ، ستجد رأسك يوماً وكأنه ردهة الطوارئ في مستشفى حكومي ..

وخير مثال على التيه والضياع في متأهات الكتب الملونة ، والأفكار الملوثة ، وروابط الأحلام .. هذه المعضلة ، والتي تسمى معضلة سفينة ثيسيوس ، وهي بإيجاز: كان ثيسيوس ملكاً إغريقياً ، أخذ سفينته وذهب لمحاربة أعدائه وانتصر عليهم ، وعندما عاد احتفل الناس به وقرروا تخليد سفينته الاسطورية ، ومع مرور الوقت كانت ألواح السفينة تتآكل ، فكان الناس يستبدلون الألواح التالفة بأخرى جديدة كل عام .. وهكذا سنة بعد أخرى حتى لم يبق في النهاية أي خشب أصلي في السفينة .. وهنا تظهر المعضلة ..

هل السفينة لا تزال هي نفس سفينة ثيسيوس التي انتصر بها ؟
هل ما زالت تحفظ بنفس أسطورتها الأصلية ؟ إذا كانت الاجابة نعم ،
فكيف يكون ذلك والخشب الأصلي لم يعد موجوداً ؟ وإذا كانت الاجابة لا ، ففي أي مرحلة فقدت السفينة هويتها ؟ هل كان ذلك بعد تغيير اللوح الأول ؟ أم الثاني ؟ أم الآلف ؟ أم الآخر ؟ .. من هنا ، نصطدم بسؤال: هل للأشياء جوهر تتعرف به حتى لو تغيرت من الخارج ؟ أم انه لا يوجد شيء يُدعى الجوهر ، وان الأشياء ليست إلا مجموع عناصرها وخصائصها الخارجية ؟ ..

تم ربط هذه المعضلة بسؤال عن الهوية الإنسانية ، ليس فقط التغيرات البيولوجية التي تحدث لنا مع مرور الوقت من موت وتتجدد خلايا الإنسان وما إلى ذلك ، ولكن على مستوى الذات والشخصية ، وهذا يطرح سؤالاً: من نحن حقاً ؟ أي نسخة منا هي حقيقتنا ؟ ..

بمثـال بـسيـط ، يـمكـنـك التـفـكـير فـي فـرـيق كـرـة الـقـدـم الـذـي تـحـبـه وـتـشـجـعـه ، تـخـيـلـ لو أـنـ كـلـ شـهـرـيـن يـتـمـ بـيعـ لـاعـبـ منـ الفـرـيقـ وـيـحلـ مـحـلـهـ لـاعـبـ جـدـيدـ ، وـهـكـذـاـ حـتـىـ تـجـدـ نـفـسـكـ يـوـمـاـ تـشـاهـدـ مـبـارـاهـ وـتـرـىـ فـرـيقـاـ جـدـيدـاـ تـمـامـاـ لـاـ تـعـرـفـ حـتـىـ أـسـمـاءـ لـاعـبـيهـ ، هـلـ سـتـظـلـ تـشـعـرـ بـأـنـهـ نـفـسـ الفـرـيقـ الـذـيـ كـنـتـ مـرـتـبـطاـ بـهـ وـبـلـاعـبـيهـ الـقـدـامـيـ ؟ـ وـتـقـولـ الفـرـيقـ بـمـنـ حـضـرـ ، أـمـ إـنـكـ سـوـفـ تـشـعـرـ بـشـيـءـ غـرـيبـ ؟ـ ..

وـكـذـلـكـ نـفـسـ الـأـمـرـ يـنـطـبـقـ عـلـىـ وـطـنـ أـوـ مـدـيـنـةـ تـحـبـهـ وـتـرـتـبـطـ بـكـلـ مـكـانـ وـشـارـعـ فـيـهـ ، وـمـعـ مـرـوـرـ الـوقـتـ تـزـالـ مـعـالـمـهـ ، الـأـشـجـارـ الـتـيـ تـحـبـهـاـ تـقـطـعـ ، وـالـبـحـرـ يـحـاطـ بـقـضـبـانـ ، وـالـأـمـاـكـنـ الـتـيـ تـرـتـبـطـ بـهـاـ تـتـحـولـ إـلـىـ خـرـسـانـةـ ، هـلـ سـتـشـعـرـ بـنـفـسـ شـعـورـ الـارـتـبـاطـ وـالـانـتـمـاءـ ؟ـ .. وـلـنـفـرـضـ أـيـضـاـ أـنـكـ فـيـ مـرـحـلـةـ مـاـ مـنـ حـيـاتـكـ تـمـكـنـتـ مـنـ تـكـوـينـ هـوـيـةـ تـقـدـمـ بـهـاـ نـفـسـكـ لـلـنـاسـ ، لـقـدـ حـدـدـتـ عـقـيـدـتـكـ وـمـبـادـئـكـ وـطـبـاعـكـ ، وـمـاـ تـحـبـ وـتـكـرـهـ وـمـاـ يـعـضـبـكـ ، وـلـنـفـرـضـ أـنـ شـخـصـاـ يـدـعـيـ زـيـدـ كـانـ مـعـكـ طـوـالـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ ، وـمـعـ مـرـوـرـ الـوقـتـ كـلـ ذـلـكـ تـغـيـرـ ، مـبـادـئـكـ إـذـاـ كـانـتـ فـيـ الـيـمـينـ أـصـبـحـتـ فـيـ الـيـسـارـ ، مـاـ كـنـتـ تـؤـمـنـ بـهـ أـصـبـحـتـ تـسـخـرـ مـنـهـ ، طـبـاعـكـ اـخـتـلـفـتـ ، وـالـأـشـيـاءـ الـتـيـ تـحـبـهـاـ وـتـكـرـهـهاـ تـغـيـرـتـ بـالـكـامـلـ. وـلـنـفـرـضـ أـنـكـ خـلـالـ كـلـ ذـلـكـ كـنـتـ بـعـيـدـاـ عـنـ الشـخـصـ زـيـدـ ، وـتـعـرـفـتـ عـلـىـ شـخـصـ آخـرـ يـدـعـيـ عمرـ ..ـ السـؤـالـ هـنـاـ: مـنـ يـعـرـفـ حـقـيـقـتـكـ أـكـثـرـ ؟ـ وـاـحـدـ مـنـهـمـاـ ؟ـ كـلـاهـمـاـ ؟ـ أـوـ لـاـ أـحـدـ ؟ـ أـمـ الشـخـصـ الـذـيـ سـيـشـهـدـ عـلـىـ نـسـخـكـ الـأـخـيـرـةـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـرـحـلـةـ ؟ـ ..ـ وـلـنـفـرـضـ أـنـكـ بـعـدـ هـذـاـ التـغـيـيرـ

التقيت بصديقك القديم زيد ، فكيف سيكون شعوركما وكيف ستتعاملان مع بعضكما؟ ..

نعود إلى السفينة ، حيث قرر شخص آخر وبدلاً من حل المعضلة ان يضيف لها سؤالاً آخر ، فقال: تخيل ان هناك شخصاً ما يجمع كل الخشب الاصلي المتآكل ويصنع به سفينة جديدة ، هل يمكننا القول حينها انها سفينة نيسيوس؟ أم ان السفينة التي رمناها في السابق هي سفينته؟ ..

يمكن تقريب هذا بالقياس لفريق كرة القدم ، تخيل ان اللاعبين الذين تم بيعهم ذهبوا جمِيعاً إلى فريق جديد ، وهذا الفريق الجديد يلعب ضد فريقك الاصلي ، ضد الفريق الذي كان يضم لاعبين ترتبط بهم وبذكريات بطولاتهم وقمصانهم التي تحمل أسمائهم ، فلمن سيكون ولائك وتشجيعك في هذه الحالة؟ ..

عندما نقول: انا اعرف فلان ، او فلان يعرفي .. ماذا يعني بذلك؟ ..

هل يمكن حقاً ان يعرف إنسان إنساناً آخر تمام المعرفة؟ هل للأشياء جوهر أصلي خاص بها مهما حدث؟ أم ان هذه الأشياء هي مجرد انعكاس وتخيلات لتصورات المراقبين لها؟ ..

مُعْضَلَة سُفِينَة ثِيسِيُوس تُعْتَبِر وَاحِدَة مِنْ أَكْثَرِ الْمُعْضَلَاتِ الْفَلْسُفِيَّةِ إِثْرَة لِلْإِهْتَمَام ، لِأَنَّهَا تَتَنَاهُ أَسْئَلَة جَوَهْرِيَّةٍ حَوْلَ الْهُوَيَّةِ وَالتَّغْيِيرِ ، تَطْرُحُ هَذِهِ الْمُعْضَلَةَ تَسَاؤلَاتٍ عَمِيقَةٍ حَوْلَ مَا لَذِي يَجْعَلُ شَيْئًا مَا هُوَ ذَاتُهُ الْاَصْلِيَّةَ ، وَكَيْفَ يَمْكُنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ بِشَكْلٍ تَدْرِيَجِيٍّ دُونَ أَنْ يَفْقَدْ هُوَيَّتَهُ الْاَسَاسِيَّةَ ، الْمُعْضَلَةَ تَفْتَحُ الْبَابَ لِمَنَاقِشَاتٍ حَوْلَ الْهُوَيَّةِ الْشَّخْصِيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ تَغْيِيرِهَا عَبْرِ الزَّمْنِ .. مِنْ نَحْنَ حَقًا؟ هَلْ نَحْنُ مُجَرَّدُ مَجْمُوعَةِ مِنَ الْذَّكَرِيَّاتِ وَالْتَّجَارِبِ؟ هَلْ بَقَى شَيْءٌ مِنَّا بَعْدِ مَوْتِ الْخَلَائِيَا الْقَدِيمَةِ كُلُّهَا وَظُهُورُ خَلَائِيَا جَدِيدَةٍ بَدَلًا عَنْهَا ، جَدِيدَةٌ كُلِّيًّا؟ هَلْ نَحْنُ مُجَرَّدُ ذَكْرِيَّاتٍ؟ أَمْ أَنْ هَذِهِ جَوَهْرَ ثَابِتَ دَاخِلُنَا؟ ..

لَذِكْرٍ يَا صَدِيقِي الطَّيِّبُ ، عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ ، وَمَجَالِسِ الْرَّفِقَةِ النَّافِعَةِ ، رَاقِبُهُمْ وَأَخْتَلِطُ بِهِمْ ، وَتَجَاهِلُ الْإِعْلَامِ الْمُغَرَّضِ ، وَالْعَوَاطِفِ الْمُذَلَّةِ ، وَالْأَوْهَامِ الرَّائِجَةِ ، وَالْأَحَلَامِ الصَّبِيَّانِيَّةِ ، تَجَاهِلُ كُلَّ هَذَا لِتَحَافِظِ عَلَى رِشْدِكَ وَتَهْنَأُ لِمَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِكَ ، وَخَذْ لَكَ أَمْتُولَةً ظَرِيفَةً مِنْ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي تَوْسُدُ التَّرَابَ ، وَاسْتَظِلْ تَحْتَ شَجَرَةَ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ حَكِيمٌ وَقَالَ لِهِ: هَلْ أَدْلَكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ تَكْسِبُ بِهَا قُلُوبَ النَّاسِ؟
قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا ..

إذا لم يكن هناك خبز للفقراء ،
دعهم يأكلون الكعك ..

1789 ملكة فرنسا

1789 ملكة فرنسا

لهم ماذا ؟

أين أنا ؟

الكذبة الأولى ..

عندما بلغت السابعة عشر من عمري ، أرسل أبي في طلبي وأخبرني انه يريد أخذ استراحة من العمل لمدة أربعة أشهر ، ولذلك سوف أسلم زمام الأمور في السوق بدلاً عنه ، فقام بجرد البضاعة وحساب تكلفتها على أن يستردها مني لاحقاً ، أما الأرباح ستكون كلها من نصبي .. استيقظت صباحاً متحمساً في يومي الأول وذهبت إلى السوق لإحضار بعض المواد من تجار المواد الغذائية ، وكان الباص العجوز الأنثيق ذات الأربع والأربعين راكباً ينhib شوارع الرصافة ويسير بجد متوجهًا إلى "سوق جميلة" ، و كنت انظر من الشباك إلى كل شيء ، وأرافق قرص الشمس وهو يستمر بالظهور ، لكنني أعتقد انها تخرج اليوم أسرع من العادة .. وصلت هناك وبدأت مهمتي في التسوق ، اشتريت كيس حُمُص زنة خمسين كيلو بعد ان قمت بفحصه بواسطة "السمبة" ، وهي انبوب من المعدن قطعت نهايته بطريقة مائلة كي يتم أحداث ثقب واخراج عينة من المواد التي يحتويها الكيس بدون تمزيقه ، ثم اخذت كيس من جريش الكبة وكيس من السُّكَّر زنة كل منها خمسون كيلو أيضاً ، هناك الكثير من العربات ، عربات يدفعها بشر أو يجرها حسان .. ناديت على صاحب عربة مصنوعة من الخشب تُدفع باليد ليوصل أغراضي إلى الشارع الرئيسي ، حيث يقف أصحاب الشاحنات التي سوف تنقل أغراضي إلى مكان عملي ، وضع الولد الأكياس الثلاثة في العربة وبدأ بدفعها وأنا اسير بجانبه ..

ولا أذكر ان كنا تحدثنا أو قضينا تلك الدقائق نسير صامتين ،
ثم تذكرت أن علي شراء علب زيت الطعام من الباعة على جانب
الطريق .. أوقفت صاحب العربة قريباً مني بينما كنت أطارح البائع
محاولاً تخفيض السعر ، اشتريت صندوقين من الزيت ودفعت المبلغ
وانحنيت لحملها ..

إنها ثقيلة جداً ، يا الله ، هيلا هوب ، وها هي ترتفع عن
الأرض ، ثم استدرت لوضعها في العربة ، لقد اختفت ، اختفت العربة
والولد ومعهم الأغراض .. نظرت يمنة ويسرة ، هناك الآلاف من
البشر لكن لا أحد منهم هو صاحبي وعربته ،

أين هو ؟

أين العربة ؟

وأين الاكياس ؟

تمنيت لو اني استأجرت تلك التي يجرُّها حسان لم أكن
لأضيّعها وسط هذا الزحام ، أو لا لأنها مرتفعة وبارزة وسط هذا
الزحام ، وثانياً ان الحسان لا يسرق .. نظرة الفشل ..

قال لي رجل: أركض بهذا الاتجاه لعلك تلحق به ...
نظرت له ولم أرد بكلمة ولا حتى حرف ، أعتقد انها صدمة أو شرود
الذهن ، أي طريق منها إليها الرجل المستريح البال .. هناك عشرات
الطرق ، يعرفها حيوان الخلد هذا ، أما أنا الغريب من هنا فلا أعرف
أين أنظر وأين أمشي ، وأنا متأكد انه الآن يختبئ خلف كيس من
أكياس الطحين ، أو البرغل ، يراقبني مطمئناً غير خائف اطلاقاً ،
ينتظرني ريثما أذهب للبيت ليختفي على مهل ، خير له من الهرب
والركض الآن .. أراه الآن وهو يفرك يديه بمرح وخبث كما تفعل
الذبابة ، إنه لشيء مُحزن يدفعك للسباب والشتيمة ان يحدث لك هذا
في يومك الأول .. حسناً أيها الخلد الشرير ، في أي جهة تختبئ الآن ؟
وخلف أي شيء تخنس ؟ هل تفرك يديك فلقاً ؟ أم منتصراً على هذا
الولد المبتدئ ؟ ..

استطيع الركض ، استطيع الصراخ ، لكنني لم أحرك ساكناً ،
ولا أعرف السبب .. أعتقد انه الخجل من الناس ، نعم أنا متأكد انه
السبب .. الحياة تستمر حولي والناس تتبع وتشتري ، والعمال يرثون
العشرات من أكياس الحبوب إلى الشاحنات ، وكانت الأحصنة بعيونها
الواسعة تتزحلق بحوارفها على الاسفلت ، أو يطير شرر إذا احتك
بَدوها بحصى الشارع ، وكانت الجرذان تنسل مسرعة ، والقمامنة في
ركن الشارع تزداد كل لحظة .. وأكاد أجزم ان لا أحد من هؤلاء
الناس حولي يعرف قصتي ، ولا أحد غيري يدرى بحالي ، وأن هذا
الحمّال القذر قد سرق بضاعتي ، ولا أحد يحزر ما أشعر به الآن ،

ولا أحد يعلم ان هذا هو يومي الأول .. لماذا انا هادئ لهذه الدرجة ؟ هل سببه أنني لم أتعب بجمع هذه الأموال ؟ هل كان سببها هذا الشعور لو اني جمعتها ديناراً ديناراً وإلا فكيف أشعر بقيمتها ، لكنني قد فهمت وتيقنت تماماً اني قد سرقت ، واختفت الأغراض ، وأن الأمر قد انتهى . . . كنت أجوب الشوارع على غير هدى . . . ثم رأيت أصدقاءً لي من الباعة الذين يعملون بجانبي في سوق "الدورة" ، فأعطيتهم علب الزيت ليرجعوا بها إلى ابي بينما أبحث عن صاحب العربية ، بعدهما ذهبوا بقيت أتمشى على مهل وأنا متيقن كل اليقين بأنني لن أجده أبداً ، لكنني أردت ان أرجع لابي وقد سبقني الخبر إليه ..

عندما تسرق أو تحدث لك مصيبة أو تتعرض لحادث ، دائماً ما يكون الجو غريباً ، لا عواصف ، لا أمطار ، لا هواء منعش ، وكذلك لا حر قاتل ولا رطوبة خانقة ولا غبار ، لا شيء من كل هذا اطلاقاً ، ربما لأنك تفصل عن الدنيا ومحتوياتها .. لكنني أظن ان السبب شيئاً آخر لا أعرفه ، لكنه يتكرر كل مرة أتعرض لسوء أو أذى .. وأعتقد انك معني في هذا ..

وكما يحدث في المسلسلات التلفزيونية عدت حائراً في باص آخر حالته يرثى لها ، يجر نفسه على الشارع بتناقل والأغاني العتيبة ودخان السجائر ، يسير بي نحو أبي وأنا أحاول تخمين ما أقول له وأنكهن ردة فعله ، هل سوف يوبخني ؟ أم يصفعني ؟ ..

كنت أرسم في مخيالي أبي وهو يعض أسنانه غيضاً وكرهه لي ، وأنه سوف يعصر كتفي بيديه ويسألني كيف أضيع المال بغباء وأنني أحمق لا خير في تربيتي ، أو ان ما سيحدث هو أسوء من ذلك بكثير .. جلست وحيداً في هذا الباص المسكين وهو يتعثر في الطرقات رغم انه مكتظ بالبشر ، جلست شارد الذهن أفكر في ما عليّ فعله بعد هذه الضربة الموجعة ، وما هي خطوتي التالية ، أدندن كلمات أغنية مسلسل عراقي قديم لم أعد أذكر اسمه ، وربما أخطأت في بعض كلماته .. كل يوم أقول اليوم ويطلع خسارة ، واركض ركض تعban بس ماكو جارة ..

نفس الكرسي لساعة تقريباً ، وهذا يعني اني لم ألاحظ الناس من حولي ، لأنني لم أنهض وأترك مقعدي لرجل عجوز ، أو أنادي على امرأة لتجلس بدلاً عنّي ، أيقنت ان السرقة والأذى والمسائب في الحياة والعمل سوف تتكرر كثيراً ، كأنها لعبة الدومينو ، سوف تراها أينما ذهبت ، يلعبها الكبار والصغار ، في البيت أو المقهى أو في السوق ، ولا تفسير مادي لتكرار وقوعك في الشر والمصائد والخداع دائمأً ، وفي الغالب لن تتفع معها الحيطة والحذر ..

لقد نفعتي حكمة توزيع الأموال في جيوب بنطالي تجنباً لفقدها كلها مرة واحدة ، لكن سرقة الحمال لأغراضي هي حيلة أخرى سأحذر منها عندما تتكرر ، وأعلم اني وبلا شك سوف أنزلق في غيرها ، لا تفسير مادي لتكرار الوقوع في المصائد والخداع ..

وصلت مكان عملي وقد بدا لي مريحاً أكثر ، وكان المكان وما يحتويه يريد ان يربت على كتفي مواسياً لي .. عدت لأبي وأنا أحاول تكفل الغضب والحزن حتى أنجو من العقوبة والتوبيخ ، لكنني عندما رأيت أبي يقترب مني ، وفي الحقيقة أنا من كان يقترب منه ، بدأ قلبي يقفز في صدري كأنه كنفر صغير يلهم .. خطوت نحوه وقد رسّمت على وجهي أعتى امارات الهم والحزن ، أتصنّع الخسارة والألم لعلّي أنجح في كسب حنانه وأرخي قلبه ، وأتجنب صفتة ، وهذا ما حدث بالفعل ، ما ان وصلت قريباً منه حتى ابتسم في وجهي وجبر بخاطري ، ودفع المبلغ الذي سرق مني تسلية ومواساة لي .. سأعود في اليوم التالي وأستأنف إحضار الأغراض ..

فعل ذلك ليعطيوني جرعة مفادها انك لن تخسر وتهزم بهذه البساطة ، وكأنه يقول لي: لن تنتهي كتاجر بايس ، لن تتحول إلى مدمن يتعاطى حبوب الهلوسة والمخدرات لينتقم من عالمه وأحلامه ، لقد استبدلها بحبه وحكمته الأبوية إلى واحدة من أجمل ذكرياتي .. أعتقد انكم احبيتموه وتحسدونني عليه ، نعم ، هذا هو أبي البريء انه أجمل أبو في الدنيا كلها ... بعد كل هذه الأحداث كنت أفكر في نجاح خطتي ، حيلتي ، لأنني تملّصت من العقوبة .. تراجعت بضع خطوات للخلف ، جلست على علبة معدنية قريبة ، لم أعد أتذكر ، هل شعرت حينها بالعار لأنني كذبت على أبي ؟ أم شعرت بالانتصار لأنني نجوت من العقاب ؟ ...

إياك ان تكون نقياً صريحاً واضحاً للكل ، لا بد من التصنّع
والتمثيل وإظهار الخسارة والألم ..

إذا مرضت يوماً تظاهر بالمرض ، تعثرت تظاهر بالغضب
ولا تبتس ، احترفت بعض الأغراض في بيتك تظاهر بالحزن ، تلكت
تجارتك تصنّع الخسارة ، سُرقت أو خُدعت تصنّع الهم والانكسار ،
وإلا فلن يساعدك أحد ولن يسندك أو يدعمك حتى أقرب الناس إليك ،
الناس اليوم وللألف ، ومع كل هذا الخداع والشرور الذي يملأ الكون
من حولهم ، اعتادوا وجود الكذب ، اعتادوا التمثيل والتصنّع ، وإذا ما
صادفوا في الحياة غير هذا الطراز والمنوال سيصبح ظاهرة غريبة
عليهم . . . أما بالنسبة لي ، يبدو ان الإنسان وكما يلين عظمه مع
مرور الزمان كذلك تلين طباعه ، وينسى الحذر ، لأن هذا الحال تكرّر
معي ولكني لم أتقن التمثيل في المرة الثانية ..

خرجت صباحاً ذاهباً للعمل ، وركبت باص نقل الموظفين ،
وبعد خمس دقائق وبينما السائق أبو مصطفى يجوب الطرقات ويجمع
الموظفين من هنا وهناك كأنه طائر يلتقط حبات القمح ، وأنا بين
النعايس والضجر من روتين العمل اليومي ، أحسست بألم اسفل بطني
على جنبي الأيمن ، ألم في المعدة ، وكنت على وشك ان اتقأ داخل
الباص ، سألت السائق وسألت موظف آخر عن السبب فكان جوابهم
انه اضطراب في القولون نتيجة تناول طعام غير مناسب ، كان الأمر
يزداد سوءاً في كل ثانية تمر ..

نزلت على جانب الطريق الفرعى قبل ان تصعد السيارة وتنطلق في الخط السريع ، استأجرت التاكسي عائداً وقبل ان أصل للمنزل شعرت بأن لا مجال للصبر أكثر فاخترت بقعة تجمع فيها القمامه على جانب الطريق وتقىأت عليها.. وجع في الخاصرة وعذاب لا يحتمل ، أهيم داخل منزلي وأذرعه ذهاباً وإياباً ، أولول كافع كسر ظهرها ، وأصرخ أحياناً ، لقد بكيت ، بكيت وضحك أطفالى مني لأنها المرة الأولى لهذا الأب القوى العصبي الذي يتشاجر مع الأقارب والجيران ، ويتشارج مع البااعة في السوق ، ويتشارج حتى مع نفسه عندما يغضب ، فكيف له ان يبكي ، لم يسمعوا هذه النغمة من قبل ولن ينسوها ، إلى اليوم وصغيرتي فرح تهزأ مني وتلومني عليها..

جهاز المفراس في المستشفى الحكومي عاطل عن العمل لذا اكتفوا بعمل السونار ، وتبين ان هناك حصاة في الكلى اليمنى لكن مكانها وقياسها لم يُحدَّد بدقة ، فأرسلني الدكتور إلى عيادة خاصة في شارع الكندي ، بعد ظهور أشعة المفراس تبين ان هناك حصاة بقطر خمسة ونصف ملم وطول خمسة عشر ملم نزلت إلى الحالب وانحرست هناك ، تمنع السائل من المرور إلى خارج الجسم ، ولهذا تجمع السائل في الكلى وضغط عليها حتى انتفخت وفُقت من أحد جوانبها داخل جسدي ، في فحص بسيط سابق قبل أشهر أخبرني الدكتور ان لدى مشاكل في الكلى والمجاري البولية لكنني تجاهلت الخبر وتناولت بعض أكياس الفوار الذي يحتوي على حمض الليمون ، ارتجالاً من عندي ..

الدكتور الأول وصف حالي بأنه انفجار في جانب الكلى وشُرُب السائل داخل البطن وتحتاج إلى عملية مستعجلة ، لكنه شَكَ في نجاحها وأخبرني أنها قد تتحول إلى ثلاثة عمليات متفرقة ، خرجت كالآخرس أهمهم الأنين كنت احتاج في ذلك الوقت لغمزة بسيطة في خاصرتي لأصرخ وسط شارع الكندي المكتظ بالبشر ، عدت للبيت ونمت على الأريكة بوضعية الجلوس ، كنت أستيقظ غارقاً في العرق والخوف ، ان الألم الناتج عنها يمكن تشبيهه وكأن أحدهم يمسك بالكلية ويجرها بقوه لينتزعها من مكانها ..

ها نحن ، أنا وزوجتي المسكينة ننتقل يومياً في منطقة الحارثية بين عيادة ودكتور وأجهزة السونار وتحليل الدم ، والمزيد من السائل ما قبل السونار ، إلا انه لا بد من استخدام هذا السائل ليسمح بحركة سلسة للجهاز على الجلد للتخلص من الهواء بين الجلد والجهاز ، السائل المقرف ، وكأن حلزونا ضخماً يسير على بطنه ، ذهبتنا إلى مطعم قريب وتناولنا بعض الطعام ، صامتين ك مجرمين هاربان ، نأكل بهدوء كعاشقين ، حزيناً ، خائفان ، كثعلب وسط الزحام ..

الدكتور الآخر قال ان حالي الآن تسبّب بالوعة المغاري طفت بأوساخها وسمومها داخل جسدي ، ثم بدأ يلحس أموالي لحساً بلا رحمة كما يفعل الحيوان أكل النمل مع وكر الحشرات ، ورغم اني اجريت فحص المفراس الدقيق ولكنه طلب مني فحص جديد بالسونار، يريده ان يقنعني ان كل هذا خاص بالفحوصات السريرية ، فقام بملأ

بطاقة السونار في مكتبه ودون أسمى عليها وأرسلني لعيادة سونار بعد توجيهي لنفس العيادة وتنكري بالاسم أكثر من مرة خوفاً ان أهرب لعيادة أخرى ويفقد حصته في الأرباح ، وكذلك فعل مع الصيدلية .. المفروض ان دراسته ومستواه التعليمي وثقافته تدفعان بروحه إلى الأفضل ، هذا ان كان يملك روحًا من الأصل ، في المستشفى وعيادات الأطباء ومختبرات التحليل لن تفكر إلا بحالك ، تنسى المال وتنسى كل ما تحب ، كلمة أو كلمتين من المواتسة أفضل إليك من قنطرة علاج ، وحالك يُرثى لها ، انت أضعف من المسؤول ، تدرك حينها كم كنت قاسياً وأحمق عندما رأيت أو زرت مريضاً ولم تواسه وتطمأنه ، في مثل هذا الموقف العصي تشعر ان الحياة تصبح أضيق من ثقب إبرة الخياطة ، لا صحة ، لا راحة ، لا مال .. و كنت يومياً اقاوم رغبتي في الصراخ ألمًا كالجنون ..

هناك ، لن تفكر بأسعار اللحوم والخضار ولن تفكر في درجات أولادك الدراسية ، لن تفكر في مشاكل العمل .. الصراع بين الأوجاع التي تبطش بي الآن وبين الخطوات التالية المجهولة يسحق بعضها بعضاً ، كنت منهكاً من الألم ، وأمسى رأسي فارغاً كأنبوبة الكاكاو بين أسنان طفل قروي ..

ذهبت أخيراً إلى مستشفى "الخيال" الواقعة في شارع المغرب في بغداد ، واجريت العملية ، أما السبب الذي جعلني أوفق على إجراء العملية هناك ان الدكتور "أنس" لم يطلب أي فحص جديد ولا أشعة السونار ولا تحاليل للدم أو غيره ، بل أخبرني انني أجريت

وهيأت فحوصات أكثر من المطلوب ، انه حدث غير مألف في هذا الزمن ، والسبب الآخر هو ان الدكتور قال لي يمكننا اجراء العملية الان وفي هذه اللحظة ، لم أتمنى الهرب او التراجع لحظة واحدة عن قول موافق ، فما أصابني من الألم والعذاب يدفعني للدخول في مفرمة اللحم لأتخلص منه ..

نحن في مستشفى أهلي وغرفة خاصة لكل مريض ، وهذا يعني ان كل شيء فخم ونظيف ويستبدل كل مرة ، وأجهزة التكيف والتلفاز والحمام المعطر ويعاملونك باحترام جزاء ما دفعت لهم ، و كنت مضطجعاً على السرير هناك أرسم بأصبعي في الهواء على سقف الردهة ، أرسم خطوطاً وأملاً ..

كنت أظن في السابق ان الماء بعد شربه يذهب للكليتين ثم للخارج مباشرة ، ثم تبين لي بعد البحث والخوض في نقاشات مع الأطباء ، أننا بعد ان نشرب الماء يذهب من الفم إلى البلعوم ثم يصل إلى المعدة ليتم امتصاص ما يحتاجه الجسم من الماء بواسطة الأمعاء ، ثم إلى الشرايين ويتخلط بالدم وإلى جميع أجزاء الجسم ، ومع دوران الدم في انحاء الجسم فإنه ينقط السوائل الزائدة والمواد الكيميائية والفضلات ويرجع محملاً بهذه الفضلات ليصل إلى الكلى ، ثم تقوم الكلى بترشيح الدم وتنظيفه ويخرج الماء المحملاً بالفضلات والمواد العضوية والسموم الذائبة لطرح خارج الجسم عن طريق البول .. وبهذا فإنه عندما يتبول الشخص بعد عشر دقائق من شرب الماء فهو لا يتبول من الماء الذي شربه للتو ..

وتعلمت أيضاً أن حصى الكلى تتكون من المعادن والأملاح المتواجدة في السوائل ، وعند انخفاض كمية السوائل نتيجة للجفاف الذي يحدث للجسم بسبب عدم شرب السوائل الكافية أو العيش في مناطق حارة أو القيام بعمل شاق لفترة طويلة أو الإسهال المستمر ، ونتيجة لكل هذا سوف تتحفظ نسبة السوائل في الجسم وتترسب هذه الأملاح والمعادن وترتفع تراكيزها في الكلى ثم تتصالب لتصبح حصوات الكلى المعروفة ، وهناك الكثير من الأسباب مثل السمنة وأنواع محددة من الأدوية وبعض المكمّلات الغذائية المشبعة بالبروتين التي يستخدمها لاعبي كمال الأجسام ، وكذلك مما يؤذى الكلى ويجهدها هو المبالغة في شرب كمية من الماء دفعة واحدة في نفس الوقت بدون تقسيمها على عدد ساعات النهار .. كنت قابعاً هناك كالأسد ، أسد البحر طبعاً.

بعد دقائق هينة دلفنا داخل قاعة مضيئة ونظيفة جداً ، وعدد من الأشخاص رحبوا بي وهم يراقبونني بشدة ، ورائحة الدواء والتعقيم تملأ المكان ، وطلبوا مني الهدوء لأن كل شيء سيمر بسلام ، وهذا ما حدث تماماً ، هدأت من فوري واستقبلت النصائح والتوصيات كالإسفنج .. هذه هي المرة الأولى التي أجري فيها عملية جراحية ، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا المصباح الخاص بغرفة العمليات ويقال عنه أنه يضيء ولا يترك ظلاً ، للحصول على أفضل رؤية للجراح ..

الدكتور ومساعديه وطبيب التخدير وكم هائل من العباقة
يبحثون عن هذا الحجر الصغير ، حيث يكمن فيه سر نجاتي
وحيواتي.. الحال لا يشبه البحث عن إبرة في كومة قش ، وإنما هم
يعرفون مكان الحجر بالضبط وهمهم الوحيد هو الوصول إليه ..

الكثير من الأمور الغريبة تحدث هنا ، أين اختفى الخجل ،
وكلت أحاول بكل جهدي ان أركز وأن أبقى مستيقظ قدر المستطاع ،
وحاولت فتح عيني أوسع ما يكون كأني قرد التارسير الفلبيني ،
لأعرف شعور التخدير وكيف سيبدأ الجسم بالغفوة شيئاً فشيئاً تحت
تأثير المخدر ، ولكن بلا جدوى ، وكل محاولاتي باعدت بالفشل ، وفي
أقل من مليون جزء من الثانية تلاشى كل شيء ، إنما حدث بعد
اعطائي المخدر لا يمكن وصفه والتعبير عن سلسلة أحداثه أبداً ،
وكانهم قطعوا بعض الوقت من حياتك وعمرك ، إنه أمر لا يمكن
وصفه حقاً ، يمكنك ان تخيله وكأنهم ضغطوا زرًا وأحمدوا حياتي
لساعتين ، أو انهم أمسكوا شريط حياتي وقطعوا جزءاً منه بالمقص ثم
أرجعوا الباقي وألصقوه ببعضه ..

لا يمكنني ان أعبر لك عنه بصورة دقيقة جداً فأنا لست ماهراً
لأصل إلى هذا المستوى من التعبير ، لكنك لو أغمضت الآن إحدى
عينيك وفتحت الأخرى ، وحاولت معرفة ماذا ترى في العين المغلقة ،
لفهمت ما حدث معي ، لقد كان الحلم قصير جداً..

خرجت من صالة العمليات بنصف عقل ، الغريب انه عندما تخرج من غرفة العمليات وتذهب إلى غرفتك الخاصة ويضعونك على السرير ، سوف تتحول الغرفة كأنها سيرك ، سوف يحضر الدكتور ومساعده والممرضة ، والرجل الذي كان يدفع سرير العمليات واصدقاءي وأقربائي ، والمنظف وزميله ، وأعتقد ان اثنين من الزائرين في الغرفة المجاورة دخلوا غرفتي أيضاً ، كل هؤلاء لم يأتوا من أجلي وإنما للحصول على البقشيش ، وأخي ينوي ان يعطي كل شخص عشرة آلاف من أموالي التي كانت في يده ، أي ما يقارب مئتي ألف دينار ، ليزيد من آلامي وغيوبتي ..

ها هو المريض يفيق ، والجميع يتحقق به بين اطمئنان وفرح ، وترقب لما سيتفوه به من سباب أو مزاح أو فضيحة أو موعلة أو غناء ، ما فعلته كان غير ما توقعه الجميع ، قبّلت أخي الكبير كما تفعل ابنتي ذات السبع سنتين مع أخيها ذو الستة أشهر ، إثنا عشر قبلاً من الخد وصعوداً إلى الجبهة ، مع صوت باسق وشفاه متعرقة ، جيد أني لم أُقتل الدكتور ، أما الممرضة التي كانت تُحضر ابرة مضاد الالتهابات والمنظفة فمن حسن حظهما انهما كانتا بعيدتين عنّي ،

ثم بدأت أخبر الممرضة عن زوجتي وكم أحبها فأمسكت زوجتي بفمي لتسكتني لكن الممرضة قالت لها اتركيه ليتحدث بما شاء فنحن معنادون على هذا يومياً ،

اتصل بي اصدقائي بعد العملية بنصف ساعة ، أخبرتني زوجتي ان أتصنّع الألم ولا أرد على اتصالهم ، وأن أتظاهر بالتعب والمرض ، وقالت لي: لن يهتموا لأمرك إن لم تعاني وتنظر الألم والمخاض ، ولو تصنعا وكذباً ، إن النساء ماهرات حقاً في هذا الباب.. لكنني تجاهلت النصيحة وأمسكت الهاتف وأخبرتهم أنني بأحسن حال ، وسألت عن أحوالهم وأوصيت صديقي ان يوصل لهم سلامي ..

خرجت بعدها للبيت فزارني أهل زوجتي وبيت اختي وعائلة أخي ، فكنت أمزح معهم ، وأتحرك بنشاط ، وأرتب سريري ، وأظهر لهم انتي أقوى من الألم ، وأقوى من ان يفتك بي مرض أو عملية جراحية كهذه ، وكنت أمزح معهم وأقول لهم: لماذا لم تأتوا لزيارتني في المستشفى علّكم حصلتم على قُبلة . . . كانوا يتحدثون فيما بينهم عن مشاكل الوظيفة وتصليحات المنزل وعن الوضع السياسي للبلد ، غير مبالين لما مَررْت به ، أحسست وكأني نادل في مطعم خال من الزبائن .. ثم زارني رفاق العمل ، وكنت أقف أمام المنزل وأستقبلهم بنفسي ..

ُعدت لعمل الوظيفي بعد عشرة أيام مبتسماً ، متقد الملامح ورشيق العزيمة ، هنئني الجميع لسلامتي واستبشروا لعودتي ، وبعد ساعة أو أقل أرسلني مسؤول عملي لإيصال البريد ثم استئناف العمل المعتمد ، وأداء مهامي الطبيعية كما قبل المرض ، وكذلك القيام ببعض النشاط الإضافي لتدارك حزمة من الأعمال المتراكمة ..

أتذكر زميلاً في الغرفة المجاورة حين نهض صباح أحد الأيام وما ان وضع قدمه على الأرض ليرفع نفسه حتى التَّوَّثْ قدمه فعاد إلى فراشه مرة أخرى ، أخذ إجازة لمدة أسبوعين ثم جاء بعدها صباحاً للعمل متذكر الملامح ، غاضب ، حزين ، يئن ، مغتم لحاله ، وكان المسؤول عندما يطلب منه أداء مهمة أو القيام بواجبه ، يكلمه بصيغة الاعتذار ، أو يرسلني بدلاً عنه ..

لا أشَّجِعُك في هذا المقال على الاحتيال والغش ، ولا أدفعك للخداع والدجل ، لا أنصحك في هذا المقال ان تكذب وتتصنّع المرض والهم والألم بلا مسبب حقيقي ، ولكن ما أطلبه منك ونصيحتي لك أيها الحبيب ، لا تتصنّع القوة والعافية ، لا تتكلف الابتسامة والفرح ، لا تنتظار بالشجاعة والتغلب على المصائب وتظن ان هذا أفضل لك وأن من حولك من الأصدقاء والغرباء سوف يفتخرون بك ويعجبون نقاء قلبك ، على العكس تماماً . . . كن مثلما يراك الآخرون ، وكن على الحال التي يظنون انهم سوف يقابلونك بها ، مريض ، تعان ، تتألم ، منهزم ، عاجز ، مُصاب ..

اعتبرها كذبة بيضاء ، ولا تكررها كثيراً ، واعتبرها أيضاً ، ودائماً ، وفي كل مرة ، اعتبرها الكذبة الأولى ..

بماذا تفكر ؟

ابحث عن ثمرة واحدة ، واحدة فقط ،
أخبرت عنها الآخرين وملالت احتفظ بها ..

إيجنار ديلم إيجنار ديلم إيجنار ديلم ..
أنتِ هي كلية كلية كلية كلية كلية ..

لمن يجيء ؟

حياة استثنائية ..

كان صديقي في المدرسة الثانوية يعمل مع إخوته الكبار في استوديو تسجيل الأغاني على أشرطة الكاسيت ، نهاية تسعينات القرن الماضي ، تذهب إليه وتطلب عدة أغاني من اختيارك وحسب حالتك المزاجية ، ربما وقعت في الحب ، أو هجرتك بعد أيام ، أو اخترت أغاني الطيش والرقص لحفل زواج ، أو فقدت شخصاً عزيزاً عليك ، ليقوم صاحب الاستوديو بتسجيلها على شريط الكاسيت ثم تذهب إلى جهاز التشغيل الخاص بأشرطة الكاسيت في بيتك أو مكان عملك ، وتلقمه الشريط ثم تسرح وتتنشى البهجة أو الهرجة ، أو تُداري دموعاً وتخفيها ..

أتذكر انه كان يعمل بالقرب من مكان عملي في سوق الدورة فتى عمره ستة عشر عام تقريباً ، هذا الفتى سجل شريط كامل لأغنية واحدة مكررة على طول الشريط ، وكذلك على الجانب الآخر للشريط عندما يقلبه ، ويصرع رؤوسنا بها على طول النهار ، من الصباح إلى المساء ونحن نسمع المطرب وهو يصرخ بألم ، بصوته الناعم جداً كأنه يغني مستخدماً قصبة العصير ، أو كأنه ديك صغير يحاول الصياح ، أغنية مطلعها حزن ونهايتها حزن ومحتوها نحيب قاتل ..

المُصيبة ان وقت هذا العزاء يمتد لعشرين دقيقة ، تتكرر في نفس الشريط تسع مرات ، ومن الصباح للمساء ولعشرين ساعات ، تسعون مرة يومياً ، ويستمر هذا العذاب لأسبوع وشهر ، وهذا معناه أننا ولأكثر من ألف مرة نسمع المطرب يوصو ص ، انتهيت ، ضعت بعدك ، دمرتني ، انتهيت ، ولن تنتهي القصة هنا لأن غالباً لاظهره حبيب . . . ولا أعتقد انه يبقى شخص من البااعة في السوق لم يتکهن ويحزز قصة الفتى التعسة ، من غير ان يسأله حتى ، انتهيت ، تعلمت بعد خسارة ، انتهيت ، يا أناي ، دمرتني .. حسناً ، هل انتهيت ، شكرأ استاذ . . . أعتقد اني بقيت أحلم بهذه الكلمة عدة ليالي ، اني انتهيت ، والله انتهيت ، انتهيت ..

حتى لا نبتعد كثيراً عن جوهر حديثنا ، هذا الولد الذي يعمل في الاستوديو كان كسولاً مشاغباً في مدرستنا ، ولديه أصدقاء كأنهم أفراد عصابة ، وبمساندة رفقاء هؤلاء وجمعهم الأصوات لصالحه في انتخابات يوم القدر ، تم ترشحه ثم فوزه ليصبح الطالب القدر للصف ، والعجيب انه تغير وتبدل حاله إلى الأفضل ، وأصبح مجتهداً في دراسته ، ومن النخبة ، وأكثر الطلاب نشاطاً ، ليؤكّد للدنيا أجمع اني كبشر نستطيع فعل الكثير لكننا لا نثق بقدراتنا . . . نعم ، انه صديقي الكسول ، بسبب رتبة القدر وسحرها أصبح مجتهداً ، وأنا صديقكم المسكين بسبب البطيخ الأحمر صرت من الكسالى ، سوف أحكي لكم قصتي مع البطيخ الأحمر في وقت لاحق في هذا الكتاب ، أما الآن لِنرَكِّز على أهمية العقل في تحديد مسار الحياة ..

عقلك وتفكيرك هو ثروتك ووسيلتك للوصول والحصول ، فالطاقة الجسدية والعضلات يمتلكها الجميع ، وسائل النجاح لدينا حتى ان كُنّا لا نشعر بها ، كل ما نحتاجه هو حافز من داخلنا أو محيطنا ليُدْعِّغ عقلنا ويُكَشِّف عن امكانياته .. تأكّد ، ودائماً ، انه ليس المهم في الأمر الذي تفعله هو نوعه وقيمتها ، وإنما المهم كيف تفعله ، والطريقة التي تتعامل بها معه للخروج بنتيجة مُرضية ، وأكثر موقف يواجهك من هذا النوع وتحتاج عندها لتطبيق هذه المعلومة ، هو امتناع الابناء عن قبول كلماتك ونصيحتك وعنددهم ، فعندما يريد ولدك ان يختار ما يقرر مصيره ، لا تبادر بالرفض والغضب والاستهزاء باختياراته ، وإنما قل له: لن أمنعك مما تحب ، ولكن لنفعله بالطريقة الصحيحة .. ثم اشرح له المساوئ ، وأرشده لخيار أفضل ، وهذا أكثر نفعاً من مواجهته ..

أرسل رسول الله ﷺ انس يوماً لقضاء حاجة ، فقال انس: والله لا أذهب (أقسم لأنه كان صغيراً لا يدرك) فخرج وفي طريقه مرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق فوقف عندهم اما للتفرج أو ليلعب ، وإذا برسول الله ﷺ قد جاء إلى نفس المكان ورأى انس فذهب ووضع يده على مؤخر عنقه ، فنظر انس إليه فإذا النبي ﷺ يضحك ثم قال: يا أنيس هل ذهبت حيث أمرتك؟ قال: نعم ، أنا ذاهب يا رسول الله ، ثم ذهب ..

من الحكمة ان يستخدم الإنسان البدائل ، الحب بدل القوة ، التشجيع بدل الزجر والتوبیخ ، الفكرة بدل العضلات ، ولهذا یُعتبر العقل من أقوى عضلات الجسد .. في إحدى المرات جرب رجل هذه الحكمة مع أولاده فقال لهم: من يقرأ ويتفوّق ويحرز معدل درجات عالٌ یُمكّنه من الإعفاء العام من امتحانات نهاية السنة الدراسية له مني هدية قدرها خمسون ألف دينار ، فعل ذلك بديلاً عن الضرب والصياغ والتهديد والصداع ، نفعت معهم الكلمة و كانوا يقرؤون بجد ، ومع مرور الأيام اعترافهم الضجر ، فقال ولده الأكبر: لن أقرأ ولا أريد الخمسون ألفاً ، فقال له الأب: لقد خصّصت خمسون ألف نقداً لكل منكما ولن أغيّر كلامي ، لكن ، إذا حصل أحدكم على الإعفاء وفشل الآخر ، فان الأول سيأخذ الجائزتين معاً وهي المئة ألف كاملة ، وهنا بدأ السباق حتى استحقوا الإعفاء العام من أداء جميع الامتحانات النهائية ..

لطالما أز عجتني تلك النخلة في نهاية البيت ، يسقط التمر الحلو على السطح ، ويتدق ببسها وعلوها حتى تصبح كومة من قشور التمر والدبق وما يلتصق به من الأوساخ والأوراق ، ثم يكلفني تلقيحها خمسة عشر ألفاً ، وقطف التمر وإنزاله يكلف خمسة وعشرون ألفاً أخرى .. أحضرت الكثير من الحطّابين وساومتهم على سعر إزالتها .. أحدهم طلب مني مئة وخمسون ألفاً ليقطعها ، لقد أضررتني حين كانت تحمل الثمار ، وألمني السعر حين نويت التخلص منها ..

بعدها أحضرت رجل تلقيح النخيل نفسه وطلبت منه ان يزيل السعف كله ، وأعطيته خمسة عشر ألفاً ، فأصبحت مجرد جذع قائم ، ثم أحضرت رجل آخر وأعطيته خمسون ألفاً ليقطعه ، وبنغيير الخطة وطريقة القطع كافتنى خمساً وستون ألفاً فقط لا غير ، لإزالتها وتسويتها بالأرض ..

لنفرض ان أحدهم لا يملك حديقة كبيرة في بيته يجتمع بها مع أولاده وأحفاده ، للطعام واللعب والاسترخاء ، وإقامة الولائم معهم كل يوم جمعة ، وكذلك لا يمتلك سيارة تأخذه حيث أراد ، هذا مقدار رزقه والأمر ليس بيده ، الحل ان يُغيّر طريقة تفكيره ، لأن السعادة ليست مستحيلة المنال ولا تشترط وجود المال ... ولم نسمه يوماً ان صاحب الكثير ملّاً ، ولا صاحب الفيل هلاك ... نعم ، كل ما عليه ان يُغيّر طريقة تفكيره وينظر للأمور من زاوية أخرى ..

لا يملك سيارة جميلة يذهب بها مع زوجته وأولاده ، كل ما عليه فعله ان يؤجر التاكسي ويحجب الشوارع حيث يريد وأعتقد ان الاجرة قليلة جداً هذه الأيام ، لن يرغم نفسه ليمسك المقدوم كهراً ولن يتشارجر مع السائق الأهل المار بجانبه ، لن يفكّر بالمحرك والبنزين والأعطال ، لن يَتَحَبَّرَ أين يركن سيارته ، لن يشغل باله إن عاد ووجدها مخدوشة أو تعرضت لحادث ، أو كسر المصباح وهرب الفاعل ، لن يجفل حين يقفز أمامه رجل المرور ، كل ما عليه ان يجلس ويوجه التبريد على وجهه ورقبته ويستمتع بالرحلة ، وأعتقد ان الاجرة قليلة جداً هذه الأيام ،

لا داعي ليختلق الاعذار ويبحث عن مبرر للتشاؤم والنحس والنكد الذي يغمر وجهه ويطفح عنه ، الخير موجود ومتربع ، وأما من أراد الشؤم والنكد ، فان الاعذار متوفرة .. لا يملك بيت كبير ولا حديقة واسعة يجتمع بها مع أولاده وأحفاده كل يوم جمعة ، يمكنه بكل سهولة وكرم ان يذهب إلى أكبر منتزه في مدینته ..

حين راودته الفكرة صباحاً قفز من فراشه على عجل ، كأنه أرنب أو جرادة أو حمار صغير ، أخذ يراقب السماء وهي تنذر بصحو حقيقي بالرغم من الغيوم القطنية الجميلة المنتشرة على كل السماء ، وتحت الغيوم ، وبعض الطيور بلونها الباهت التي تعود لأحد المطيرجية في منطقته ، وموسيقى العصافير في كل مكان ، طلب سيارة أجرة بكبسة زر على أحد التطبيقات في هاتفه الصغير ..

ما ان وصل هناك حتى وقف يتأمل ، واضعاً يديه على خاصرته وقد أفرج بين ساقيه ، وشرع يشاهد الناس هناك مبعثرين كأنهم مجموعة من النمل نزعت قطعة الحلوى من بينهم ، وقد اختار بقعة ينبع فيها العشب الرطب بالقرب من بحيرة صغيرة حيث بريق الجواهر على صفحة الماء المتلائئ ، صحيح انه لا يوجد سمك ينقاوم لكن لا ضير ان تخيل ذلك وهو منتشي أحلام اليقظة بين كل هذا السرور والملاهي ، يمكنه ان يتنفس بهدوء وعمق ، ورائحة العشب وأوراق الشجر ، والعصافير ، والأطفال ، ورائحة الطعام من هنا وهناك ، ورجال يجلسون على طرف الماء يمسكون عصي منتصبة مربوطة إلى كلاليب داخل الماء ، لم يصطادوا أي شيء لكنهم

ينظرون إلى الماء لساعات وساعات بلا سبب ولا فائدة ، يمكنه ان ينام هناك فكل ما حوله بيت مؤقت له ، صوت الزوارق وقهقهة الأطفال ويطغى على ذلك كله ويتسلط عليه صوت القطار الذي يمر في مدينة الملاهي كل نصف ساعة ، يحمل العوائل وهم يصفقون ويحتفلون ويشاهدون الرجال والأطفال محمّلين بأكياس الطعام ويسابقون إلى الفيء تحت الأشجار ، وعلى مقربة منه بعض الكواخ التي أعدّت لالتقاط الصور ، سوف يستمتع حتى ان كان الطعام والشراب الذي يحمله يكفي لثلاثون شخصاً ، لكنه يفكر ان يبقى هناك لوقت أطول ، قريباً من منتصف الليل ، وها هو بعد لحظات هنية يلعب ويضحك ، ويشوّي السمك ، ويأكل الدجاج ..

دلق كل شيء في جوفه واتكى على كوعه الأيسر أمام البحيرة ، البحيرة التي لن يمتلكها بالتأكيد حتى لو كان من الأغنياء أو كانت لديه مزرعة . . . ثم تناول الحلويات والكرزات ولعب كرة القدم والتنس وركض كالصغار ، لن يحفل به أحد ولن يهتم ، بينما تعلق أولاده بالأشجار ، أظن انه لو كان شخصاً غنياً جداً ويملك ما يملك من العقار والأموال لأحب ان يأتي هنا ويفعل كل هذه الاشياء ، انه سارح ومبتسم في مكان مريح ويشعر باطمئنان ، لن يضايقه الجيران ولا فاتورة الكهرباء ، انه مبتسم على الدوام حيث عربات السلع والحلويات والألعاب التي تهيج الأطفال منتشرة على الطرق ، أينما أدار وجهه ، كأنها شبكة صيد ، وهو يشغل أطفاله عنها ..

هرع أولاده إلى عربة مكعبه مغطاة بكل الألوان ، تعلوها فراشه كبيرة ، ومقدمتها رأس أرنب ، تشعّ بالأضواء من كل مفاصلها وتصنع سحراً كأنها شعوذة رجل المزمار الذي سرق الصبيان ، ليشتروا منها غزل البنات ، ولا سبيل لصَدِّهم عنها ، الجهد الوحيد الذي بذله ان يحذر صغاره من التعرّض في حفرة أحدها السقي ، أو يصدموها بعضهم ، أو يقتربوا كثيراً من أسوار القرود والحيوانات ومخالبهم الفبيحة .. بينما لا يأس إن تَذَلَّوا من الأشجار ، وحتى ان اختفوا عن مرآه ، فبعد قليل سوف يظهر رأس من هنا وذراع من هناك ، ثم يظهر جسد وهم يضحكون ويلهثون ، هو في حرية يحسده عليها الجميع ، حتى الحيوانات داخل الأقاص .. ها هو قرص الشمس يهرب بعيداً ليختفي ويحل الظلام ، ولده الصغير يتبول واقفاً كما يفعل الكلب المطرود ..

وينتشر الظلام لا يبده سوى بعض المصايب المنتشرة هنا وهناك ، والأضواء الخافتة التي تأتيه من قريب ، من الألعاب والأشجار وعربات بيع الدمى والزهور .. ثم غادر وهو يسمع صوت القطار للمرة الأخيرة ، أنهى سفرته واختتم يومه بأجمل نصيحة وأهم قاعدة عليه ان يلتزم بها في التنزه والسفر ، وهي ، أن تعود لمنزلك سالماً .. رجع لبيته الصغير ونام مبتسم الأسarisir بينما جاره الغني لم يزل يُقلّب وسادته التي انبعثت من هنا ، وتورمت من جهة ، وارتخت من الأخرى ، وهو يدحرجها ويمرغ بها منذ ساعات ، بينما هو حظى بيوم استثنائي ، ولم يُكلّفه كل هذا المرح أجرة فلاج ليوم واحد ..

وهكذا لن يحتاج إلى تلك الفيلا الواسعة التي عليه ان يُداري زرعها ونبتها وأشجارها وزهورها ، ويوفر الماء والسماد والفلاح ، وهذا كل يوم ، ولا يهدأ له نوم ولا أطراف ، خوفاً من لساعات البعوض والحشرات ، وبهذا فإنه بالعقل يعيش ملكاً ، وهذه الحياة تعالج وتستمر بالعقل وليس بالمال بعد هذا النظرة المختلفة سوف يرى ان حياته ليست بهذا السوء ..

وأنت أيضاً ، في ظرف مشابه ، كل ما عليك فعله ان تغير نظرتك للأمور ، الأعطال لن تضرك ، ولن تقتلك ، إنها مجرد حدث بسيط من يوم طويل ، مع انها لا تحدث كل يوم وإنما كل موسم مرة واحدة ، حتى انفاق المال انه إجراء جميل واختبار حزين ، فالمال ليس ملك من الأساس وقبل ان تمسكه كان عند غيرك ، ومن أخبرك ان السعادة رفيقة المال ، كلا يا صديقي السعادة للجميع ، انظر للأمور من زاوية أخرى لتتخلص من الكثير من همومك ، خاصة عندما يكون الأمر ليس بيديك ولن تتمكن من تغييره ..

وهناك مثال آخر لأمنية بعيدة المنال ، وأعتقد انها قد خطرت على بالك يوماً ما ، هل تذكر انك رأيت منزلاً كبيراً يقف منتصباً أمام نهر أو بحيرة ، ألم تمني في خلداك ان تملك مثله يوماً ما ، ولو بعد حين ، أظن ان الجميع سوف يطلق آهات عندما يرى هذا المنزل ، تحسراً وأمانى .. لكن تخيل لو انك امتلكت مثل هذا المنزل وسكنت فيه وزوجتك وأولادك ، وكل يوم تتناول فطورك على الشرفة تحيطك النباتات في أوعيتها ، والتي تعنني بها انت وزوجتك ، وانت تراقب

الأمواج والطيور وأصواتها ، والزوارق ، وعندما تعود من العمل تضع كرسيًا وتحتسي الشاي والكعك والمكسرات ، وتنهي أعمالك الهاتفية وأنت تراقب الغروب وانعكاس قرص الشمس على الأمواج ، والأولاد يتلقفون إلى الماء كالضفادع ، ثم ان طفلك الصغير أو ولدك المراهق أو الكبير ، أيا كان منهم نظر من الشرفة الجميلة فرأى الأولاد والشباب يسبحون ويلعبون ، لم يستطع مقاومة رغبته وسط كل هذه المغريات ، الماء يحثه ليلعب والأولاد يدفعونه للمشاركة وتحدي القفز ، والرجل الصغير لا يمكنه رفض التحدي وقبول العار ، والحر يلهب جسده ويعويه للنبل ..

المغريات كثيرة ، وبالنسبة لأولادك فان تحقيقها سهل ومبين ..
لقد أحبته الفكرة وأغوطته التجربة ، فذهب للسباحة في النهر ، وكرر الذهاب هناك واللعب والسباحة والقفز من الدرجات الحجرية إلى الماء.. ذهب مراراً وتكراراً بعلمك أو بدونه ، ثم عرق .. وها قد خسرت أحد أولادك واحتفى من حياتك ، بعد كل تضحياتك وجهك وعطاياك ليكُبُر ويصير إلى ما وصل إليه ، أو ربما فقدت شخصين من عائلتك دُفعةً واحدة .. هل تعتقد ان منازل الدنيا كلها تستطيع ان تُعيده لك ؟ عندما تنظر للنهر والأمواج والطيور بعد سنة من الحادث ، هل تشعر بالنشوة والانسراح والابتسامة ؟ وهل تفتخر بموقع دارك ؟ وهل تستطيع بعد هذه الفاجعة النظر من شرفتك تجاه النهر حتى لو كنت واقفًا تصلح شيئاً أو مررت مرور الكرام ؟ ..

مثال آخر ، رجل متوسط الحال اشتري مدفأة جديدة وآخر غني اشتري مثلاً ، أدخلها الفقر للبيت فاجتمع حولها أفراد عائلته فرحين وكأنها فرد جديد ، أحدهم يجرب تشغيلها والآخر يضغط أزرارها ، والزوجة فرحة وقد ملأ عينها هذا الزوج الكادح صاحب المسؤولية . . . أما الغني ، دلف بها للبيت فلم يشُكِّرْ أحد ، ولم يتبه له أولاده أو يساعدونه في إدخالها .. ثم دخل ابنه الكبير يُمسك مفتاح سيارته يُلْفِه بيده يمنة وبسراة ، فلما رأها قال له: إن هذه المدفأة من النوع الرديء وتلوث هواء البيت ، ينظر لوالده بخليط من التكبر والسخرية ، وكان والده قليلاً خبراً في هذه الحياة ، صمت الابن قليلاً ثم قال وهو يغادر الصالة: لو أخبرتني لاخترت لك غيرها . . . فليس كل ما يُتمنى الفرد هو خيرٌ له وأنفع . . . وتنذرَ ان الثخمة أشدُّ ضرراً من الجوع ..

مهما كنت ، قليلاً أو جليلاً ، صغيراً أو شريفاً ، فإنك تحتاج إلى تغيير نظرتك وطريقة تعاملك مع الأمور ، لينقلب الحال ، ويتبعد مسار هذه الأمور لصالحك ، وكما تحب يا مُكَدَّرَ البال .. الجميع يعلم هذه الحكمة ولا أحد يطبقها إلا القلة القليلة ، النادرة ، يعلمون أنك إذا أتعبت نفسك قليلاً بطريقة ذكية ستربح أضعاف مضاعفة من أشياء يُصعب الحصول عليها إلا بجهد كبير ، وربما لن تحصل عليها حتى بالجهد الكبير هذا ، ومنها وعلى رأسها هو الدعاء وذكر الله سبحانه ، فربما تربح الجنة حيث الأنهر والقصور والخدم والحرور بهذه الكلمات السهلة الطيبة ..

وقد قال رسول الله ﷺ: ان الله حيٌّ كريمٌ يسْتَحِي إذا رفع
الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدِيهِ ان يرْدَهُما صَفَرًا خَائِبَتِينَ . . . اطلب من رب الغني
القوي الرحيم ، ولا تطلب من المخلوق الفقير الضعيف المحتاج ..
نفس الكلمات التي تقولها بتذلل ومسكنة لصديقك ، أو لأقربائك ،
وتشتكي لهم عسر حالك ، وتلتمس منهم المساعدة .. نفس هذه الكلمات
أخبر بها من بيده رزقك وحفظك وتوفيقك .. قل يا رب أنا جو عنان ،
ابني مريض ، ثلاجتي فارغة ، احتاج عمل ، وقعت في مصيبة ، أنا
خائف ، أولادي لا يطعونني ، احسن تربيتهم لي ، اموري
عسيرة .. راتبي لا يكفي .. وتأكد أنها لن تُرَدَّ صَفَرًا خَائِبَتِينَ ..

وقال رجل من الصالحين: إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيمة
عن ثواب أعمالهم ، لم يَرَوا عملاً أَفْضَلَ ثواباً من الذكر ، فيتسرع عند
ذلك أقوامٌ فيقولون: ما كان شيء أيسر علينا من الذكر .. وكذلك
الاستغفار الذي يجلب لك كنوز الأرض بلا عناء ، كما قال سبحانه
وتعالى ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اهْ كَانَ غَفَارًا يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
مِدْرَارًا وَيُمْدِدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ انهارًا)) ،
ومنها أيضاً الدراسة والحصول على شهادة سامية وصناعة النفس
وإصالها لأعلى المقامات ..

حتى في صالة الرياضة سوف يُخبرك المدرب أن تغيير
طفيف في وضعية التمرين والتركيز على العضلة المستهدفة يجعلها
تنمو وتقوى .. .

وذلك القاضي الحاذق الفطن ، وقد تحاكم إليه أخوين في أرضٍ لهما ، فقال: ليقوم أحدكم بالقسمة وليختار الثاني أيهما يربى..

إن هذه كلها أفكار استثنائية ، يعتمد عليها أشخاص استثنائيين لعيش حياة استثنائية .. فلا يمكن للحياة أن تمضي رتيبة بلا مصاعب واضطراب ، لكنها تحتاج إلى عقل يعرف الطريقة الصائبة لاستخدام الحل الصائب .. إنها باختصار طريقة الأذكياء لتخطي العقبات في هذه الحياة .. هناك حكمة تقول: سيصل الرجل الأعرج الذي يحمل فانوساً إلى هدفه أسرع من الفارس الذي يتتجول في الظلام ..

وهذه قصة من التراث القديم تحاكي استخدام العقل لتنال أفضل النتائج بأسهل الطرق .. يُحكى أن غرابةً كان له وكرٌ في شجرة على جبل ، وكان قريباً منه جحر ثعبان أسود ، فكان الغراب كلما برت فراخه جاء الثعبان إلى فراخه وأكلها ، فصعب البلاء على الغراب وأحزنه ، فشكى حاله إلى صديق له من بنات أوى وقال له: أريد مشاورتك في أمر قد عزمت عليه .. قال ابن آوى : وما هو ؟ ..

قال الغراب: قد عزمت أن أذهب إلى الثعبان إذا نام فأنقر عينيه فأفتقهما لعلي أستريح منه .. قال ابن آوى: بئس الحيلة التي احتلت ، فالتمس أمراً تصيب فيه مُرادك من الثعبان من غير ان تُغرس بنفسك وتخاطر بها ، وإياك ان يكون مثلك مثل العلجمون الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه .. قال الغراب: وكيف كان ذلك ؟ ..

قال ابن آوى: يُحكي ان علجمواً عاش في بركة كثيرة السمك فكان ينتقي أرذى ما فيها من السمك فياكل منه ، فعاش بها ما عاش ، ثم هرم فلم يستطع صياداً ، فأصابه جوع وجهد شديد فجلس حزيناً يلتمس الحيلة في أمره ، فمرّ به سرطان فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ، فدنا منه وقال له: ما لي أراك هكذا حزيناً كثيراً ؟ .. قال العلجم: وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما يوجد هنا من السمك ، وإنني رأيت اليوم صيادين قد مرّا بهذا المكان فقال أحدهما لصاحبه: ان هنا سمكاً كثيراً أفلأ نصيده ؟ .. فقال الآخر:

إنني قد رأيت في مكان هكذا سمكاً أكثر من هذا السمك ، فلنبدأ بذلك المكان فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه ، وقد علمت أنهما إذا فرغما مما هناك أتيا إلى هذه البركة فاصطادا ما فيها ، فهذا هو هلاك مُدّتي ونفاد طعمتي ، فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرَ هنَّ بذلك ..

فأقبلن على العلجم فاستشرنـه وفـلنـ له: أنا أتـينـاك لـتشـيرـ عـلـيناـ فإنـ ذـاـ العـقـلـ لاـ يـدـعـ مـشـاـورـةـ عـدـوـهـ ، وـبـقـاؤـكـ بـبـقـائـنـاـ .. قال العلجم: أمـاـ مـكـابـرـةـ الصـيـادـيـنـ فـلـاـ طـاقـةـ لـيـ بـهـاـ ، وـلـاـ أـعـلـمـ حـيـلـةـ إـلـاـ المـصـيرـ إـلـىـ غـدـيرـ قـرـيبـ مـنـ هـنـاـ فـيـهـ سـمـكـ وـمـيـاهـ كـثـيرـ وـقـصـبـ ، فـإـنـ اـسـتـطـعـتـنـ الـاـنـتـقـالـ إـلـىـ يـاهـ كـانـ فـيـهـ صـلـاحـكـنـ وـخـصـبـكـنـ .. فـفـلـنـ لهـ: مـاـ يـمـنـ عـلـيـناـ بـذـلـكـ غـيرـكـ .. فـجـعـلـ العـلـجمـ يـحـلـ فـيـ كـلـ يـوـمـ سـمـكـتـيـنـ حـتـىـ يـنـتـهـيـ بـهـمـاـ إـلـىـ بـعـضـ التـالـلـ ، حـتـىـ إـذـ كـانـ ذـاتـ يـوـمـ جـاءـ لـأـخـذـ السـمـكـتـيـنـ فـجـاءـهـ

السرطان فقال له: اني أيضاً قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه، فاذهب بي إلى ذلك الغدير ، فقال له: حباً وكرامة ، واحتمله وطار به..

حتى إذا دنا من التل الذي كان يأتي إليه كل يوم ، نظر السرطان فرأى عظام السمك مكَّسَةً هناك فعلم ان العلجمون هو صاحبها ، وأنه يريد أن يأكله مثل ما فعل مع السمك ، فقال السرطان في نفسه: إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم فيها انه هالك سواءً قاتل أم لم يقاتل ، كان حقاً عليه ان يقاتل كرامةً وحفظاً لنفسه، ولا يمكن عدوه من نفسه حتى يستفرغ ما عنده من الحيلة في قتاله ، لأنه قد أيقن الموت ، فلعل خلاصه في ذلك القتال ، والهلاك واقع به على كل حال ، فلم يزل يحتال على العلجمون حتى تمكَّن من عنقه ، فاهوى بكلبته على عنق العلجم فعصرها فمات ، وذهب السرطان إلى جماعة السمك فأخبر هنَّ بذلك ..

وأكمل ابن أوى قائلاً : وأنا إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم ان بعض الحيلة مهلكة للمحتال ، ولكنني أذُلُّك على أمر ان انت قدرت عليه كان فيه هلاك الثعبان من غير ان تهلك به نفسك ، وتكون فيه سلامتك .. قال الغراب وما ذاك؟ .. قال ابن أوى: تنطلق فتبتصر في طير انك لعلك ان تظفر بشيء من حُلُّي النساء فتختطفه ، ولا تزال طائراً بحيث لا تختفي عن عيون الناس حتى تأتي جحر الثعبان فترمي بالحُلُّي عنده ، فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حُلُّيهم و أراحوك من الثعبان..

فانطلق الغراب ملقاً في السماء فوجد بنت من بنات العظاماء
فوق سطح تغتسل ، وقد وضعت ثيابها وحليها جانباً ، فانقضّ عليه
واختطف من حليها عقداً وطار به ، فتبّعه الناس ، ولم يزل طائراً
بحيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الثعبان ، فألقى العقد عليه
والناس ينظرون إليه ، فلما وصلوا إلى الجُحر شاهدوا الثعبان فقتلوه
وأخذوا العقد ..

التدبر نصف العيش ..

לעכדרך ביטחון על מהותך ..

اليد التي أهدت ورداً ..

"للسعادة علامتان كثرة الإحسان وسرعة النسيان ، ومن غاص في النوايا غرق في الخطايا "

منذ ان قرأت هذه الكلمة قبل سنين ولم تفارق ذهني إلى اليوم، أخبر بها أولادي وأصدقائي وكثير من زملاء العمل .. هل سألت نفسك يوماً ! .. عندما تساعد فقير في الشارع، لماذا يهدا قلبك وتشعر انك اليوم احسن حالا وأكثر سعادةً وأطيب قلباً وأفضل حالاً ؟ .. لماذا فرحتك أكبر من فرحته ؟ .. ولماذا تزداد غبطة وسروراً ؟ .. أليس المفروض انه يفرح أكثر لأنه حصل على رزق يكفيه وعائلته ؟ ..

عندما تحسن وتهدي لجارك شيئاً بسيطاً لماذا تطمئن وتشعر انك تحب وتحمّل وتحمّل الراحة .. عندما تعانق طفلاً وتُقْبِلُه فإن الطفل يبتسم بلا شك ، لكن أنت من يفرح أكثر وتشعر بالأمان والسكينة ، وربما أحسست وكأنك تريد ان تغفو في حضنه ، بل في الحقيقة أنت من كان مُحتاج لهذا الحضن .. ألا تتذكّر تلك اللحظة التي صنعت فيها الصفيرة لطفلك الصغيرة ، ثم كانت هذه الذكرى أغلى عندك من كنوز الدنيا ، لا بد ان هنالك سر ! ..

في المواصلات العامة تنهض ليجلس غيرك ، تفخر بنفسك وترى حالك أجمل وأكرم وألطف ، وبعد لحظات من هذا الفعل البسيط النافع يصعد شخص آخر ويقول السلام عليكم ، فترد السلام بصوت أعلى وأوضح ، تشعر بزهو وحماس ، تشعر بحب الحياة والناس والرغبة لفعل الخير ، وبالطبع تحب نفسك وتشعر ان حالتك المزاجية اليوم أكثر اشراقاً ، وتتمنى ان تصنع معرفةً مرة أخرى وأخرى ..

عندما تفعل الخير تشعر ان كل ما في هذه الحياة من أشياء جميلة مغربية ، تبتسم لك عن حلاوتها ، وأن النسمة ينقل إليك رائحة الامتنان وأثير دعوات الناس من حولك ، جراء معرفتك وسخاءك وإحسانك لهم ..

وكذلك وكما هو متعارف بين الناس ان أفضل طريقة للفهم والحفظ وإتقان المادة الدراسية ، هي تلقين وشرح هذه المادة لآخرين ، ولا شيء أثبت للخير من تعليمه ونشره للغير ..

ودائماً نسأل أنفسنا ، لماذا هذا الشخص ظريف ومحبوب ومرغوب به ، ولا يجلس مع مجموعة من الناس إلا وأحبّوه واستأنسوا بقربه ، ولا يفارقهم إلا وقد ترك أجمل انطباع في النفوس ، ولماذا مهما حاول غيره أن يُفْلِدَه ويصبح مثله لم يستطع ، بلا شك انه الإحسان والعطاء عن طيب القلب ..

صاحبِي يا من تمساك كتابي بين يديك المبدعين ، وتنطلع إليه
بوجهك الطري الناعم المُشرق ، وعينيك الثابتة ، تُقْبَلُ أسطري
الخجولة ، يا رفيقِ الدرب ، يا نقىَ القلب والروح والابتسامة ، يا
صاحبِ الوفاء وأعز الأصدقاء .. سامح وأحسن ، صالح وأكرم ، وكن
طيباً حتى مع من آذاك ، وسترى أن هناك أعباء غليظة خشنة زالت
عن قلبك ، وتشكلت بدلاً منها فرحة وبشاشة لتسمو على ملامحك ،
لو أنفقت مئات أضعاف ما أهديت وأحسنت فلن تحصل على هذا
الانسراح والارتياح ..

وخلال هذا وضده ، من يواطِب ويكرر لوم نفسه كل لحظة
 وكل ساعة ، ويتذكر موقفه مع زميله الموظف أو صديقه ، أو عميل
 شارد الذهن جاء إلى مكان عمله ، لماذا لم أردد عليه؟ لماذا لم أنتقم؟
 لماذا ولماذا ، هو لم ينسى ولن ينسى ولا يريد أن ينسى أبداً ..
 فإنه بالتأكيد يزداد حزناً بعد حزن ، وألماً فوق ألم ..

ثق بي أيها الحبيب إنك عندما تحقد فانت من يتآلم أكثر
 وخسارتك أكبر ، حتى لو حصلت على انتقام يُرضي كبرائك ويطفئ
 النار التي تغلي وتتأجج داخلك ، فإنك ستربح في لحظة تهور طائشة
 عابرة ، أما ألم الحقد والغضب والإسراف في التفكير ، فإنه يدوم كل
 العمر.. تُلازمك وحشة ونفور وينقبض صدرك من رؤية البشر ، ثم
 أضِف إلى هذا الألم إنك سوف تعتاد الانتقام ورد الصاع بالصاع حتى
 مع أقرب الناس إليك ..

كن طيباً كريماً حليماً عفواً ولا تهتم للصنف السيء من الناس،
ولا تسمح لطبعهم الخبيث الرديء أن يتغلب على طبعك الحلو
المستطاب ، وكن مطمئن بأن الله سيجازيك بما هو أثمن وأنفع ، كما
في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: بينما رجلٌ
بفلاةٍ إذ سمع رعداً في سحابٍ ، فسمع فيه كلاماً : اسق حديقةَ فلان
"باسمِه" فجاءَ ذلك السحابُ إلى حرّةٍ فافرَغَ ما فيه من الماءِ ، ثم جاءَ
إلى أذنابِ شرجٍ فانتهى إلى شرجةٍ ، فاستوعبتِ الماءُ ، ومشى الرجلُ
مع السحابةِ حتى انتهى إلى رجلٍ قائمٍ في حديقةٍ له يسقيها فقال : يا
عبد الله ما اسمك؟ قال : ولم تسألي؟ قال : اني سمعت في سحابٍ هذا
ماهٌ : اسق حديقةَ فلان ، باسمك ، فما تصنع فيها إذا صرمتها؟ قال :
اما ان قلت ذلك فإني أجعلها على ثلاثة أثلاثٍ ، أجعل ثلثاً لي ولأهلِي ،
وأردد ثلثاً فيها ، وأجعل ثلثاً للمساكين والسائلين وابن السبيل ..

وكيف لا يُجازى فعل الخير بأشعاف من الاحسان والخير وقد
قال رسول الله ﷺ: ما نقص مال من صدقة ..

أيها الاخ السمح النبيل ، تذكر هذه الكلمات دائماً ،

للسعادة علامتان ، كثرة الإحسان وسرعة النسيان ..

ولابد هنا من إثبات عملي حسابي بسيط ، بسيط جداً لهذا
القول .. لنفرض انك أكملت الدراسة وحصلت على شهادة بكالوريوس
في إحدى تخصصات الطب أو الهندسة أو ادارة الاعمال ، وحصلت
على هدايا وملفات تحتوي مبلغ من المال من الأصدقاء والأقارب

والأهل - كما هو متعارف في بلداننا - وكما قال رسول الله ﷺ :
تَهَادُوا تَحَانُوا . . . وَجَمِعْتَ مَبْلَغَ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ .. ثُمَّ أَجْرَيْتَ عَمْلَيْهِ
جَرَاحِيَّةً فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَمَرَّةً ثَانِيَّةً جَاءَكَ الْأَقْرَبُ وَالْأَهْلُ وَزَمَلَاءُ
الْوَظِيفَةِ ، وَكُلُّ مَنْهُمْ دَفَعَ ظَرْفًا فِي يَدِكَ وَجِبِيكَ أَوْ وَضَعَهُ عَلَى طَبْلَةِ
الشَّايِ وَالْحَلْوَيَاتِ ، مُغَفِّلًا يَحْتَوِي مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ .. ثُمَّ رُزِقْتَ بَطْلَةَ
وَمَرَّةً أُخْرَى تَدَفَقَتِ الْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ إِلَيْكَ .. ثُمَّ ذَهَبْتَ لِحَجَّ بَيْتِ اللهِ
الْحَرَامِ ، ثُمَّ رُزِقْتَ بَطْلَةً آخَرَ ، ثُمَّ ارْتَقَيْتَ فِي السَّلْمِ الْوَظِيفِيِّ إِلَى
مَنْصَبِ الْمَدِيرِ أَوْ نَائِبِهِ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَكَرَّرُ مَشَهُدُ الْأَمْوَالِ وَالْهَدَايَا ..
الآنَ ، لَوْ أَحْضَرْتَ وَرْقَةً وَقَلْمَانًا وَكَتَبْتَ كُلَّ مَنْاسِبَةٍ وَيَقَابِلَهَا مَا حَصَلَتْ
عَلَيْهِ مِنَ الْمَالِ ، وَجَمِعْتَ الْمَبْلَغَ الْكَلِيَّ لِهَذِهِ الْهَدَايَا ، لَوْجَدْتَ أَنَّ الْمَبْلَغَ
ضَخِّمًا جَدًّا ، وَلَوْ أَنْكَ بِالْمُقَابِلِ رُزِقْتَ كُلَّ شَخْصٍ مِنْ هُؤُلَاءِ الْأَصْدِقَاءِ
وَالْأَقْرَبَ وَالْجِيَارَ ، وَكَرَرْتَ زِيَارَتَهُمْ فِي كُلِّ مَنْسَابِهِمْ وَأَفْرَاهُمْ
وَأَتْرَاهُمْ ، وَأَهْدَيْتَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَفْسَ الْمَبْلَغِ الَّذِي أَعْطَاكَ إِيَّاهُ أَوْ
أَكْثَرَ ، لَمَّا كَلَفَكَ ذَلِكَ إِلَّا رُبْعَ مَا حَصَلَتْ عَلَيْهِ أَوْ الْعُشْرُ ، وَيَمْكُنُكَ أَنْ
تُحْضِرَ وَرْقَةً وَقَلْمَانًا ، وَتَأْكُدَ بِنَفْسِكَ الْآنَ ..

لَذُكْ ، يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ وَأَغْلَى الْأَصْدِقَاءِ ، تَذَكَّرُ وَلَا تَنْسِى ، كُثْرَةُ
الْإِحْسَانِ وَسَرْعَةِ النَّسِيَانِ ..

وَيَقِنُ الْعَطْرِ فِي يَدِ أَهْدَتْ وَرْدًا ..

زوجة سعيدة حياة سعيدة

؟ حَيَّةٌ وَمَمْتُوْةٌ

ودع كل أحلامك ..

الأحلام كثيرة ومتعددة ، لكل منا أحلام مختلفة وفريدة ، وشغف وتعلقات ، ورغبات لم تتحقق ، وكل إنسان يمتلك حلم يناسب توجهاته وميله وطموحه ، سواء كانت هذه الأحلام تعود بالنفع عليه، أو لمنفعة غيره ، مثل أحلام شخص ينوي العطاء ومساعدة المخلوقات على تنويعهم ، وكل هذه الأحلام والرغبات لن تتم إلا بعد التمكن والاستطاعة من تحقيقها .. وهذا لن يكون إلا بالقوة ، قوة الجسد والشجاعة والجرأة للحصول عليها والدفاع عنها ، أو قوة البديهة وعدم التردد لاستعمالها قبل أن تخفي أو يسرقها غيرنا ، أو نحتاج القوة للتخلص مما يمنعها ويعيقها ..

لن أحذّك في هذا المقال عن المواقف التي نحتاج فيها إلى القوة الالزمة لشجار في الشارع وحماية أنفسنا والذود عنها ، أو القوة لقيادة جيش والدخول في حرب أو تحرير وطن ، أو الدفاع الشخصي عن البيت والمال .. لن أحذّك عن جيوش المسلمين وجبروتها وجرأتها في زمن الخلفاء الراشدين ، وأنه قد بلغ من إتقان الصحابة رضوان الله عليهم للرمي بالنبل انهم في إحدى معاركهم مع الفرس ركزوا الرماية على عيون الأعداء ، فقلعوا ألف عين فسميت المعركة بذات العيون ..

ولَا أَحِدُّكَ عَن الصَّاحِبِيِّ الَّذِي قُتِلَ أَسْدًا أَحْضَرَهُ الْفَرَسُ مَعْهُمْ
وَأَطْلَقُوهُ لِيُرْهِبُوا بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، أَسْدًا ضَخِمٌ شَرِسٌ مُدْرَبٌ عَلَى الْقَتْلِ
وَنَهَشَ الرِّجَالَ وَتَقْطِيعَهُمْ ، فَخَرَجَ لِهِ هَذَا الْبَطْلُ وَتَصَارَعَ مَعَ الْأَسْدِ
حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ إِصَابَتِهِ بَعْدَ طَعْنَاتٍ وَأَرْدَاهُ قَتِيلًا ، حِينَهَا كَبَّرُ الْمُسْلِمُونَ
تَكْبِيرَةً زَلَّتْ جِيُوشُ الْفَرَسِ .. وَلَا أَحْكِي لَكَ عَنْ صَدِيقِي "عَمَادَ"
الَّذِي تَشَاجَرَ مَعَ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ فَضَرَبُوهُمْ وَأَخْذَ يَجْرِي وَرَأَيْهُمْ فِي السُّوقِ
وَهُمْ يَهْرَبُونَ .. وَإِنَّمَا سَأَخْبُرُكَ عَنْ شَيْءٍ بِسَيْطٍ ، وَهُوَ الرَّغْبَةُ لِأَبْدَأِ
الْمَسَاعِدَ ، مَسَاعِدَةً مَنْ يَحْتَاجُ لَهَا .. سَأَخْبُرُكَ بِحَادِثَتَيْنِ كُلُّ مِنْهُمَا
يُوَضِّحُ لَكَ وَبِيْنَ أَقْلَى وَأَصْغَرِ مَوْقِفٍ تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْقُوَّةِ ، وَهُوَ
مَسَاعِدَةُ النَّاسِ ، وَالْمَفْرُوضُ أَنَّهُ عَمِلَ شُكْرًا عَلَيْهِ وَتَفَعَّلَهُ وَأَنْتَ
مُتَفَضِّلٌ ، لَكُنْ حَتَّى هَذِهِ الْخَدْمَةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيًّا لَنْ تَسْتَطِعَ تَقْدِيمَهَا وَلَنْ
تَسْتَطِعَ حَتَّى أَنْ تَذَلَّ نَفْسَكَ لِأَدَائِهَا ، لَأَنَّكَ سَوْفَ تَرْتَبُكَ وَيَتَصَلَّبَ
جَسَدُكَ وَتَفَكَّرُ فِي تَبَعَاتِ وَتَدَاعِيَاتِ خَطْوَتِكَ الْقَادِمَةِ ، وَيَصِيبُكَ الْبَرُودُ
وَالْخُوفُ وَالْخَذْلَانُ فِي وَقْتٍ أَنْتَ فِي أَمْسِحَةِ الْحَاجَةِ لِأَجْزَاءِ مِنَ الْثَّانِيَةِ
لِتَنْقَذَ الْمَوْقِفَ ..

الْحَادِثَةُ الْأُولَى .. فِي سُوقِ الْكَاظِمِيَّةِ الشَّعْبِيِّ فِي بَغْدَادِ وَدَاخِلِ
أَفْرَعِ مَحَالَاتِ "بَابِ الدِّرْوَازَةِ" الْمُسْقَفِ ، تَلَكَ الْمَحَالَاتُ الْمُتَلَاصِّةُ
بَطِيشٌ وَاسْتَهْتَارٌ ، حِيثُ خَنْقَةُ الزَّحَامِ ، وَأَصْوَاتُ الْبَائِعِينَ ، وَضِيقُ
الْمُمْرَاتِ بَيْنَ بَسْطَةٍ وَأَخْرَى .. اِنْفَجَرَتْ صَرْخَةٌ مَرِيعَةٌ طَوِيلَةٌ حَادَةٌ
جَعَلَتْ قُلُوبَ الْمُتَبَضِّعِينَ فِي السُّوقِ تَتَوَقَّفُ عَنِ الْخَفْقَانِ ، صَرْخَةٌ مَرِيعَةٌ طَوِيلَةٌ حَادَةٌ
أَعْمَقَ الْأَلْمَ وَالْمَعْدَةَ ، حَتَّى لَوْ صَوَبَتْ بَنْدَقِيَّةً إِلَى رَأْسِهَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ

داعي لإنهاك الحال الصوتية بمثل هذه الصرخة ، ولا يوجد شيء في بغداد أو العراق كله طولاً وعرضاً يدفعك لمثل هذه الصرخة الحزينة.. خليط من بكاء واستغاثة وغضب وخوف ، جعلت الناس يتصلبون .. لا حركة ولا إنقاذ ولا تدارك للموقف ، رجاءً ليس الآن أيها الخلق ، لم يكن هذا الوقت المناسب لهذا الجمود والخذلان .. إلا رجل واحد بوجه جاف صلب وشارب كث ، يلبس الزي العربي عقال وشمامغ ودشداشة بيضاء ، والعباءة الرجالية السوداء ، رجل متوسط الحجم والطول والشيب ، ربما كان في عقده الخامس .. اندفع نحوها مسرعاً حتى قبل أن يعرف السبب ، يُزبح الرجل من أمامه ليشق طريقه نحو المرأة العارية ، انتفض من هدوئه وسرحته ، أراد سترها وتغطيتها بأسرع ما يستطيع ، وكان أمرها يهمه ، فهذا ما تربى عليه في مدينته ، وهذه قيمة زيه وهيبته .. لم يردعه شيء تداركاً ل بشاعة المصيبة التي ستقع كما يراها من منظور عرفه وتقاليده ، تاركاً شيبته ووقاره وألامه... لم ينطق بحرف أو يصرخ أو يثير انتباه أحد ، حدث كل هذا بلحظة ، حتى قبل أن يتمكن من رأى المرأة من التمعن ، أو تصدق مارأى .. وبلمح البصر نزع عباءته ولفّها على جسد المرأة الكدرة ، لتغدو كشنقة فراشة تتلوّى ، وحملها ودلف بها داخل أحد محلات .. كان هذا الرجل قد نسي للحظة كل ما حوله من بشر وعيون تنظر بتجاهل وعدم اكتتراث .. لكن هذه اللحظة كانت كافية لإنقاذ البشرية من لحظات التردد في مواقف الحاجة للشجاعة ، كانت لحظة كافية لإنقاذ قلب فتاة من الانكماش حتى التوقف ، وإنقاذ سمعة عائلة من الضياع خجلاً ..

الحادثة الثانية .. كان زميلي موظف في دائرة حكومية وهو أيضاً سائق باص لنقل المسافرين بعد انتهاء العمل الوظيفي ، تحدث مرأة عن موقف حصل معه في مستشفى "اليرموك" عندما كان مع ابنه في إحدى ردهات الطوارئ ، ينظر بصبر لكيس محلول التغذية الوريدي ، أملاً في انتهاء محتوياته وأخذ ابنه والخروج هرباً من أنين المرضى ، ورداة الردهات ، ومكياج الطبيبات المُزُوق ، المكياج المشتق من الأحمر ومشتقاته وفراخه ... صديقي هذا رجل في الأربعين من العمر ، أسمه ، مع تصبغات جلدية سوداء على بشرته من أثر قيادة السيارة تحت شمسنا الحانقة ، وبينما هو جالس يحاول الانشغال وتجاهل كل ما يوجد حوله ، دخل عدّة رجال يدفعون شاب ممدد على سرير ذو عجلات ، وبالكاد يتنفس ، ومن بينهم كان والد المريض يشهاق ويبكي ويتوسل للرب ان ينجي فلذة كبده ويعود به للمنزل سالماً ، وبينما هم على هذا الحال من أصوات البكاء والصياح وبعض الأشخاص من حضر معه يحاول المساعدة ، ويجرب أي معلومة طبية يخبارها في ذاكرته على تنجح ..

حضر طبيب لين ، يتحدث بأنه فتاة هندية تغنى ، وهو يحرك يده بربو قريباً من عنقه ، حياة الشاب و ساعاته في هذه الدنيا على وشك النفاد بينما الطبيب يولول ويدنون بكلمات بأنه قطة تموء .. وفي الأخير وبعد مدة من الزمن ليس باليسيرة وخاصة على أقرباء المريض ، فهموا من الطبيب انه يخبرهم ان خزان الأوكسجين فارغ..

لم يتمالك صاحبِي المنظر فقفز من كرسيه وركض إلى خزان أو كسجين آخر وسحبه قرب السرير واستبدلَه بالخزان الفارغ ، وربط قناع التنفس ووضعه على وجه المريض ، هذا بالطبع بعد أن وَبَخَ الطبيب المُدلَّل ورفع صوته عليه ، والذي يبدو أنه تَلَمَ بقسوة من خشونة وفطاطة صاحبِي .. تنفس الشاب المريض وفتح عينيه كسلبية أفاقَت بعد إغماءة ، مما زاد بكاء الأب أكثر وانكبَ على الرجل يقبله ويُشكِّرُه على موقفه الشجاع ، وأنه كان سبباً لحياتِ الابن مرة أخرى ويعذبُ أباًه ويتمرد عليه ، ويُتعب قلبه إلى ما شاء الله ..

ذهب الطبيب يولول شاكياً واستدعى حرس المستشفى ، حضروا بعد مدة طويلة بالتأكيد ، فقد استغرقوا الكثير من الوقت لفهم الولولة والمواء .. لكن صاحبنا يحمل سلاحاً وهوية يعتمد عليها ..

السؤال هنا .. كم واحد مثلاً رأى شخصاً يغرق أمامه ، أو يُظلم أو يُسرق ، ثم تصلب خوفاً ولم يساعدَه ، كان حلمه أن يساعدَه ، كان يُنوي أن يمْدُّ يدَ العون لكنه يخاف من التبعات ، رغبة بسيطة لكنه لا يستطيع أن ينجزها ، لماذا ؟ لأنَّه لا يملك القوة الكافية لتحقيقها .. أما الرغبات والأحلام الخاصة والتي تتعدى مساعدة الغير ، يمكنك أن تقرَّر بنفسك كم تحتاج من قوة لإنجازها ..

يا رفيقي صدقني ، إذا لم تكن قوياً ودع كل أحلامك ، الأحلام المعنوية ، والأحلام المالية ، وأحلام اليقظة ، والمعارض المفعمة بالأمال ، وأحلام النجاح .. كل هذه الأحلام تحتاج إلى القوة ، أو ، عليك نسيانها ، يجب أن تكون قوياً في كل شيء ، قلب قوي لدخول عالم المال والاستثمار والقفز للفرص بلا خوف ، ومواجهة المنافسين الحاذفين والتخلص من ضررهم ، قوياً في دينك لتدافع عنه وتربي عائلتك ، قوياً لترفع رأس أبيك ، وتفخر بك والدتك ، ويشمخ بك أولادك ، قوياً لتنصر فقيراً يتعرض للظلم ، وتنفذ ضعيفاً التفّ حوله مجموعة من الشباب ليضررVOKE ، قوياً في بدنك لتحديد خطوطك الحمراء ، فلن يعطيك أحد حقك وإنما عليك أخذ بقوة .. وتذكر يا صديقي الغالي أن هناك فرق ، فرقٌ كبير ، بين الشخص الطيب والشخص المستباح ..

حتى عندما تخطئ أثناء النقاش وتتفوه بكلمة سيئة بلا قصد منك ، فلن ينتبه لها المستمع إذا لم تعتذر وتقول عفواً لم أقصد هذا ، أما إن واصلت الكلام وكأن شيئاً لم يحدث ، فلن يهتم أحد أو يعيب عليك ، الناس يحبون الواقع من نفسه .. وأنا عن نفسي يُعجبني ذلك الشخص الذي حتى وإن كان مخطئاً سيقول: هذا أنا ، وهذه حالي ، والحياة فيها الفاجر والفاجر ، والشقي والتقي ، من أرادني فليأخذني وحالني ، ومن لم يعجبه أمري فليتركني لنفسي .. ومن يطلب بخجل يساعد على الرفض ..

إذا لم تكن قوياً لن تهنا حتى بالطعام الذي تطلبه في المطعم ، إن كان طعمه مقرف أو كان قليل الملح ، إن كان بارد أو محترق ، حتى انك ستفكر قليلاً باحثاً عن كلمة مناسبة قبل ان تنطقها ، ثم تجد الكلمة وتهمس ، لكن الأحرف تتعرّض داخل فمك الجاف ، وكأن أحدهم يضغط بسبابته على حنجرتك ، وكل هذا لطلب من صاحب المطعم أو النادل ان يستبدل ، أو تطلب منه اعطائك علبة البهارات . . . فحتى لو كان جيبك فارغاً ، احرص على أن تبقى قبعتك منتصبة ..

إذا لم تكن قوياً لن تهنا حتى بدخولك دورة المياه ، فأنت تجلس لترفرغ همومك ، ثم تخاف أن يخرج لك شيئاً من هذه الفتحة اللعينة ، جرذ أو أفعى ، أو حيواناً من عالم الكوابيس والشيطان ..

منذ زمان بعيد وإلى اليوم ، وعبر كل هذه القرون والناس تحب القوي وتُبجله ، وتقاوله في لباسه وحكمته وقوانيشه ، ويحاولون التعرف عليه وعلى حضارته وأثاره ، وعندما تنظر لكل من حولك من أصدقاء أو مجتمع أو قبائل أو حتى على مستوى الدول ، تراهم دائماً يُجحّبون القوي ويقتربونه ويحترمونه ، فهذه غريزة لدى الإنسان ، يُطيع القوي ويستحقر الضعيف . . . فترى الضعيف المغلوب مولع دائماً بالاقتداء بالقوى الغالب ، يُقلاً في شعاره وزيّه ، وكل أحواله وعاداته ، والسبب في ذلك ان النّفس البشرية تعتقد التمام والفضيلة في من غلبهها ، وتنتظر إليه بالكمال والتعظيم والخلو من العيب ، ولذلك ترى الشعب المغلوب يتشبّه دائماً بالدولة التي غلبته وانتصرت عليه ، يُقلّلها في الملبس والمركب والأسلحة ، ويتشبّه بها فيسائر أحواله ..

ويتشبّه بها حتى في طريقة بناء المصانع وتأثيث البيوت ، وفي الرسم وكتابة الشعارات على الجدران ، وفي حلاقة شعر الرأس وشكل الذقن وملامح الوجه ، وفصائل الملابس وألوانها ، وما كل هذا إلا لاعتقاد الكمال فيهم .. وأقرب مثال لهذا ، أنظر لحال الابناء كيف يقتدون بآبائهم ، والشعب يقاد الملك وعائمه ، ويتسبّبون بهم في كل حال ..

سوف تُسأل عند الشبيب ، ماذا تعلمت من حياتك ؟ وماذا توصي أحفادك ؟ .. سترى لهم: إذا لم تكن قوياً ودع كل أحلامك ، فالعمر مرة لا تكرر ، وحياتك مفردة فريدة ، لماذا تضيّعها بالذل والتنازل .. ستمر بك الأيام وأنت بين الخوف والقلق ، ولا فرق بين البارحة ، أو اليوم ، أو الغد ، تخاف العمل وتخاف الطلب وتخاف الدفاع .. حتى تصحو يوماً على خطى نعل المُشَيِّعين لجثمانك ، ثم تسمع دعائهم لك وهم يقولون فيه:

اللهم إنه كان رجلاً عزيزاً في قومه ، قوياً في عزمه ، فقدنا رمها في خاصرة المعتدين ، وحارساً لكل ما هو ثمين ، كنا ننام بوجوده مطمئنين ، مكانه بيننا ثلثة لا تلتّهم ، وجراح لا يلتئم ، شهيد الزّعامة ، وفقد الكرامة .. وأنت أكثر من يعلم أن هذا كذبٌ لابد منه في هذا المقام المليء بالمدح والتملق والغبار ..

فإذا لم تكن قوياً ودّع كل أحلامك ..

أما كيف تصبح قوي؟ .. لا تسأل ، كل الدنيا تعرف الطريق إلى اكتساب القوة ، فكيف تجهله أنت .. لو سألت طفل أو رجل أو امرأة ، أو بحثت على الانترنت بكل موقعه ، سيخبرونك كيف تصبح قوي بكل بساطة ، لذا لا أعتقد أنك الوحيدة في هذا العالم الذي لا يعرف كيف يصبح قوياً . . .

نصيحةأخيرة ، كُن شخصاً طيباً ، لكن ،

لا تجعل أحد يعلم بذلك ..

لن يعذب المرأة أحد ، بقدر ما يفعل
الزوج الجبان ..

.. حبناه ونخافه ..
نخافه ونحبه ..

الجنازة ..

هذه القصة مشهورة جداً ويعاد نشرها بكثرة على الإنترت ،
ولا أعتقد انه بقى شخص لم يقرأها يوماً أو على الأقل مرّ عليهما مرور
الكرام .. والقصة تبدأ بجملة "شكراً سارة" لكن اريدكم أولاً ان تتعرفوا
معي على سارة .. منذ خمسة سنوات قابلت فتاة جميلة اسمها سارة
لغرض الزواج على الطريقة التقليدية .. كنت أعتقد ان رجل ميمون
السمعة يزأول مهنة طبيب كفيلة ان تربحني تلك الصفقة ، لكن سارة
لديها أولويات أخرى ، بدأت تسألني : هل لك هوايات ؟ ..

لا -

هل تشاهد الأفلام ؟ -

لا -

هل تسافر ؟ -

لا -

هل تقرأ ؟ -

لا -

هل صعدت جبل ؟ -

لا -

ماذا تفعل في وقت الفراغ إذا ؟ -

لا أملك وقت فراغ ! .. -

سكت سارة لبرهة ثم قالت: انت إنسان عادي ، سأكون مهتمة أكثر لو كنت غير عادي . . . دَوَت تلك الكلمات المتعرفة كالصاعقة على رأسي ، خمسة عشر عاماً قضيتها وسط أكواخ من الكتب الطبية المتخمة بالطلاسم ، وفي النهاية احصل على لقب عادي ! .. عُدت للمنزل وأذكر اني لم أنم لياتها ..

بعدها بأيام حجزت طائرة إلى أوروبا وتنقلت بين عدة دول ، وبعد عودتي نويت الاتصال بها ، لكنني قلت في نفسي هذا لا يكفي لأن أصبح إنسان غير عادي ، لابد ان أقرأ .. اعتزلت البيت وقرأت العشرات من الروايات وكتب الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، بعد ان انتهيت من الكتب قلت مجدداً هذا لا يكفي ، أمضيت شهراً كاملاً في مشاهدة الأفلام الأكثر شهرة ، وعندما انتهيت قلت هذا لا يكفي .. تعلمت ركوب الخيل والرسم والسباحة وبعض التمارين عن فنون القتال ومارست العديد من الهوايات الخطرة ، وعندما انتهيت قلت هذا لا يكفي أيضاً ، بقي ان أصعد لقمة جبل ، وبعد رحلة شاقة لمدة أسبوعين وصلت لقمة ..

مدت ذراعي ورفعت رأسي ، شعرت حينها ان هذا يكفي ، لكنني فجأة لم أعد أرغب بالعودة لسارة ، لقد أصبحت إنساناً غير عادي وأصبحت سارة عادية . . . النهاية ..

كثيراً ما نقع في مثل هذا الخطأ وخاصة في المرحلة بين العشرين والأربعين من العمر ، خليط من الطيش والرغبة والقوة ، ولأننا في هذه المرحلة لم نعد أطفال نحبو على سجيتنا ولا كبار نستفاد من خبرتنا ، فتجد الواحد منا إذا تمنى شيئاً يلتصق به ويحوم حوله ويتعب نفسه بلا جدوى ، ثم يفشل ويُجُرّ ذيل الهزيمة داماً ، يعنّف حظه ..

بينما لو أتعب نفسه قليلاً وأضاف لروحه الطيبة بعض الأشياء التي تجذب إليها الرغبات والأمنيات وتقرب إليه الآمال والتعلقات وحشد حيشه من المغريات ، لو فعل هذا بتراو وبصيرة لضمن راحة قلبه وروحه ثم حاز واقتني مراده ومبغاه ..

فعلى الواحد منا بدل أن يتعب نفسه في التَّصْنِع لجذب الآخرين ، عليه أن يتّعب ليَصْنُع نفسه ومستقبله ، يصنع من نفسه شيئاً مصيّباً ثم يترك كل الأشياء الحلوة اللامعة تجذب إليه سهواً بلا قصد ولا مشقة ..

فلا ترهق نفسك وتضيع وقتك بمطاردة فراشة أعجبتاك ،
اجتهد في إصلاح حديقة بيتك وستنهال عليك أسراب الفراشات
بمختلف التشكيلات والألوان ..

هل تعرف كيف يتعاملون مع الشاب الحاصل على شهادة الدكتوراه في الوظيفة والعمل والجامعات ، هل تعلم كيف يعامل نفسه بينهم وما كل هذا إلا لأنه مهيمن ومتمنٌ ولا يبالٍ بهم ولি�ذهبوا هم وعملهم إلى أسوء ما في الجحيم ، رجل سهر الليلي يزين نفسه ويرفعها والآن ثلث المؤسسات وشركات بلده تُقْبَل يده عَلَه يرضي ويوافق للعمل معهم ..

وحتى لو كنت غير ذي شأن على الأقل تقمص دور الأفضل وتكلّف الازدھار والبراعة والتلّفوق .. إذا أردت أن يحبك الناس عليك ان تحب نفسك، الناس أسمى غايتها وجل أهدافها ينضوي تحت سقف الاتّباع والتّقلّيد ، فإذا ارتقىت بنفسك ورفعت قدرك سيرتبعك الجميع ويقلدوك ، ويحبونك لما أحببتي به نفسك ، قال رجل: التّقيّة بصاحبِي و كنت قد اشتريت تمراً رديئاً ، فقال لي: أما علمت أن الله قد نزع من كُلِّ رديءٍ بركته ..

لا تتصل بشخص أو ترسل له الرسائل وتسأله عنه بلهفة ان لم يبادرك نفس الفعل ، ولا تحدّث شخص يجلس بجانبك أكثر من مرة أو مرتين على أكثر وجه ان لم يرُد عليك ، لأن من أرادك لن يتشارّع عنك .. ولا تطلب الاهتمام من شخص المفضل ، المفروض منك بدل هذا الاستجاء والتّصرّع ان تصنع نفسك وثيابك ومستقبلك ..

وفي اللحظة التي تعرف فيها قيمة نفسك وتلمس مواطن الجمال داخلك ، وترى أنك شخص يستحق الكثير ، وأن فتات المشاعر لا تليق بك ، وأن الأشخاص الذين يجهلون جوهرك لا يستحقون وجودك في حياتهم ، وترى أنك مكسبٌ عظيم لمن ظفر الدخول في حياتك ، وأنك صديقٌ رائع وحبيبٌ عظيم ، وأنه على الرغم من وجود الأفضل منك إلا أنك تمتلك البصمة الأكثر عمقاً ، والتي لا تنسى ، والتي لن يجدوها عند غيرك . . . عندما تصل لهذا المستوى من تقدير الذات والثقة بالنفس ، ينهاك عليك الاهتمام بدون طلب ..

لا تتسلّل الاهتمام أبداً ، اصنع نفسك ومستقبلك وثروتك
وستجد الاهتمام يطرق بابك بكمال إرادته ومحتوياته ، ويحمل معه صاحبه ..

وحتى ان اخطأتك عن عمد وإرادة ، لن يعاقبك أحد على هذه الذنوب غير نفسك ، وأنت الوحيد الذي تلوم نفسك وتقسو على روحك ويقتلوك الخجل ، بينما انت كبير في عيون الناس ولا تدرى ، الناس لا يعرفون مساوئك ونسوا عيوبك ولا يفكرون بها أحد غيرك ، وكل مشغول حاله ومحتر بها ، فلو لا أنك فهمت هذا في وقت أبكر . . .

اما اذا رأيت نفسك دودة ، فلا تلم من يدوسك ..

كان لدى امرأة مُسنة إثناءين تنقل بهما الماء ، مربوطين بعمود خشبي على كتفيها ، وكان أحد الإناءين به شرخ والآخر بحالة حسنة لا ينقص منه شيء ، وفي كل مرة كان الإناء المشرrox يصل من النهر إلى المنزل وبه نصف كمية الماء ، ولمدة سنتين كاملتين كان هذا يحدث مع العجوز لكنها لم تتذمر يوماً ، حيث كانت تصل منزلها بإثناء واحد مملوء والثاني للنصف . . . وبالطبع ، كان الإناء السليم مزهواً بعمله ، بينما الإناء المشرrox يحتقر نفسه لعجزه عن إتمام ما هو متوقع منه ..

وفي يوم من الأيام وبعد المرارة والإحساس بالفشل تكلم الإناء المشرrox مع المرأة وقال: أنا خجل جداً من نفسي لأنني عاجز ولدي شرخ يسرب الماء في الطريق للمنزل ..

فابتسمت المرأة وقالت: ألم تلاحظ الزهور التي على جانب الطريق من ناحيتك وليس موجودة على الجانب الآخر؟ .. أنا أعلم تماماً عن الماء الذي يتساقط منك بلا قصد ، ولهذا غرست البنور على طول الطريق من جهتك حتى ترويها في طريق عودتك للمنزل ، ولمدة سنتين قطفت الكثير من هذه الزهور الجميلة لأذين بها منزلي ، ولو لم تكن أنت بما أنت فيه ، ما كان لمنزلي أن يصبح بهذا الجمال ..

لا تنكسر ، لا تطفئ ، ولا تظن أنّ وجودك شيءٍ زهيد في هذه الحياة ، أو أنك شيءٍ بخسٍ رخيص ، وعندما ترى غيرك يتميز بأشياء كثيرة فأعلم ان لكل شخص ما يميزه ، وأنت أيضاً لديك ما يميزك ، ويُعلي قدرك ويرفع منزلتك ، وغيرك ينظر إليك بنفس الطريقة التي تنظر بها إليه ، ويحسدك كما تحسده انت . . . فكن واثق من نفسك ، وافخر بروحك ، وافرح بما عندك ..

ولابد لك ان تعرف قدر نفسك وترفعها وتضعها حيث تستحق وأكثر .. ارتدي أجمل ما لديك ، وتناول أطيب الطعام ، فأنت ما تأكله وأنت ما تلبسه .. ولا ترافق إلا من كان شهم نبيل ، وذو أصلٍ كريم ..

توفي شاب بعمر ثمان وثلاثين سنة بحادث دهس مؤلم ، أب لطفلين .. كنت أعرف هذا الشاب الذي يسكن قريباً من مكان عملي ، رجل هادئ وشجاع ، وذو طول مهيب ، متواضع جداً ، يحب الناس والتقارب منهم ، دائمًا تراه مازحاً يُلقي النكات ويدفع أصحابه للضحكـات.. ويجمع الكثير من الأصدقاء حوله ، وكأنه فهم المثل القائل اصنع لك قرابة في كل خرابـة . . . وبينما نحن ننظر بحزن وصمت إلى مراسم التشيع رأيت فتى يهـرول ويجهـش بالبكاء ، يُـشـق الدمع المتـدفق من عينه ويـخـالـطـه سـائـلـه ، وكـأنـه يـذـوبـ ويـقـطـرـ على شـارـبـه الأـزـرـقـ، صـبـيـ أـسـمـرـ ذـوـ بـشـرـةـ دـهـنـيـةـ مـلـيـئـةـ بـالـبـثـورـ أوـ ماـ يـسـمـيـ حـبـ الشـبـابـ ، وـلـاـ أـعـرـفـ ماـ هـوـ الرـابـطـ بـيـنـ هـذـهـ الـبـثـورـ وـالـشـبـابـ وـهـيـ تـزـيدـ وـجـهـ الـفـتـىـ قـبـاـ إـضـافـةـ إـلـىـ شـارـبـهـ الأـزـرـقـ الدـاـكـنـ وـأـنـفـهـ السـمـيـنـ وـشـعـرـهـ الـمـنـقـشـ ..

جاء يعوي ويلهث وقفز إلى السيارة من الخلف وتمسّك بالدرج
 يريد أن يصعد إلى نعش الميت ، ربما ينوي عناق التابوت من الخارج
 أو فتحه وتقبيل الميت ، لا أحد يعرف ما تحمله مخيلة الأطفال وكيف
 يفكرون ، إنه يودع أفضّل صديق لديه في حياته كلها ، ويمكّنني أن
 أقسم لك انه لن يجد صديقاً مثله أبداً ، ومهما حاول ، لأنّه لا يوجد شاب
 بمثل هذا العمر والمفاخر يرضي لنفسه ان يجالس الصغار ، أو يتمشّى
 معهم في طرقات الحي ، ويباولهم الأفكار ، يحملهم للرُّقي ويحرّمونه
 منه ..

ظلّ أقرباء الميت يَجْرُونه بعطف وغضب ، لأنّه طفل أزاح
 هيبة تشبيع الجُثمان ، وأصبح كل واحد من الحاضرين يأخذ دور الجد
 الحانق المُغتنم ، وهو يداري حفيده الباكى حين تركته أمه وذهبت
 للسوق .. وأقسم لكم أيضاً أنّ بعض الرجال ربما تمنى في سرّه لو
 استطاع ان ينفرد بهذا الصغير بحيث لا يراهم أحد ، ويرفّسه رفساً
 بقوّة وگرّه ..

الرجال يسحبونه وينزلونه عن السيارة والولد يتلوى وينزلق
 من بين أيديهم ، ثم تملّص من بلوزته وخرج من بينهم على نصفين ،
 نصف يغطيه البنطال ، ونصف يلمع كأنّه خرج من ورشة تبديل زيت
 المحرك ، وهو يدُسُّ جسده في محاولة حمقاء للوصول إلى الجنازة ..

وبين هذه الحركة وتلك ، يتناثر عليهم السائل المختلط بالدموع واللعاب . . . ومن بين الرجال من مد يده سهواً فلامست فتحة أنفه وو.....من....بيع.....لتجاوز هذا المشهد . . . ثم يعود الولد للتابوت الخشبي وهو يبكي ويصرخ بطريقة استفزازية أغضبت الجميع ، لقد أصبح هذا الصبي مصدر خجل لأقرباء الميت من المشيعين . . . طفل يتلوى ، بوجه منكمش ، وجسد دهني ينزلق ، وبكاء غير مبرر ، ولو كان المتوفى يستطيع النهوض لغضب أيضاً وصفعه ، وقال له: أيها الكائن المكور القصير ، أيها الطفل البريء البشع ، لقد أذهبت هيبتي وحظوتي ..

هناك ، وعلى مرآى عشرات الرجال والشيوخ ، بين قريب وغريب ، وجار وصديق ، وفي كل من المكان والحاضرين وأجلال الميت نفسه ، غطّت وأحاطت بهم حالة مشوّمة تبّ الخجل والتصادر ، والانكسار من حالة فقيدهم ، والاستخفاف بحكمته ، فكيف لرجلٍ فارع الطول والاحترام والتمجيد ، أن يصاحب فتىً صغير كهذا يتعثر به في الحياة ، ثم يفضحه بعد الممات ..

على قدر ما ترتب فراشك ،
تهنأ بنومك ..

... حبـبـي حـبـي

هـبـي هـبـي هـبـي هـبـي

حكمة على سكلة ..

كثرة الفراغ والبطالة وضياع الاوقات بلا نفع أو نجع ، دائماً ما يأتي معها اكتئاب واستياء ، واضطراب وحزن ملازماً لها ، وقلق.. وترى الشخص الذي لا يجد عملاً يشغل به نفسه ولا فضيلة يقضى بها وقته ، يفكر كثيراً ويصب نفكيره في حياته وذكرياته وكبواته وأيامه العصبية وسبب فشله ، ولماذا وقع في نفس الخطأ أكثر من مرة ، وهذا بالتأكيد يفاقم حزنه ويضخم أبسط مشاكله ، ولبّ تفكيره وتركيزه هو نفسه وطريقة عيشه ، ولماذا لا يحصل على ما يستحق من التقدير ، وأن هذا ليس ما كان يخطط له ، وهو مغبون ومضطهد بطريقة العيش هذه ، وكأنه شخص نجيب لا يوجد من امثاله الا القليل بعده اصبع اليد أو أقل ، يبحث ويتحقق ويدقق في كل ذليل وجليل حوله ..

كثرة الفراغ والاسراف في التأمل ، والتدقيق في أتفه الأمور وضياع الاوقات ، كل هذه الأمور في الغالب تجر صاحبها للذنوب والمعاصي والاساءة والاذى ، سواء تسبّب بها لنفسه أو لمن حوله ..

يصرح الاطباء ان جسم الإنسان خلق للحركة وليس للسكون والجلوس ، واقرب مثال لمساوئ الفراغ هو شخص تعدى الاربعة عقود عازباً بلا زواج ، تجد كل العيب في عقله وتصرفاته ، دائماً وتجده كثير الغضب والزعل والخصام ، كل هذا من خواء أوقاته ، وخلو أيامه و ساعاته من أشياء حقيقة مفيدة ينشغل بها ..

فعلى الإنسان ان يبقى مشغولاً للحد الذي يلهيه عن تعاسته..
ان كنت يوماً بلا عمل ولديك فائض في أوقاتك وحزين من الهموم
والحسابات ، تحرك وسوف تحصل على كل ما تحب ، عندما تمرض
تحرك ، تريد عمل تحرك ، غاضب أو منزعج أو مصاب بالإنفلونزا
وآلام الرأس تحرك .. ألم تسمع ما يقوله كبار السن بأن الحركة بركة..
انها حقيقة وواقع ، جرب ان تذهب لتسوق ، ولو كيلو من الخضار
وسوف ترى البركة ترافقك ، لأن الله أمرك بالسعى للخير والرزق ،
تحرك لتحصل على الصحة والرزق والسعادة وراحة البال ، وتتغير
حالتك المزاجية والجسدية والعصبية ، وتتغير حتى أموالك ومستقبلك
وتفكيرك ..

لا تجلس في البيت تتبش محتويات المنزل وساكنيه بحثاً عن
المشاكل كما تتبش القرود بعضها تبحث عن القمل ، تجلس في البيت
وتصنع نقاشاً غير متكافئ القوة والاستطاعة ، تتطفل وتحشر افوك في
رسم وشكل كبة البرغل ، وأوراق السبانخ الملقاة على الأرض ، وبقايا
الصابون ، ونعل الحمام الرطب ..

يا صديقي الطيب إذا وجدت نفسك في هذا المقام ، اهرب من
البيت ، جد عملاً ثانِ أو اذهب إلى المسجد في منطقتك فهناك قمة
الامان والاطمئنان ، اذهب وصل واتل آية واذكر ربك ساعة ، ثم
ارجع واشغل نفسك بتعليم أولادك سيرة النبي ﷺ وبعضاً من سيرة
عظماء الاسلام ، ساعد زوجتك في جبال تنقل كاهلها ، وأصلاح

اغراض بيتك ، وساعد أولادك في واجبات المدرسة ، والعب وتسل معهم كطفل يلهم .. المهم لا تقع على الاريكة تدقق وتتبرّص ، لن تخترع شيئاً جديداً لهذا العالم ، أبداً.. عام ١٩٩٨ حصلت على فرصة عمل اثناء توسيعة مدرسة وجامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، لم تكن فرصة العمل مهندس بناء أو وظيفة مرموقة ولا حتى قريب منها ، انها عامل بناء مساعد بكل بساطة ورقة ..

كان هناك توسيعة جديدة لمدرسة الشيخ حيث يتم العمل لمبني هائل على شكل مستطيل يحتوي العديد من القاعات الضخمة ، وعلى طابقين ، ربما مكتبة دينية أو متحف اسلامي أو قاعات دراسية ، يتوسطها فضاء كبير ، يغلف البناء من الداخل والخارج بالحجر الابيض والنقوش الحجرية من زخارف أو آيات من القرآن ، أرضية الغرف من المرمر الطبيعي ، احناءات واشكال هندسية مرتفعة من الحجر لتشبه واحدة من القلاع الملكية القديمة ، وسور خارجي مرتفع وقمم مدبة على طول السور على شكل اقواس ، وبين قوس وآخر يثبت نقش من الحديد تزيد من قوة السور إضافة إلى لمستها الجمالية كزخرفة ، وبوابة كبيرة مبالغ بها ، بارتفاع أكثر من عشرون متراً، مدخل فاخر مهيب للمدرسة ، ويغلف مدخل المدرسة بقطع حجر ضخمة تأتي من مدينة الموصل ، ويتم بناء مخازن ومكاتب وسرداب وساحات لتحمل زخم الوافدين أيام العيد ، لم أمكث هناك فترة طويلة كي اشهد اكتمال التوسيعة ، وأعرف المغزى من كل جزء لأنكل عنه بإسهاب ..

الحضره القادرية أو المدرسة القادرية هي التسمية التي تطلق على ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد .. يقع ضريح ومسجد الشيخ في منطقة باب الشيخ من جهة الرصافة ، حيث ان أصل هذا الجامع كان مدرسة انشأها أبو سعيد المخرمي ، ولما توفي الشيخ أبو سعيد جلس مكانه الشيخ عبد القادر للتدريس ، ولما توفي دفنه فيها ، وكانت تسمى مدرسة باب الأزج في محله باب الأزج ، وهي واحدة من محلات بغداد القديمة ، ولكن اسمها تغير إلى محله باب الشيخ نسبةً إلى الشيخ عبد القادر .. أعيد بنائهما بأمر من سليمان القانوني خلال فتح بغداد ١٥٣٤م بعد ان دمرها المغول وأضحت أطلالا ، وتعد المدرسة صرحاً معمارياً مهماً في بغداد ، وقد سميت الساحة القريبة منها ساحة الجيلاني .. وتضم المدرسة القادرية مسجداً وضريحاً ومكتبة تسمى المكتبة القادرية ، وتحتوي هذه المكتبة الآلاف من نفائس المخطوطات في مختلف العلوم الاسلامية ، فضلاً عن المطبوعات النادرة ..

الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله الهاشمي ، يُعرف وبِلقب في التراث المغربي بالشيخ بوعلام الجيلاني ، وبالشمرق عبد القادر الجيلاني .. توفي الشيخ سنة ١١٦٦ وقبره في بغداد ، وذكر ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية" ان الشيخ دفن في مدرسته رحمه الله تعالى ، كان رجلاً صالحًا بشهادة أئمة الدين ، بريء مما يحدث اليوم بإسمه وداخل مدرسته من شعوذة وخبال ..

ومن مآثره وجميل أقواله رحمة الله: فتشتت الاعمال كلها فما
وجدت فيها أفضل من اطعام الطعام ، أود لو ان الدنيا بيدي فأطعمها
الجيع ، كفي متقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني الف دينار لم أبيتها ..

حين وجدت عملاً في المدرسة القادرية .. كنت أخرج من البيت
الساعة الخامسة والنصف فجراً ، فطور لا بأس به ، ملابس تناسب
الغبار والحجر ، وجه سقيم مكفر يناسب التصاغر والتلوث ..

وها قد طلعت خيوط الشمس وها هو الفجر يغطي بعاءاته
البرتقالية اسطح البنيات وأعلى أشجار الكالبتوس ، وهوائه البارد
ينسيك مرارة المكان الذي ستدهب إليه ، وها هي الشمس المحتالة ،
انها تبتسم لي بحنان مشقة لحالي ، اركب أول سيارة ، وبينما تسير
بتأنى ارقب بيتي البعيد وكلى حنان للعودة إليه قريباً ، أتذكر فراشي ،
الدفء ، الطعام ، اللعب ، الراحة ، ارقب شجرة ربطنا عليها أنا
وأخي سلك هاتف وصنعنا ارجوحة تهدل بنا حتى منتصف الشارع
حيث تمر الشاحنات .. انظر إلى بيوت أصدقائي المدللين ، محل
الحلويات ، مدرستي ، الحدائق تحيطها أشجار الدفلة كالسور ، ارقبها
مودعاً لها كأنني انا الرصيف الساكن وهي تغادرني مبتعدة ، ارقبها
وهي تمضي كما تمضي الغيمون بهدوء ..

انتظر في كراج حي الشرطة حيث تأخذني السيارة الثانية إلى
منطقة الباب الشرقي ،

في الكراج وبينما تمتلئ السيارة بالركاب النعسانين كنت ادقق في كل شيء حولي بصمت وكسل ، ارافق الطيور على شجرة سدر قريبة عندما تخرج من اعشاشها وتمطّي اجسادها ، تمد ساق يمين وجانح يمين وبعد ما تستطيع عن رقبتها ، والغريب انها تفعل هذا مع جهة واحدة من اجسادها ولا تفعله مع الجهة الأخرى ، أعتقد انها كان تتم على جنبها ، كانت هناك رياح خفيفة تحرك الاوساخ وأوراق الشجر على الأرض بأمان ، تصبح هذه الاوساخ كأنها زوبعة طرية تجري وراء بعضها وهي لاهية خارج المنزل ..

انظر من النافذة إلى اصحاب المحلات والدكاكين ، أحصي بعض الاشخاص للتأكد انهم موجودين كل يوم ، نفس المكان والهيئة والفعل ، وفي الشتاء تجد كل ثلاثة منهم أو أكثر يتجمعون حول نار أوقدت من قطع الكرتون واحشاب من القمامه ، وكل منهم ينتظر بدء العمل والبيع وانتشار السوق ، اما في طريق العودة ، نفس الاشخاص لكن الحال والمنظر مختلف ، ذلك العجوز يقرأ القرآن خارج دكانه وهو يدفى عظامه وقريباً منه نجار يحاور امرأة لكن الابتسامة لا تفارقه ، يتحدث ويضحك لا هثا حتى يصل طرف فمه إلى اذنيه ، انه فرح جداً ، يتكلم عن نوع الاخشاب التي يستخدمها وعن السرير ، خزانة الملابس ، منضدة الزينة ، طاولة ، مرآة ، أموراً عادية ، لكنه يضيف إليها ابتسامة بلهاء ، وقرب منهم بائع الخضار يصرخ عالياً معناً عن اغراضه بطريقة قبيحة جداً وكأنه يعلن لجيرانه البقالين عن قوته وأخلاقه السيئة ، وانه مستعد للشجار بفخر ، أكثر مما ينادي المارة ليشتروا منه ..

أوصلني الباص صباحاً بعد نصف ساعة أو أكثر لمنطقة باب الشرقي حيث تجد الفقراء يفترشون الأرض لبيع الخردوات الرخيصة والجوارب وسلاكين الجيب ، وقطع ملابس بسعر لفة الفلفل ، وقريباً منهم لاعبي القمار ، يلعبون فيما بينهم ويربح أحدهم لجذب غشيم أو أبله جديد على هذه الشوارع المدنسة ، هناك يوجد كل سحت ومحظور ..

تنبض الجيوب على العلن ، جهاز موسيقى ثقيل محسو بطباق
بناء ، ولربما أعجبتك قطعة ملابس ، تجربها وتشتريها ثم تتفاجأ في
البيت انها استبدلت بخرقة أو بجامة طفل ..

وهناك في كراج باب الشرقي تقف السيارة المارسيديس ذات
الثمانية عشر راكباً لتمر من أمام موقع العمل ، وانزل هناك وإلى
العمل والعمل . . . حين تأتي الساعة السابعة صباحاً يأتي معها
العمل الحقير ويغزو العمل موقع العذاب ، بعيون غاضبة مليئة بأوردة
حرماء ، ووجوه ذابلة من التعب ومشدودة من الحنق ، ملابس قديمة ،
وفي يد كل واحد منهم كيس الغداء ، تتساوى عدد الخطوط في الوجه
والجبين ، كلما زاد الفقر كلما زاد عدد هذه الخطوط ، وخط كبير
وانتفاخ بسيط أسفل العيون الباهتة ، وعدد من الخطوط والشخابيط
على الوجنتين لتبدل وجوههم إلى قطعة خيار ذابلة ..

في ذلك الوقت لم يكن هناك مرض منتشر اسمه انفلونزا
الخنازير أو الطيور وفايروس ايبولا والفطر الاسود أو كورونا ، وإنما
هناك مرض اشد فتكاً وخطراً وهو الفقر ..

في موقع العمل سيبدو المنظر مدهش وطريف لو كنت عينين
في رأس صقر يغرس بصره من الأعلى ، أو عدسة في كامرة درون
وتتأمل الموقع من الجو ..

كل من المهندسين والعمال والمسؤولين والحرس، ونحن والسوق وكثير من الناس ، كلهم مبعثرين في الساحة ، مبعثرين بطريقة غريبة ، تذكرني بذلك المخبول الذي امسك كيس الحمص ونشره على الأرض الترابية عندما كنت اعمل في "سوق الدورة" ابيع المواد الغذائية ، كان المخبول يمر من أمام بسطتي ويحمل بيده كومة ملابس قذرة وباليد الأخرى يحمل كيس يحتوي مسحوق الغسيل ، وقف حزيناً غاضباً لأنه لم يستطع ان يدخل كيس مسحوق الغسيل في جيب الملابس التي يحملها في يده ، وفي كل مرة يحاول ادخاله يتزحلق الكيس وينزلق خارج الجيب ، في الاخير غضب ككل مسحور ونظر يميناً وشمالاً ، لمح كيس الحمص الاقرب إليه وأنا اراقبه بلا حول ولا قوة ، كنت طفلاً صغيراً ، فرفع الكيس ونشره في كل مكان ، أعلى واسفل وفي كل الاتجاهات بحيث من المتعسر على أي إنسان ان يجمعه ويعيده في الكيس من جديد ..

كان الناس مبعثرين في موقع العمل بهذه الطريقة ، عشرة اشخاص هناك واثنان هنا ، وعمال فوق وتحت وفي النفق والسرداب وفوق السيارات ، وعلى الرافعات وأعلى الاسكلات ، ومتجمعين حول مهندس وبين الاتربة تحت الغبار ، مزدح من بشر وسيارات ثقيلة وعربات صغيرة ، وادوات العمل ، والحجر المقطع واحشاب وقضبان الحديد، وقبعات الامان البيضاء للمهندسين والمسؤولين،

يتصاعد من كل هذا الخليط غبار غاضب ، كأننا طبخة
البريانى المحشو بقطع اللحم والمكسرات والبازلاء والبطاطا والجزر ،
طبخت وسُكبت توأ فى اناء كبير مستدير ..

كنت ومجموعة من العمال نشبه كتيبة من عشررين ولداً لا
نجرأ القيام بأى خطوة دون أوامر من القائد جمال ، وعندما يأمرنا
نؤديها بنصف نجاح ، كان المسؤول جمال رجل معتدل الوجه لا
عابس ولا بشوش ، رجل ضخم عمره خمس وأربعون عاماً تقريباً ،
لديه اصابة في يده وفي عينه ، وربما في اماكن أخرى ، لم اسأله يوماً
ان كانت بسبب العمل في هذا الموقع أو بسبب الحروب التي لا تنتهي
عن بلادنا . . . كان جمال شخصاً خلوقاً هادئاً مستقيماً ، ومحبوب بين
الجميع ، مخلصاً في العمل وكأنه يداري ولده الهائج ، أكثر شيء
يكرهه جمال ان يرى يدك تخبي في جيبك ، نظف ، اعمل ، ارفع
حجرأ ، تسلق السلام ، سر بغضب وعدل ، احتضن مجرفة ، اركل
كيس اسمنت ، المهم لا تضع يدك في جيبك . . . وكنا دائماً ما نراه
يمشي مستعجلأ شارد البال يبحث عن العمال مع وجه غاضب كأنه
ذاهب إلى دورة المياه . . . معظم العمال في مجموعتنا طلاب من
المدارس الثانوية ، جئنا للعمل اثناء العطلة الصيفية ، نقىضاً للمخيم
الصيفي لأولاد الاثرياء ..

وقت الراحة من الساعة الثانية عشر إلى الواحدة ، استراحة للغداء والصلاوة وعشرون دقيقة من النوم ، غفوة صغيرة منعشة . . . حين يأتي وقت الغداء نفرش الطعام على الأرض ، كل أربعة أولاد أو أقل ، ونتبادل بعض الأصناف بيننا ثم نلتئمه بلا احترام أو نظام ، وبلا رحمة حتى نؤتي عليه ، لا يمكن أبداً تخيل ما يفعله إنسان جائع ، كل هذا العمل المرهق المضجر الذي يحتوي على مخاطر كبيرة وكل هذه المشقة تعتبرها مغامرة وتحدي فيما بيننا ، عابثين نضحك أو نتسابق . . . والاصابات جزء لا يتجزأ من حياتنا اليومية ، ذلك ان الحجر طوله متر وعرضه نصف متر وزن كل قطعة ما يقارب خمسين إلى مئة كيلو ، نأرجهما وهي واقفة يمين شمال يمين شمال حتى نصل إلى الرافعه . . . انحرست ذراع زملي يوماً بين حجرين وطبقاً عليها بقوة ، سالت دماءه حتى كاد الحجر ان يقطع اصبعه ، وآخر توفي بصعقة كهربائية محاولاً توصيل المتفق بمصدر الكهرباء ، حيث كان المصدر عبارة عن خشبة ثبت عليها قطع حديد عارية كمأخذ ، لتربط السلك وتنتبه بالبراغي . . . داخل المخازن وعلى اسطح القاعات الداخلية يتجمع طائر السنونو على جميع الحال والاسلاك ..

هناك تعلوا اصوات المحركات وضجيج المطارق ، والعمال والتكسير واصوات السيارات والادوات ، وسباب المسؤولين للعمال ، وسباب العمال للمسؤولين سراً ..

ورائحة العمل التي تغطي موقع العمل ، الوجوه القبيحة الكالهة الملائمة بالفقر وثقل الاحجار ، لأنهم عبود في سجن مع الاعمال الشاقة .. أشعة الشمس التي ترتفع ، تتحدى وتقهر الجميع لو استطاع أحدهم فلق عينيه أو النظر لأعلى ، الجو مليء بغبار قذر خانق ، غبار العمل وغبار الهواء ، وحر كريه وعرق قاتل ، يجعل ملابسك المطرزة بخطوط الاملاح تلتقص بجلدك ... هدوء وحر وجو رطب كأننا داخل جدر حساء الفاصلولياء قبل ان يضاف إليها معجون الطماطم ، وبين فترة وأخرى تجد أحد العمل أو المسؤولين ينفجر غاضباً من تراكمات الجو والارهاق والعمل ..

نداءات مختلطة بمختلف الاصوات والطبقات ، في البداية كنا نلتفت كلما سمعنا صياحاً أو عطاساً ، لكن بعد أيام لن يلتفت أحد حتى يسمع اسمه ، وأينما وُجد الظل تجد اشخاص قابعين تحته ، وخلف الجدران ، مبتعدين عن الحر المهلك الذي يجعل بشرتك تبدو كجلد دجاج محمص ، يقلب لونها إلى خليط من البنى والرصاصي الداكن من غير حمرة ، وأينما ذهب الظل مضوا خلفه كالمتسولين ، وركضوا تجاهه كأفراخ الدجاج ... غبار واتربة وأجهزة النقاشين تنفس تراب خانق ، والطشور المنبعث من آلة القص يضاهي وحشاً بشعاً بضم خ ، ضخم مكور يقذف الدخان ، وأشياء تنزلق من أيدي العمل للأسفل ، وأوامر المهندسين ..

السلكة التي كنا نسلقها ترتفع إلى ثلاثون طابق ، وأعلى ما وصلت إليه يوماً هو سبعة عشر ، أتذكر اني في آخر يوم لي كدت أسقط عند الطابق الرابع عشر ، وحين تهطل الامطار شتاءً للك ان تخيل غبار وعرق ومطر على قميصك ، وانت تخاف ان تتزحلق فتسقط من فوق ، او يتزحلق الاستاذ جمال ويسقط فوقك من السماء ، قطرة مطر وزنها مئة كيلو ، وخطورة الكهرباء في المطر التي تبحث عن لمسة حب ..

كنت اتقاضى الف وخمسمائة دينار في اليوم ما يعادل دولار واحداً هذه الأيام ، كنت اذهب نعساناً حين يرفع الظلام طرف ثوبه ، وأعود نائماً حين يرخي الظلام سدوله ، كنت اعمل فوق السلكة يوماً تحت أشعة الشمس الحادة ورأسي يلتهب كالمدفأة ، (والسلكة هي أعمدة تتركب مع بعضها وتوضع إلى جانب البنيات المشيدة حديثاً من أجل تنقل عمال البناء والعمل عليها) وكنا نثبت الحجر ونربطه بقضبان رفيعة إلى حصيرة من الحديد الثخين المثبتة بقوة إلى الجدار، ثم نملئ الفراغ بين الحجر والجدار بخلطة الاسمنت والرمل ..

وكان هناك شخصان يعملان قريباً مني ، سمعت أحدهم يوماً وهو رجل كبير في العمر يوصي الشاب الذي يعمل معه قائلاً: إذا تزوجت يوماً وكان لديك الكثير من أوقات الفراغ لا تجلس في البيت ، اذهب إلى مقهى ، اخرج إلى السوق ، اذهب لأي مكان ، المهم ،

لا تجلس في البيت حتى ان كنت بلا عمل ، لأن هذا الجلوس في البيت يسبب لك مشاكل كبيرة ، وهذا الفراغ هو سبب لكل المشاكل والفقر والرذيلة ، بالفراغ تنعم بالفقر ، وبالفقر انت حشرة لا أكثر..

كانت هذه واحدة من النصائح الماسية التي سمعتها عن طريق الصدفة ولا يزال صداها يخربش طبلة أذني لعشرات السنين . . . بعد ان تركت العمل بيومين أو ثلاثة أيام التقىت بأصدقائي وأخبرني أحدهم اني قد حصلت على علاوة ، وازداد مرتبى إلى ألف وسبعمائة وخمسين دينار ، جاءت متأخرة ، كالمشروب الغازي عند نفاد قطع الدجاج ..

الكسان تتعبه حتى الراحة ..

۱۷۳۰ء کی تاریخیں

لغز الباص ..

اهلا صديقي اللطيف .. ها قد وصلت معي إلى هذا الجزء من الكتاب ، ما رأيك ان نأخذ استراحة بسيطة ، سوف احكى لك عن لغز يبدو للوهلة الأولى من أسهل ما يكون ، لكنني عندما أخبرك لاحقاً بالنتيجة سوف تستغرب اشد الاستغراب ، وتكرر محاولة الوصول للنتيجة مرات متتالية ، لذلك أرجو ان تعيّن انتباهاك ..

ابتداءً من الساعة الخامسة فجراً في كل يوم يتوجه باص من بغداد إلى محافظة الموصل ، كما يتوجه كل يوم وفي نفس الوقت باص آخر من الموصل إلى بغداد ، ويستغرق كل باص ست ساعات من الوقت لقطع المسافة بين المدينتين على هذا الطريق ، ويستمر انطلاق باص جديد من كلا المدينتين ، في كل ساعة ، وعلى مدار اليوم ..

اللغز هو: ما هو عدد الباصات التي يقابلها المسافر أثناء سفره من بغداد إلى الموصل في أحد هذه الباصات؟ .. أعتقد ان إجابة كل قارئ سوف تكون على النحو التالي .. كل مسافر سوف يقابل ست باصات فقط ..

غير ان هذه الإجابات غير صحيحة مطلقاً .. سوف اتركك قليلاً لنفكّر ثم أخبرك بالنتيجة ..

الحصان ..

بما ابني صنعت كتاباً وكتبت كلاماً ، فلا بد لهذا العمل ان يحتوي على جزء وركن خاص بالأنثى ، لكنه تحدي كبير لعجز قاسي الملامح مثل حالي وعمرني ، والنساء تنفر مني على اختلاف اشكالهن وأعمارهن ، وهذا ليس ذنبي إلا اني قضيت حياتي أعمل في مجتمع الذكور والبناء والسوق والمصانع ، ولا أجيد التملق والملاطفة والتواصل مع النساء بأي حال من الاحوال ..

لهذا ، سيدتي ، أرجو ان تتمني لي التوفيق في دخولي لعالم مُبهم ومعقد أكثر من حالي النفسية ..

عندما كنت ادرس في معهد "اعداد المدربين التقنيين" في منطقة "الزعفرانية" كان معظم الطلبة هم خريجي الاعداديات الصناعية على اختلاف تخصصهم ، لذلك تجد الاغلبية العظمى هم الذكور ، بل يمكنك القول انه مجتمع ذكور يبحث ، لأنه في المرحلتين الأولى والثانية وجميع أقسام المعهد ، كهرباء ، الكترون ، ميكانيك ، سيارات ، وغيرها ، ومن بين آلاف الطلاب ، كانت توجد هناك اربع بنات فقط ، ثلاثة في قسم الالكتروني وواحدة في قسم الكهرباء ، وكان الطالب حينها يلقبون انفسهم بالتماسيخ أو معهد التماسيخ ... الغريب انه في نفس البوابة الرئيسية هناك ، ولحسن حظ هؤلاء الطلبة المراهقين المعدمين يقع مدخل معهد الادارة ،

وهو نقىض معهداً بالمعنى الحرفي ، لأنَّ أغلب طلبه من
البنات ، وقلة محظوظة محسودة من الشباب المتهلل المبتسم ، وكنت
دائماً ما أرى بعض زملائي في القاعة الدراسية يقف عند المدخل
الرئيسي وينظرون بكآبةٍ وأسى إلى موجة الطالبات حين تتبع من معهد
الادارة ، وكانتوا يحملون وروداً ويشمونها كثمالٍ نادمين ، فلت مرة
لأحدهم: ماذا تشم؟ إنها ورود كاذبة . . . أحضرها قريباً من وجهي
لأستنشقها ، لقد كانت زهوراً صناعية من القماش والبلاستيك نثروا
عليها بعض العطر ، ولسان حالهم يقول:

متى يشفي منك الفؤاد المعدُّ

وسهمُ المنايا من وصالك أقربُ

فَبَعْدُ وَجَدُ ، وَاشتياقُ وَرَجَفَةٌ

فلا انت تُدنيني ولا انا أقربُ

كعصفورٍ في كفٍ طفلٍ يَرْمُها

تدوُّقُ حياضَ الموتِ والطِّفلُ يَلْعَبُ

فلا الطِّفلُ ذو عقلٍ يَرِقُ لما بِها

ولَا الطَّيْرُ ذو ريشٍ ، يطيرُ فيذهبُ ..

فلا تستغري افعال الرجل قبل الزواج ، يقف لأجلك منتعشاً تحت الشمس ، ولا يتليل حين ينتظرك تحت المطر .. لا تستغريني ان اخرج جناحه وطار بك ، كل هذا وارد ، لكن هذه مرحلة منقطعة ولا تمتد إلى ما بعد الزواج ، فلا تتوقعني نفس الحب والتصرف والسلوك بعد الزواج ، هذا مستحيل واحد عجائب الدنيا السبعة ... الحب بعد الزواج اما ان يزداد اضعافاً مضاعفة جراء العشرة والأمان ، او يتناقص وينحصر حتى ينقلب كره وندم ، وأحياناً يخالطه التفز ..

قبل الزواج وفي مرحلة المشاعر وقوانيين القلوب ستجدين الرجل العال العات يجيد صنُع الشاي وجدل الصفائر ، ومعتاد على النك ويرحبك حد السماء ، أما بعد الزواج نفس العاشق المكروب يشعر انه أخطأ في الاختيار ، ولا يكتشف هذا الخطأ الا بعد ان ينجب بعض الأولاد ..

وأعلمي ان الرجل عندما ينغمس في تفاهة الحب والمشاعر فهذا من خلاء حياته وغياب طموحاته ، لا هدف ولا نجاح ولا مستقبل ولا كسبٌ يشغل به فراغه وأوقاته ، وفي الغالب تجدينه عاطل بلا عمل .. ويكذب كثيراً ، كثيراً جداً ..

مرّ النبي سليمان بن داود عليه السلام بعصفور يدور حول
عصفورة فقال لأصحابه: اندرؤن ما يقول..

قالوا: وما يقول يا النبي الله ..

قال: يخطبها إلى نفسه ويقول تزوجبني واسكنك أي غرف
دمشق شئت .. قال سليمان عليه السلام لأن غرف دمشق مبنية
بالصخر لا يقدر ان يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذاب..

لذلك إذا لم تعتبرني وتنظرني من أخطاء الفتيات من حولك
وتعترفي قدر نفسك وما وصلت إليه ، سوف تصبحين انت هو الرجل
الذى كنت تتنمنيه .. كوني غالية فالإنسان لا يعتز بالرخيص ولا يقدره
ولا يباهي به .. لا يغرك الحب والمشاعر ، تقبلين به فقيراً أو مريضاً
لأن حالة الحب هذه تشبه وتحاكي فيلم شاهدته أو رواية اعجبتاك ،
تعلقت به وتزوجتني ثم ما ان يتحسن حاله حتى يستبدلوك ، كرجل أعمى
أول ما فتح عينيه كسر العصا التي كانت تمسدنه ..

الحب الجلي الواضح المستقر يأتي بعد الزواج ، بعد العشرة
والصبر على الحياة بحلوها ومرها ، اما قبل الزواج فإنه هوى قلب
يرفرف وكذب مشاعر تعصف ، وإلا لما زاد عدد الطلاق في المحاكم
هذه الأيام مقرئناً بازدياد حالات الحب والتعلق قبل الزواج ..

ثم بعد الزواج تظهر الحقيقة ، فإن كان طيب المعشر وحلو الطياع تنامي الحب وتجذر عميقاً ، وأما إن كان به عيب وسوء خلق انقلب الحب كرهاً وندماً ، وتضاعف الحزن لأنه فقد بعد وجد ..

ولا تصدقني من يقول ان الغضوب أطيب الناس فلباً واصدقهم مشاعراً .. أقول لك وأزيدك بأفضل من هذا ، انه اخبthem طبعاً وأعمقهم حقداً وأصدقهم قولاً ، فأصدق الكلام يقال عند الغضب ، وعند الاستهزاء ، وفي النهايات .. وإياك ان تظني ان الطبع قابل للتغيير ، أبداً ومحال ، وانظري من حولك إلى طباع اخوتك واقربائك وغير انك وصديقاتك ، وكل من تعرفين ، بل وحتى طباع والديك ، لتنكدي ان طبعهم لم يتغير منذ ولدوا وإلى اليوم ، سواء كان هذا الطبع حلو طيب ام حنطل زعاق ، لذا عليك ان تُريه حدوده ..

ارسمي حدودك ول يعرف حدوده ، لكن بلا إساءة وتنقص ، ولا تخافي النتيجة ومال الأمور ، لأنه سوف يلتزم ويتكيف على احترامك ، خير من ان يتكيف على اهانتك .. سرعة التكيف من أهم وأجل ما يتميز به الإنسان ، ولا تنسى الكلمة التي يجب ان تنسج من الذهب ، كلمة لا تغفلي عنها أبداً "ولا يُسيء الرجل الا لمن يضمن بقائها" ..

من الأمور المهمة والشروط الأساسية التي يجب توفرها بمن تقدم للفوز بك وربح هناء العيش بقربك هو نفس الواجب الذي تقوم به الحيوانات لجذب واغراء الأنثى للزواج ، ويخلص في معرفة مقدار استعداده لهذا الزواج والارتباط .. فالأنثى لا ترتبط بالذكر حتى يبني عشه ويهيئه ، ثم يثبت انه قوي يستطيع حمايتها من الحيوانات الأخرى وانه كفو ل توفير الطعام ، وكذلك يجب ان يكون مميز بين اقرانه ، بهيّ الطلة غريز الشكل واللون ، وغيرها من صفات لا نعرفها عن عالم الحيوان فهو من الغبيات الخفية عنا ..

لكن حتى هذه الأمور البسيطة التي تعلمناها من الحيوانات
نستطيع تطبيقها على الخطاب ، هل بنى بيته خاص به ؟ هل سيتمكن
من توفير مستلزمات البيت لك وأولادك في المستقبل ؟ هل هو قوي
أمام تقلبات الحياة ؟ هل هو وسيم الشكل صريح الوجه انيق الملبس ،
يخفف عنك حزنك وتباهي به صديقاتك وبنات الخالة ؟ مالذي يميزه
عن غيره ليحصل عليك ؟ هل هو قادر على تحمل مسؤولية العائلة
ومتابعة الحياة وهمومها ؟ ام انه يريد الزواج لأنها بحاجة لمن يعتني
به فقط بلا مقابل ولا شكر وامتنان على هذه الخدمة المجانية ، ام ينوي
الزواج لأنه يشعر بالملل وليس لديه ما يفعله ..

لابد من سؤال المتقدم عن هذه الواجبات ، ويلزمه تحضيرها
والاستعداد لها ..

ثم لا تهملي الأمور المادية لأنها اهم من المشاعر ، بل ان الأمور المادية هي التي تتحكم بالمشاعر ، والحياة تعيش بالمحسوس وليس بالأمني والمشاعر ، لا يغرك ان كان مؤلف أو شاعر أو مشهور أو فائز بجوائز عديدة .. لا تغرك كلمات معسولة ، لا تغرك الالحان والاشعار ورسائل الغرام الناعسة ، كل هذه الأحلام لن تملأ بيتك بالآثاث ، ولن تملأ ثلاجتك بالطعام ، ولن تملأ مستقبلك بالأمان .. الحياة طويلة وصعبة تحتاج للمال تحتاج الصحة والقوه ، وأشياء تجلب السرور ..

ثم اختياري من كان بعمرك ، مرحلة اللعب لتنلعبا معاً ، ومرحلة التفكير لفكرة سوياً ، ومرحلة النك لتندادا على بعضكم بخت ونصر ، ومرحلة الضعف للاسترخاء سوياً على أصوات ذكرياتكما .. أما إذا اختلف العمر ، سوف يعمل ويكتح وانت تمرحين فوق رأسه كرجل يصلح سيارته وأولاده يلعبون كرة القدم قريباً منه ويرمونه بها، وحين يفكر بالمستقبل ليدخل بعض المال تريدين شراء العاب البنات، وعندما تتعب روحه ويطلب الراحة بعد العناء سوف تندادين عليه ، كما يفعل قط بمخالبه فوق سقف عجوز يستلقي في كوخه القديم ..

إذا كان هناك فارق كبير في العمر ستصبح الحياة فوضى غير مستقرة ، اجتهاد يقابل لهو ، تحكم يقابل اسراف ، طمأنينة يقابلها شغب ..

قرأت مرة طرفة ذكية يقول كاتبها ، قبل ان تتزوج قم بتربيبة قطة ، فإذا تألفت معها ، وهذا يعني انك تعودت على وجود الشعر المتساقط في كل مكان ، وتعودت على صوت النوء والنق غير المفهوم ، والخرمسة دون مبرر ، وإسقاط الاشياء التي تعبت في شرائها .. كما انك ستعتاد على النظرة والبخلة في وجهك دون أي معنى لها ، وإذا عرفت ان هذه القطة جائعة أو تعاني من العطش أو حزينة ، وفهمت قصتها تماماً من غير أن تخبرك ، وكأنها تقول لك "لو كنت مهمتم لكونت عرفت لحالك" ، فهذا يعني انك تصلاح لمنظومة الزواج وتوكل على الله ..

وانت قبل ان تتزوجي قومي بتربيبة "ديك" ، إذا تعودت على الكركبة والواسخ التي سيخلفها في كل مكان ، فضلاً عن اعتيادك على الصوت العالى والصياح ، وبقائه على الشباك عندما يسمع صوت دجاجة ثانية ، والركض في البيت ، وهناك دائمأ هرج وضوضاء بلا سبب ، يقلب انان الطعام ، ينقر افراخه ويطاردhem بلا سبب ، يأكل ويلهه وينام ولا يدري عما ينقل كاهم دجاجته ، ولا يهتم ، إذا ألغت هذا الديك وتعودت على تصرفاته ، فتزوجي وانت مطمئنة وستكون حياتك الزوجية ناجحة ..

اما إذا فكرتم بالإنجاب ، عليكم بتربيبة قرد صغير ..

أما بعد الزواج ، لن يبقى الحال بعد الزواج كما كان قبله ، سوف تفقدين الكثير من الأحلام وتعلمين أنها كانت ثلاثة من الاوهام ، وتنزارلين عن الامنيات وتدركين أنها خاصة بالفتيات ، ستتجاذب الاطباق وبلاط الحمام وحفظ الأطفال ، وبخل ، وخدمة بلا شكر ولا حبيب بشوش ، اظافر وشعر وعطن وكسل وكروش ، كل هذا سيظهر لك من العدم .. إلا ..

إلا إذا أتفنت بعض الأشياء ، إذا أردت الاحتفاظ بالرجل وعلاقته وحاله معك كما كان قبل الزواج وأكثر ، عليك بأشياء بسيطة لن تتكلفك سوى أفكار لعوبة وأقوال وإطراء تعود بالنفع والخير على كليهما ..

٠٠ لا تكفي أبداً عن اخباره بالقصص عن معاملة الأزواج الطيبين لزوجاتهم ، وعن صديقاتك وعن والدتك وقريباتك وكيف يعاملهن أزواجهن بحب واحترام وتعاون وخاصةً كيف يعامل اباك امك .. الرجل يحب أن يكون حاله وحياته وسمعته طيبة في أعين الناس ، ويحب أن يسمعهم يمدحونه ويحمدونه ويثنون على علاقته بزوجته ، وانه طيب ، ودود ، حنون ، ويذكر دائماً بالخير والنفع والوفاء لك ..

٠٠ عامليه كالحصان ، ردي على مسمعه كثيراً ، انت حصان
جامح ، قوي ، غاضب ، سريع ، لكن قلبك طيب ، انت فخم ، عالي،
رأسك مرفوع ، انت لا نستطيع العيش من دونك لحظة واحدة ، صوتك
جسور ، لك هيبة خاصة ، انت مخيف ، لكنك لنا الامان والحنان ..
ثابري على ان تجعليه يطمئن ان مكانته لن تذهب سدى وأنه رجل
البيت والسيد المحترم ، حتى لو كان كذباً تصنعاً ، ويمكنك تجربة هذا
مع طفلك وسترين الفخر والعز الذي يغله .. أقولها لك وبكل بساطة
لا فرق بين كبير او صغير ، انها تولد معهم .. لكن احذرني وابايك ان
يعرف هذا السر ، لن يصدقك بعدها ولو حلفت بأغلاط الأيمان انك
صادقة في مدحه ..

انهم يسرعون للحرب والقتل والدماء بكلمة تذهب صدورهم
وتهيج مشاعرهم ، وخاصة ان كان مصدر هذه الكلمة هو امرأة ،
قامت تيريزا بتحريض زوجها ملك اسبانيا فذهب الاحمق وقتل شقيقه ..
وكانت عبلة تحفر عنترة على خوض المعارك والتضحية بدمه لإثبات
شجاعته أمام أهلها ... والبسوس بنت منفذ التي اشعلت بكلماتها
واتهاماتها حرب طاحنة سميت بحرب البسوس واستمرت هذه الحرب
أربعون عاماً بعد مقتل ناقتها على يد رجل اسمه كليب ... ودوروثيا
زوجة أحد النبلاء حيث اهانت زوجها لتقاعسه عن الدفاع عن أرضه
وشرفه ، مما دفعه لإشعال حرب طويلة جداً لاستعادة كرامته أمام
زوجته ... فلا تظني ان الرجل جبل لا تهزه الكلمات ، جربى مدحه
والثناء عليه ولن تخسرى شيئاً ..

٠٠ الزوج يتعب في جمع أمواله وبناء أسرته والحفاظ على
كرامة عائلته ، لم يكن جمع هذه الاشياء سهلاً وإنما بالتعب والأنين
والصاق الليل بالنهار . . . فلا تفضلي أي إنسان على أولاده ، ولا
تفضلي أي مال على أمواله وممتلكاته ، وجرم عظيم ان تقارني بيته
وبين رجل آخر مهما كان مقرباً ..

عزيزتي حبيسة العاطفة ، اعلمي ان كل شيء يستخدم للحماية
شكله قبيح أو فيه شيء من القبح ، الشوك لحماية الزهور ، البدلة
المزعجة وحذاء الامان القليل في العمل ، الاسلاك الشائكة ، كل ما
يستخدم للحماية شكله قبيح ، فلا تستغربى شكل زوجك وتقارنن ،
فربما يكون الشكل مخالف للروح ، حاله كحال العلاقة العكسية بين
جمال الفتاة وصوتها ..

هذا الزوج الذي ترينه أمامك على هذه الحال منتف الريش
والحظ ، مليء بالتجاعيد والهموم والأوامر والطلبات ، هو الذي
يضحي بجميع الاشياء التي بين يديه ليعطيها لزوجته وابناءه ، أو لأمه
وحفيده ، ويذهب شبابه وصحته من أجلهم ، يحاول بناء حياة عائلته
ومستقبل أولاده من خلال عمله بشكل متواصل ، ولو على حساب
صحته ، وهو الذي يحمل اكياس الطعام الثقيلة من البقال إلى البيت
بسعادة ، ولو افترضنا انه يحمل طعاماً واغراض بوزن ستة كيلووات
يومياً فهذا يعادل ألفين كيلو في السنة ، وخلال حياته يكون قد نقل لك
ولأطفالك ما يعادل على أقل تقدير مئة طن وأكثر من احتياجاتكم ..

إضافة إلى بناء البيت والتصليحات وصرف الأذى عنكم ، والمستشفى والدواء ، ومستلزمات الصيف وأشياء تدفهكم في الشتاء ، وجبال من المسؤولية ، ولو أدى به ذلك إلى ايجاد عملين أو أكثر وأحيانا لأوقات متأخرة ، ودون أي تذمر أو شكوى ، وفوق ذلك كله ، فاللوم كل اللوم يقع على رأسه ، إذا خرج للترفيه عن نفسه قالوا غير مسؤول ، وإذا بقي في المنزل فهو رجل كسول ..

لا تقارني ، إياك ، لا تفعلي ، لا فيظن انك تهدمين وتحطمين كيانه العظيم . . . وهل يستطيع الرجل ان يواجه مصاعب الحياة والتعب ضارباً أكباد المشقة والعناء ويعاشر أصناف البشر على اختلاف مساوئهم الا ان كان يدرك ان تعبه وجهده يذهب لامرأة تجله وتقدر تعبه وتضحيته ، وترىه من نفسها ان منزلته فوق كل الرجال وفوق الدنيا ، وأنه لها ملء الروح والسمع والبصر ..

٠٠ احذر الكذب لأنك يجعل الرجل يشعر بالخوف على مساقطه والكذب يسرق الامان من حياته . . . أراد أحد الأمراء ان يتزوج فقرر ان يجمع بنات المدينة ليختار منهن زوجته المستقلية ، فسارعت الفتيات في التحضير لحضور هذا الحفل الراقى ، وكانت هناك فتاة فقيرة قد تعلق قلبها بحب الامير ، وكان يُخيّل لها انها ستكون زوجته المستقلية .. حزنت الام لان قلب ابنتها تعلق بالأمير كثيراً ، فأخبرتها عن قلقها وخوفها من تحطم قلبها ، فمن المؤكد ان الامير سيختار فتاة من الطبقة الراقية ..

قالت الابنة : لا تقلقي يا أمّاه وان يكن ، سأذهب ليس هناك ما أخسره ، وذهبت إلى الحفل . . . فجاء الامير وقال : سأوزع عليكن بذوراً لتلزروها ، والتي تأتيني بعد ستة شهور وبiederها أجمل وردة سأتزوجها .. ذهبت الفتاة وزرعت البذرة .. ولكن دون جدوى .. مرّت ستة شهور ولم تنبت تلك البذرة ، فقالت الأم لابنتها : لا تذهب إلى الحفل أخاف ان ينفطر قلبك .. فقالت الفتاة : سأذهب يا أمي وأخذ معي البذرة ، بالله عليك دعوني أمتّع ناظري بروبة أميري عن قرب و لوالمرة الأخيرة .. وفعلاً ذهبت الفتاة ..

وفي القصر اصطفت جميع الفتيات وبيد كل واحدة منهن أجمل الورود ، الا هي كانت تحمل بين يديها بذرتها التي أبىت ان تنبت و لو برع عم بسيط ، فقال لها الامير لما رأها تمسّك بذرتها الجافة بيدتها: أريد ان اتزوجك انت ، فقالت الفتيات : كيف وهي لم تأتي الا بذرتها البائسة؟.. فأجاب الامير : ان البذور التي أعطيتكم بها بذور عقيمة لا تنبت ، فجمييعكن كاذبات الا هي ، وانا أريد أميرة صادقة ءأتمن عليها مملكتي .. فتزوجها الامير وأصبحت هذه الفتاة الفقيرة حاكمة فيما بعد . . . هذه قصة من الفلكلور الشعبي القديم لكن أعتقد ان العبرة وصلت لطفلتنا المدللة . . . احذري الكذب ، قولي الصدق حتى لو كنت مخطئة ، فإن الرجل سيغضب لحظة أو ساعة أو يوم على الأكثـر ، لكنه سيثق بعدها ويطمئن ان حياته وعائلته وممتلكاته في أيدي أمينة ، لا تكذبي ولو كان الأمر تافه ذليل ، لأن بعد الكذبة الأولى ، كل الحقيقة شـك ..

٠٠ لا تغضبي عندما يتدخل في اشياء تظنين انها من حدودك وخصوصيتك ، مثل الملابس ، المكياج ، التكلم مع الغرباء ، نوع صديقاتك ، الخروج بنفسك للتسوق ، الضحاح بصوت مرتفع خارج المنزل ، اختيار نوع العمل ، الاختلاط بالرجال . . . لا تغضبي لان السبب والدافع من وراء هذا هو الغيرة ، وحبه لك وخوفه عليك ، وهذا ما لا طاقة له عليه ولا صبر ، كل رجل حقيقي يفعل هذا ، والرجل لا يكون رجلاً بلا غيرة ، والغيرة هي مقياس الرجلة في هذه الأيام الحزينة المضيّعة . . . يُحکى ان أعرابياً في زمن الجاهلية رُفِّت إليه عروسه على فرس ، فقام قتله تلك الفرس التي ركبت عليها العروس ، فتعجب الجميع من حوله وسألوه عن سرّ عمله ! فقال لهم: خشيت ان يجلس رجل في المكان الذي جلست عليه زوجتي ولا يزال مكانها دافناً .. !

انتبهي يا واقع الأحلام وبسمتها ، لان الرجل يتأنى أشد الاذى ويتألم أعظم الألم من نظرة رجل غريب إلى زوجته ..

خرجت سارة مهاجرة مع زوجها النبي إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين ، ولما اشتد الجفاف هناك هاجرت مع زوجها مرة أخرى إلى مصر ، وكانت سارة قد رُزقت حظاً كبيراً من الجمال وحسن الهيئة بحيث انه لا أجمل منها في التاريخ الا حواء عليها السلام التي هي أجمل نساء العالمين ، وفي ذلك الوقت كان ملك مصر يأمر حراسه وجنوده بأن يأتوه بخبر أي امرأة جميلة تدخل البلاد ،

ولما كانت سارة على ذات قدر من الجمال ، انتشر الخبر بين الناس وعلم الملك بأمرها ، وأدرك إبراهيم عليه السلام معرفة الملك بقدومهما ، فقال لها لما يعرفه من شر هذا الرجل وخيثه: انه لو علم هذا الجبار انك امرأتي لغابني عليك ، فإذا سألك فأخبريه انك أختي ..

طلب الملك من جنوده ان يحضروها إليه ، ولما وصلت القصر دعت الله الا يخذهها ، وان يحيطها بعذابه وبحفظها من شر الملك ، وأقبلت تتوضأ وتصلّي وتقول: اللهم ان كنت تعلم اني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي الا على زوجي فلا تسلط علي هذا الكافر ، فاستجاب الله دعاءها ..

وعندما أراد الملك ان يمد يده إليها بسوء شُكّت يده ، فقال لها: ادعني ربك ان يطلق يدي ولا أضرك ، فدعت سارة ربها واستجيب دعاؤها ، وعادت يده سليمة .. لكنه أراد ان يمد يده إليها مرة ثانية فشُكّت مرة أخرى ، فطلب منها ان تدعوه له ان يطلق يده ولا يمسها بسوء ، ففعلت ، لكنه نكث بالعهد فشُكّت يده مرة ثالثة .. قال لها: ادعني ربك وعاهدها الا ينكث عهده ، فدعت الله فعادت يده سليمة، وطلب لمن جاء بها ان يخرجها من أرضه وقال: ما دخلتم عليّ إنساناً أدخلتم علي شيطاناً ، أطلقواها ، وأمر لها بجارية وهي هاجر ، وتركها ترحل من أرضه بسلام ..

وان الله عز وجل كان قد كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبين زوجته سارة ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى ان رجعت إليه ، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك اطيب لقلبه ، وأقر لعينه ، وأشد لطمأنينته ..

وكذلك كاننبي الله داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب خلفه فلا يدخل أحد على أهله حتى يرجع ..

وكذلك النبيأيوب عليه السلام ، حيث كان رجلاً كثير المال منسائر صنوفه وانواعه ، من الانعام والعيبد والمواشي والاراضي المتعددة ، وكان له أولاد وأهلون كثير ، فسلب من ذلك جميعه وابتلي في جسده بأنواع البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله بهما ، وهو في ذلك كله صابر محتبس ذاكر الله عز وجل في ليله ونهاره ، وصباحه ومساءه ، وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنبياء ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته ، وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي الله عنها ، وهي صابرة معه على ما حل بها من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمـة والخدمة والحرمة ..

ولم يزد هذا كله أليوب عليه السلام الا صبراً واحتساباً وحمدأً وشكراً ، حتى ان المثل ليضرب بصره عليه السلام ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من انواع البلايا ، حتى وصل به الحال انه ألقى على مزبلة لبني اسرائيل تختلف الدواب في جسده ، ثم تساقط لحمه حتى لم يبق الا العظم والعصب ، فلما طالت المصيبة عليها قالت: يا أليوب لو دعوت ربك ليُفرج عنك . . . فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً فهو قليل الله ان اصبر له سبعين سنة . . . وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعمه عليه السلام ..

ثم ان الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم انها امرأة أليوب خوفاً ان ينالهم من بلائه او تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها باعت لبنت من بناة الاشراف إحدى ضفيرتها بطعم طيب كثير ، فأتت به أليوب فقال: من أين لك هذا وأنكره .. قالت: خدمت به أناساً . . . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعم فأتته به ، فأنكره أيضاً وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام .. فكشفت خمارها عن رأسها ، فلما رأى رأسها ملولاً قال في دعائه: إني مسني الضر وأنت ارحم الراحمين ..

هل عرفتني الآن ، كل رجل غيور على امرأته ويمسّه عذاب
معظم ، ويلتهب قلبه ضرراً وأذى ان تقرب إليك مخلوق .. فلا تعبي
غيرته عليك ، انها فطرة خلقها الله في الرجال والأمر ليس بيده ولا
حيلة له ، يحبك ويراك جوهرته ، وينوي الاحتفاظ بك وحراستك إلى
آخر الدهر ..

٠٠ حافظي على دين وأخلاق زوجك وأولادك وتربيتهم ، حتى
يأمن الزوج ويطمئن ان تعبه لسنين وبناء العائلة والحافظ عليها ، كل
هذا العناء لن يذهب سدى . . . ولا تتكلّسي ان تخبريه وتكرري عليه
دائماً انك تحافظين على ممتلكاته ، وان عائلته وأمواله بأيدٍ امينة ،
كوني له الامان تفوزين . . . فالرجل مهما بلغ من القوة والمال احتاج
إلى شخص يأمنه على هذا المال ، وعلى حياته وعلى أولاده
وتربيتهم..

إذا لم يكن هناك امان لن تكون هناك أسرة ، هل جربت ان
تربي زوجاً من طيور الزينة في البيت ، هل لاحظت ان الأنثى لن
تبكيض حتى تشعر بالأمان ، وإذا اكتشفت انثى العصفور انك تفتحين
عشها وترافقين بيضها فإنها تشعر بالخوف وتفقد الامان ، وتهجر
البيض وتترك الفراخ حتى لو أدى ذلك الا موتها . . . حتى الحيوانات
تعلم بالفطرة ان توفير الامان هو الاصل والاساس المتبين لبناء اسرة...

٠٠ لديك صفتان راسختان ومتصلة فيك فاحذرها وابتعد عنها .. أولها النك .. النك في بدايته وأول أيامه جميل ويحرض الزوج على الابتسامة ، ثم يمر العمر ويكون الرد بالشرح والتوضيح ، ثم مواجهة النك بالنك ، ثم التوبيخ ، ثم يحدث شيء غير متوقع وهو الرد على النك بالصمت ، نعم ، الصمت واليأس من الاصلاح وتعزية الحب والعلاقة الزوجية بمصاب اليأس والندم وسوء الاختيار ، مع ان كل الخيارات والزواج من غيرك سوف يؤدي به لنفس النتيجة ، لكنه لم يجرب خياراً آخر ولهذا يظن ان غيره يعيش بسلام ... قال رسول الله ﷺ : يا معاشر النساء تصدقن فإنكَنَّ أكثَرَ أهْلَ النَّارِ ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: وَمَا أَكْثَرَ أَهْلَ النَّارِ ، قَالَ: لَأَكْنَنَّ تَكْثُرُ اللَّعْنَ وَتَكْفُرُنَّ الْعَشِيرَ ...

عزيزي الزوجة التي تغلي وتلتهب ، ان النك الذي تداومين عليه بلا ملل أو كلل ، وسواء كنت محققة أو مخطئة ، هذا النك ومعارضة كل ما يقوم به الزوج يشبه وكأنك تمسكين ملعقة شاي صغيرة جداً وتحفرين اسفل العمود الذي تستند عليه خيمة الزوجية ... تستمررين بالنبش والحرف بالنك ونكران الجميل ومعارضة كل صغير وكبير في حياته بلا توقف ، وبما ان هذه الملعقة صغيرة جداً فلن يبدو الاثر الذي تتركه واضحأً ، وهذا يعني انك لن تشعري بمقدار الاذى الذي تتسببين به يومياً ، وانك سوف تستمررين تحفرين وتحفرين حتى يأتي يوم ويسقط هذا العمود الذي يمسك حياتكما وعلاقتكم ، ويتحطم ما تعبرتم سنين في تشبيده ، وعندها لن تستطعي اعادة هذه العلاقة كما كانت أو بنائها من جديد ..

ايتها الاميرة ، تذكري انك رغم جمالك وطبيتك ونعمتك ، رغم كل هذا ، إلا انك نكبة بامتياز ، ومهما تظاهرت عكس هذا فانت نكبة ، ومهما تمايلت وتأنقت وانتقىت من الكلمات فانت نكبة ، لا تنسى هذا ولا تخفيه ، ولا تغضبي عندما يخبرك زوجك بهذا لأنها حقيقة واضحة . . . كتبت امرأة في موقع التواصل: "كلما زاد نك الزوجة زاد معه استغفار الزوج لربه ، فيكون نك الزوجة رزقاً للرجل ، استمرى في نكك ، انت عظيمة" . . . لذا لا يمكن ان يكون العالم كله مخطئ عندما يصفك الجميع بالنك . حاولي إصلاح هذا الأمر رجاء ، او على الأقل انقاذه وتخفيفه ..

ثانيهما .. تصرخ اصرخ ، تسبني أسبك ، تشنمني أشتمك ، تعضّني أعضّك . . . في مقابلة مع امرأة روسية متزوجة من رجل مصرى ، سألتها الصحفية:

- ماذا تفعلين لو ضربك زوجك ؟
- كلا ، الروسية لا تُضرب ..
- حسناً لنفرض انه حدث هذا ماذا ستفعلين ؟
- كلا ، لا أعتقد انه سيحدث ، ولا يوجد شيء اسمه لنفرض ، لأنني روسية ، وأعتقد اني لو لاحظت ان زوجي مشدود الاعصاب ، أو ان هناك بادرة لمشكلة أو عراك لن اهتم ، ولن ارفع صوتي على زوجي ولن ارد عليه ، وسوف اتركه إلى ان يهدا ويصل أعلى حالات الهدوء ،

لذا لا أعتقد انه سوف يضربني ، لقد رأيت النساء هنا ترد وترد وتقابل الغضب بالغضب والصرارخ بالصرارخ ، إلى ان يصل الأمر بالزوج إلى ضربها بقوة ..

آنستي ، هل يمكنك مواجهة ثور هائج بالصرارخ والنفخ في وجهه ؟ بالتأكيد لا ، بينما يمكنك تهدئته بالمسح على رقبته وظهره وبعض الكلمات الكاذبة المخادعة . . . ابحثي في الرجل عن زر السيطرة الخاص به ، ربما يكون كلمة طيبة أو دلع أو ينقضه الحنان ، أو كان من النوع الذي يُحب ان يُحترم ويُبَحَّل ، أو لديه هواية ، أو أفكار يدافع عنها وأشياء يقتنيها ، ابحثي عن هذا الزر في الرجل وسيطري عليه وتجنبني انفعالاته . . . ابتعدي عن النك والعراك فإنها بداية لنفق مظلم نهايته ومخروجه هو الطلاق . . . وفقاً لدراسة بحثية أجرتها جمعية علم الاجتماع في إحدى الدول عام ٢٠١٥ والتي تشير إلى ان ثلثي حالات الطلاق تبدأ من طرف النساء ، ويقفز الرقم بنسبة تصل إلى ٩٠٪ إذا كانت النساء حاصلات على تعليم جامعي .. ثم ، ها انت ، عدت لوحرك مجدداً ، حرة ، طليقة ، مطلقة ..

للطلاق تبعات أكبر على الرجل وهذا مؤكـد لكن فرصـه أكبر للزواج مرة أخرى ، انها معركتـك الخـاسـرة ، فـلـمـاـذاـ تصـلـيـنـ بـنـفـسـكـ لـهـذاـ الحـدـ منـ القـلـقـ وـالـاـكـتـئـابـ ، اـضـطـرـابـاتـ النـومـ ، الشـعـورـ بـالـفـقـدـ وـالـأـلـمـ وـالـخـسـارـةـ ، الـاحـسـاسـ بـالـذـنـبـ ، الـخـجلـ مـنـ الـآـخـرـينـ ، الـفـوـضـىـ الدـاخـلـيـةـ وـالـأـفـرـاطـ فـيـ التـفـكـيرـ ، الـأـمـرـاـضـ الـقـلـبـيـةـ ، وـاـخـيـراـ الـأـثـارـ الـاـقـتـصـادـيـةـ ..

أما الرجل ، حين يتعرض للنكد المستمر فكل ما يفعله هو انه سوف يشغل نفسه بتربيه حيوان أو طائر ، أو يدفن رأسه داخل صفحات الكتب وفجأة تجده يهوى المطالعة ، أو يقضي وقته خارج المنزل بين المقاهي والاصدقاء ، سوف يفعل أي شيء المهم ان يهرب عنك بعيداً ..

نصيحتي لك يا صبيحة حٰنـا ، توقف عن الشكوى والتذمر ، عندما تقومين بترتيب غرفة الصغار يعني انهم في صحة جيدة قولي الحمد لله ، وهذا أفضل بكثير من مرض يمنعهم من صنع هذه الفوضى... وعندما يرهاك الوقوف في المطبخ يعني انه لديك ما تطبخينه قولي الحمد لله . . . وعندما تنظفين غرفة الجلوس قولي الحمد لله على اجتماع العائلة والأنس واللّمة الحلوة وصفاء القلوب ..

ولكن ، لا تتجاوزي الحد في التضحيه ولا تصبري على سوء المعاملة.. ضعي حدا لهذه الاعباء ، اصبري على فقر زوجك وظروفه ومرضه وضعفه ، لكن ، لا تصبري على سوء خلقه ولا تصبري على الاهانة ، لأن الإنسان یستطيع العيش بلا طعام ولا أموال ، ولكنه لن یستطيع العيش بلا كرامة . . . وكما قلت لك قبل قليل ارسمي حدودك وليعرف حدوده لكن بلا إساءة وتقصص ، ولا تخافي النتيجة ومال الأمور ، لأنه سوف یلتزم ويتكيف على احترامك ، خير من ان یتكيف على اهانتك ..

ان سرعة التكيف من أهم وأجل ما يتميز به الإنسان .. ولا يهم ان كانت العاقبة شرًّا فإنها لم تأتي بديلاً لخير ، وليس العاقل من يعرف الخير من الشر ، ولكن العاقل من يعرف خير الشررين ..

وهذا لا يعني التسرع والمبادرة إلى الوقوف بوجهه أو طلب الطلاق منذ أول خطأ أو اثنين ، اصبري قليلاً وامهلي نفسك بعض الوقت ، وبعد أيام متقلبة سيعلم الرجل انه ليس له غيرك ، يتركه الاصدقاء وينشغل عنه الاخوة ، ويترفع عن مرافقته الابناء ، وتبقين انت الوحيدة التي تأنسين بمحالسته وتفرجين بصحبته ، وتربيدين الخروج معه سواء ذهب المستشفى أو للبقاء ..

هذه حادثة قرأتها على الانترنت لا أعلم صحتها من عدمه المهم ان لها ربط مع موضوعنا .. بعد ست سنوات من الكفاح في المحاكم من أجل الطلاق ، أصبح التركي "سليمان جورشي" شخصاً أعزباً وحر ، ثم بعد عامين من الطلاق والتفكير بعنایة والحسابات الدقيقة في الإيجابيات والسلبيات ، قرر الزواج مرة أخرى ، ولكن هذه المرة ولتجنب فشل آخر ، وضع شروطاً صعبة للمرأة التي تناسبه ويريد الزواج منها ، وأرسلها إلى وكالة الزواج ، ومن بين أكثر من ألفي مرشحة توافق متطلباته ، اختارت الوكالة الإنسانية الوحيدة التي تتمتع بالشروط المثالية التي طلبتها سليمان ،

والمفاجأة ان اسمها "تسرين كاجلاس" وهي زوجته السابقة ، والتي كانت أيضاً تبحث عن زوج جديد عند نفس الوكالة ، بعدها تزوجاً مرة أخرى وعاشا في هناء يسعفه الحذر ..

لا تخافي من الاقراط في الطيبة مع زوجك ، وتنظين انه سوف يتكبر عليك ويقل مقدارك عنده ، على العكس تماماً ..

عشرة معلومات سريعة عن الرجل ..

٠٠ انت ضعيف ، انت فصیر ، خائف ، فقير ، فاشل ، ممل ، تتصرف كالأطفال ، انا أطول منك ، فلان أقوى منك ، اقربائي أفضل منك ، انت أسوء قرار اتخذته في حياتي . . . هذه الكلمات تهدم الجبال ايهاك وإياك ان تتعتني بها زوجك أبداً ما حبيت ، فهي أشد من السكاكين على روحه ، وأقسى المأ .. لذا ، احفظي له هيبته ولو كان طفلاً ..

٠٠ ان كان من الطيبين يأكل طعامك ويحمد الله ، ويتغافل عن عيوبك ، ويعتبرك أفضل وأجمل وأنقى امرأة في الكون فاحمدي الله واستري بيتك الهدى ، وحافظي على زوجك فإنه أمانة عندك . . . قال رسول الله ﷺ : لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا ، الا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتل الله فإنما هو عندك دخيل يوشأك ان يفارقك إلينا . . . لذا ، احتفظي بالخير الذي عندك ، واكتمي السر عن صديقاتك ..

٠٠ اعلمي ان هذا الرجل هو استاذ ودكتور في فن العnad . . .

إذا قال انه سيفعل شيئاً ، فبالتأكيد سيفعله ولن يتراجع ، فلا تتبعي نفسك في المحاولة ، وكل ما عليك هو ان تمتصي غضبه بكلمة طيبة، ومع ذلك ، فإنه سيقوم ب فعلها بأي حال من الاحوال .. أما ما ستحققينه انت ، فهو عدم حاجته لاتكرا ر تلك الأمور ، فقد حصل على السيطرة والقيادة ، واطمئن انه الحسان الجامح ، ولا داعي ليثبت ذلك مرة أخرى .. تخيلي لو انك قلت له: كفاك نظراً لتلك الفتاة ، بالمقابل سيثبت بصره نحوها ليثبت لك ان اوامرك لا تطبق عليه ، وانه سيد الموقف والكلمة ، من باب العnad والقيادة لا أكثر . . . لذا ، لا تناطحي الحائط ..

٠٠ لن تستطعي هزيمة الرجل ، لن تستطعي هزيمته مهما

فعلت وأعلمي ان كل ما يفعله الرجل انه يصبر ويصبر ويكتم في قلبه حتى يأتي يوم ويصييه اليأس وينتهي رصيد الصبر لديه ، فإما ان تكوني زوجة طيبة او تنسحي من البداية ، أما الحرب فلا مفر لك من الهزيمة.. لذا ، الرجل لا ينسى وإنما يخزن

٠٠ الرجال يفتخرون بالسيارات وعدد التصليح ، وهم كثيرو

الاعتراض بهواياتهم ويهتمون بنظافتها وصيانتها ، بشكل يفوق الاهتمام بأجسادهم ومنازلهم . . . لذا ، لا تحرمي الطفل الكبير من ألعابه ..

٠٠ الرجال لديهم عاطفة قوية مثل النساء ، لكنهم يفضلون التحدث عن مشاعرهم بصورة غير مباشرة ، ويتجنبون إظهار ضعفهم... الدراسات العلمية وجدت أيضاً ان دموع الرجال عزيزة ، حيث يملك الرجال قنوات دمعية أقل من النساء ، ويملكون ستون بالمائة أقل من هرمون البرولاكتين المسؤول عن البكاء ، وفي الغالب يحتاج الرجال إلى قضاء بعض الوقت بمفردتهم ، والانعزال في كهفهم الفكري للتعافي من جرح عاطفي ، أو هرباً من المشاكل والضغوطات النفسية ، وبعض الرجال يتلزم الصمت المطبق لعدة أيام بحثاً عن الشعور بالخصوصية ، والبعض الآخر يفضل الجلوس وحيداً متاماً في الفراغ ، أو السفر لاستعادة الاتزان النفسي ، قبل العودة إلى الحياة الروتينية . . . لذا ، فإن الاعتراف صعب على الرجل ويعتبره تنازل ، فلا تظني انه لا يحبك ..

٠٠ والرجل بطبيعة لا يحب الكلام ، على عكس المرأة بالضبط.. حيث يمكن للمرأة ان تتصل بأقربائها أو صديقتها وتتحدث لساعات وساعات من غير ان يخطر على بالها أية فكرة وسبب للاتصال ، اما الرجل فإنه يتصل لموضوع هام ثم يغلق الخط بعد دقيقة أو اثنتين . . . لذا ، فإن الرجل يحب الصمت ولديه الكثير من الفراغ ، فلا تظني انه يفكر بسوء ..

٠٠ الرجال أقل حدسية من النساء ، وقد تكون المرأة أفضل في قراءة لغة الجسد ، لأن أجزاء أكبر من دماغها تنشط عند تقييم سلوك الآخرين . . . فعند القيام بتصوير دماغ النساء باستخدام الرنين المغناطيسي ، وُجدت ستة عشر منطقة دماغية نشطة أثناء تقييم الآخرين ، في حين نشطت خمسة مناطق فقط عند الرجال .. وقد أكدت دراسة ان الرجال لا يعرفون ترجمة إشارات المرأة ، وأكثرهم لا يجيدون التواصل غير اللفظي معها . . . لذا ، تخلٰ عن مبدأ لو كنت تحبني لعرفت لحالك ..

٠٠ لا تحدي الرجل بما سمعت أو رأيت في السوق ، أو موقع أو على الشاشة ، أو في محل ومكتب ودائرة حكومية من فتاة جميلة أو لبس فاضح ، لأنه سوف يذهب ويبحث عنها ، لا تخبريه حتى ولو على سبيل الذم والاستهزاء بها ، سوف يركز في المرة القادمة ليري مارأيته . . . لذا ، لا ترشدي الزوج إلى كنوز مخبئه ..

٠٠ تركت المعلومة العاشرة لك ، اكتفي شيئاً من عندك ..

-

وأخيراً وبعيداً عن صخب الرجال ، احذري مما يذاع في الكتب والمجلات والشاشات من اهمية حرية المرأة وان المرأة قوية وانه يجب ان يُسترد حقها وحريتها .. الحقيقة انهم لا يريدون حريةتك وإنما يريدون حرية الوصول إليك . . . لا تغرك صديقات السوء ولا تخدعي بما ترين في الشوارع وفي الشاشات ، فهذه الدنيا حلم جميل نصحو منه عما قريب . . . ولا يغرك الحصول على المال من عمل يغضب الرب جل جلاله حتى لو كنت مضطرة لذلك ، احصل على ما يسندك وقت الشدة بطريقه سليمه ، او اصبري على القليل من الاذى ويعوضك الله خيراً في الدنيا والآخرة ، وخذلي من قصص الطبيات عبرة وتصبراً لك . . . هل سمعت يوماً بامرأة تدعى ماشطة بنت فرعون ، تقول الروايات انها امرأة صالحة عاشت في زمن فرعون ، وسميت بذلك لأنها كانت تمشط شعر بناته ، ويعيش معها زوجها الذي كان مقرباً من فرعون ، حتى قتله بعدها عرف بإسلامه ، مما اضطر ماشطة إلى إخفاء إسلامها واستمرت في العمل في قصر فرعون لتنفق على ابناها الخمسة ..

الا انه في يوم من الأيام ، وقع المشط من يدها وهي تمشط ابنة فرعون ، فقالت وهي تتناوله من الأرض: بسم الله .. فرددت عليها الابنة: أبي هو الله . . . لم تتمالك الماشطة غضبها فقالت: كلا .. بل الله ربى وربك أبيك . . . فذهبت الابنة إلى أبيها لتخبره . . . فغضب فرعون لوجود من يبعد غيره في قصره.. فنادى بإحضارها وسألها: من ربك؟ .. قالت: ربى وربك الله ..

ازداد غضب فرعون وطالبها بالرجوع عن دينها ، وهددها بحبسها وتعذيبها.. الا انها أبىت ان ترتد ورفضت الكفر .. أمر فرعون جنوده بإحضار قدرٍ من نحاس مليء بالزيت ، وأوقدت النار تحته حتى وصل إلى درجة الغليان ، ثم طلب إيقافها أمام القدر حتى ترى العذاب بعينيها ، لكنها أقبلت على الموت طمعاً في الشهادة ، الا ان فرعون أراد قهرها على ابناها ، لعلمه بأنهم أحب الناس إليها ، والتي كانت تربتهم بعد ان قتل أباهم ، فأمر بإحضار الابناء إلى غرفة التعذيب .. احضر الجنود أكبرهم وهو يصيح ويستغيث بأمه ، ويتوسل إلى فرعون ، فألقى في الزيت المغلي والأم تبكي وتنظر إلى طفلها وهو يحترق ، حتى ذاب لحمه وطفت عظامه البيضاء فوق الزيت ، وإخوته يعطون أعينهم خوفاً من المنظر .. ثم نظر إليها فرعون وأمرها بالكفر بدين الله ليعرفو عن البقية ، إلا انها أبىت وتمسكت ب موقفها، فازداد غضب فرعون وأمر بالولد الثاني وألقى في الزيت حتى اختلطت عظامه بعظام أخيه .. وذكرت الروايات انه حينما وصل الدور على الابن الرضيع نطق ، وقال لها: يا أماه ، اصبري فإنك على حق .. ثم انقطع صوته بعد ان ألقوه في القدر ..

بعد ذلك، اندفع جنود فرعون نحوها ، وسحبوها تجاه القدر ، التفت لحظتها إلى فرعون وقالت له: لي إليك حاجة .. فرد عليها: ما حاجتك ؟ قالت: ان تجمع عظامي وعظام ابني ، فتدفنتها في قبر واحد.. فوافق فرعون على طلبها ، وألقى بها في الزيت ..

البيوت السعيدة لا صوت لها ..

.. בָּתָּהָה וְבָתָּהָה בְּסִירָה

العقد المزيف ..

في برنامج يعرض اشياء غريبة وخطيرة يقوم بها الناس حول العالم ، حضرت امرأة في الخامسة والاربعين من العمر ، ترتدي بدلة مصنوعة من الجلد الاسود الحالل للماء ، امرأة ضخمة وقوية الا انها كانت تتحرك كالنساء ، كانت مسابقة تحدي ، وتم احضار حوض زجاجي بحجم حوض الاستحمام . . . استلقت المرأة داخل الحوض وقام المشرفون على البرنامج بإحضار صندوق آخر ، وعند فتحه تبين انه كان ممتلي بالافاعي كبيرة الحجم تتراوح اطوالها ما بين نصف متر إلى متر ونصف ، افاعي سوداء وبنية ومرقطة وذات حراشف مرعبة ، تجعلك تهتز وترتعد وانت خلف الشاشة ، تجمدت عيني المقدم وكل من الجمهور وعيني أنا بالطبع حين نرى كيف يحمل هؤلاء الرجال الافاعي ويضعونها داخل الحوض ، ومن بينها كانت هناك الكثير من الثعابين الكبيرة السوداء .. واحدة تلو الأخرى تم وضع الافاعي حول المرأة داخل الصندوق الزجاجي ، واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، سبعة ، أحد عشر ، ستة عشر ، والمرأة ثابتة لا تتحرك ، استمر المشرفين على التحدي بإضافة الافاعي ، خمس وعشرون ، سبع وثلاثون ، خمسون ، ستون ، سبعون ، أفرغوا آخر ثعابين من الصندوق واصبح المجموع اثنان وسبعون ثعباناً ، بدأت الافاعي تلهم افواجاً ..

وبدا الرجال منهمكان بجدية كبيرة وحذران في عملهما وانتشرت الشعابين داخل الحوض ، تملأ كل خلاء وتسد كل فجوة بين جسد المرأة وزجاج الحوض ، وظهر على المدعوين علامات القلق والخوف والعيون الواسعة . . . عشرات الافاعي تتلوى داخل الصندوق كأنها خيوط متشابكة ، وكان قوام بعض الافاعي جذاباً ليناً زلقاً ، وكانت تتزلق فوق بعضها . . . لم يكتمل التحدي هنا وإنما عليها الصمود وعدم القيام بأي حركة مفاجئة لأكثر وقت ممكן وسط هذه الافاعي التي كانت تلعق بعضها وتلعق اصابع المرأة احياناً ، وكان اثنان من الرجال يقفون بجانب الحوض استعداداً لأي طارئ ..

وبين الحين والأخر كانت المرأة تصدر صوتاً يعبر عن الألم الشديد ، وكأن ثعباناً قد لدغها ، بينما في الحقيقة كان هذا هو صوت الخوف فقط عندما ينزلق الثعبان على ذراعها أو يمر فوق جسدها ، الا انها ورغم كل هذا كانت حريصة كل الحرص على ان لا يجفل أحد الافاعي ، لأن ذلك يؤدي إلى عواقب وخيمة .. كان هناك رعب حقيقي لأن عضة الافعى لا يمكن الاستهانة بها ، وبين فترة وأخرى كانت إحدى هذه الشعابين تحاول لدغها ولكنها تتجو من ذلك بأعجوبة ، كانت عاقلة كفاية لدرجة انها لم تحاول الحراك . . . استمر الحال لما يقارب نصف ساعة ، وخلال هذا الوقت ربما حاولت الافاعي مهاجمتها لأكثر من عشر مرات ، ولكن لحسن حظها انها لم تصب بالأذى ولا مرة ، المكان داخل الحوض قذر ومرعب ومثير للاشمئزاز ..

عن نفسي لو كنت مكانها لتمنيت ان تنشق الأرض وتبلاعني
هرباً من هذا الموقف ، ولسان حالي يقول يا إلهي انقذني ، ولكن تمنيت
ان تبتعد كل هذه الأعين والألسن والجلود الزلقة عنِي ، ولكن اقصى
ما اطمح إليه ان اغادر المكان . . . بعد ذلك وبمساعدة المشرفين تم
اخراجها بصعوبة لأن حركة واحدة مفاجئة منها سوف تجعل الافاعي
تضعها .. بعد اخراجها وتنفسها الصعداء جلست على الاريكة أمام
المقدم واخذت تلعب بأطراف اظافرها كنوع من المواساة ، وكأنها
تهدئ من روعها ..

كانت هادئة من الخارج تماماً لكنك تستطيع من بعيد ان ترى
ان هناك بعض الخوف داخلها ، كانت تعبث بأي شيء تمسه اصابعها،
اضاف الخوف من الجمهور بعض الدراما إضافة إلى خوفها البسيط
من الافاعي .. كانت مرهقة بالرغم من انها كانت تجلس ساكنة هامدة
في حوض الافاعي فقط ، الا انه ارهق الادربيالين والقلق والخوف
من الفشل ، وبعد ان اطمأنت وهدأت ، سألاها مقدم البرنامج عن السبب
الذى دفعها للقيام بهذا الأمر الخطير ، عندها قالت انها كانت تعاني من
"أوفيديوفوبيا" ومعنى الخوف من الافاعي ، وانها كانت تقوم بهذا
التحدي عشرات المرات في بيتها وأرادت بذلك ان تواجه خوفها من
الافاعي والتخلص منه ، مع انها طلبت من الجميع عدم تجربة هذا في
أي مكان لأنه خطير واقرب ما يكون إلى الموت . . . لقد كانت محققة
 تماماً فيها هي واجهت خوفها وتغلبت عليه ..

في داخل كل منا الكثير من الاشياء التي نخاف منها ولا سبيل للتخلص من هذا الخوف الا بمواجهته . . . إذا كنت صغيراً تخاف من قيادة سيارة أو دراجة ، لا سبيل لك للتخلص من هذا الخوف الا بشراء واحدة وقيادتها . . . لست قوياً وتخاف من الناس ، ادخل نادي القتال واضرب وتخبط واضرب مجدداً ، ولا يهم ان ابرحوك ضرباً ، عندها تصبح قوياً او الاقوى بين رفاقك . . . خجول ولست جيداً في الحوار ، اذهب واحتلط مع الجميع وتحدث ، وتحدث وتفوه بكل ما يملأ جعبتك من خراب وأطلال ، واستمر بالتحدث حتى يستقر لسانك .. رُوي في كتاب ديوان المعاني: الصمت يورث حبسة اللسان والحصر ، فإن اللسان كلما قُلِّب بالكلام وتلوى بالقول كان أطلق له .. وقد أخبرني أحد أصحابنا قال: ناطقت فتي فوجدهته ذليق اللسان.. فقلت له: من أين لك هذه الذلالة؟ .. قال: كنت أعمد كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ فأقرؤها بصوت مرتفع ، فلم تمض مدة حتى صرت إلى ما ترى ..

هل تعلم كيف يربى المزارعين والصيادين وأهل الريف أو لادهم من يخاف السباحة ، يقومون برميه وسط النهر أو وسط البحيرة وتكرار رميه عدة مرات ، يبكي الصغير ويُشَهِّق ويشرب الماء المخلوط بكل شيء ، ويغرق أحياناً ويتم إنقاذه ، ثم يُحمل ويُقذف مجدداً ومجدداً حتى يتعلم ، بل يصبح الأفضل . . . انه قانون مواجهة الخوف ، قانون له عائدة وثمرة مع ضمان النجاح ..

هناك قصة من الادب الفرنسي ، اعتمدت على واقعة مأساوية حقيقة حدثت في باريس ، تبين لنا اننا عندما نخاف ونخشى مواجهة الناس وقول الحقيقة فإن الخسارة تكون كبيرة جداً . . . كانت هناك شابة تدعى صوفي ورسام يدعى باتريك ، نشأ كل منهما في إحدى البلدات الصغيرة ، وكان باتريك يملك موهبة كبيرة في الرسم بحيث توقع له الجميع مستقبلاً مشرقاً ونصحوه بالذهاب إلى باريس .. وحين بلغ العشرين تزوج من صوفي الجميلة وقررها الذهاب سوياً إلى عاصمة النور والهيكل المعدني ومحاكم التقاضي ، وكان طموحهما واضحاً منذ البداية حيث سيصبح هو رساماً عظيماً وهي كاتبة مشهورة ، وفي باريس سكناً في شقة صغيرة ، ومع مرور الأيام وخطوة تليها خطوة أخرى كانا يسيران نحو تحقيق أهدافهما ، وفي نفس الحي الذي سكنا فيه تعرفت صوفي على سيدة ثرية لطيفة المعاشر ..

وذات يوم طلبت منها استعارة عقدها المصوغ من اللؤلؤ غالى الثمن لحضور حفل زفاف في بلدتها القديمة ، وافقت السيدة الثرية وأعطتها العقد وهي توصي بها بالمحافظة عليه ، ولكن صوفي اكتشفت ضياع العقد بعد عودتهما للشقة فأخذت تجهش بالبكاء .. فيما انهار باتريك من أثر الصدمة ، وبعد مراجعة كافة الخيارات قررا شراء عقد جديد للسيدة مساوٍ له في الشكل والمواصفات ، ولتحقيق هذا الهدف باعوا كل ما يملكان واستدانا مبلغاً كبيراً بفوائد كبيرة ، وبسرعة اشتريا عقداً مطابقاً وأعاداه للسيدة التي لم تشك مطلقاً في انه عقدها القديم ..

غير ان القرض كان كبيراً والفوائد تتضاعف باستمرار ، فتركا
شقتهما الجميلة وانتقلوا إلى غرفة صغيرة في حي فقير . . . تدهورت
احوالهما يوماً بعد يوم حتى الجئتهما الظروف إلى ان تخلت صوفى عن
عملها القديم وبدأت تعمل خادمة في البيوت ، أما باتريك فترك الرسم
وببدأ يشتغل حملاً في الميناء ، وظلا على هذه الحال اعواماً طويلاً ،
ماتت فيها الأحلام والشباب وتلاشى كل طموح ..

وذات يوم ذهبت صوفى لشراء بعض الحاجات لسيدة
وبالصدفة شاهدتها جارتها القديمة في إحدى الطرقات فسألتها:

- عفواً هل انت صوفى ؟
- نعم ، انا صوفى ، من المدهش ان تعرفيني بعد كل هذه
السنين !
- يا إلهي تبدين في حالة مزرية ، ماذا حدث لك ؟ ولماذا
اختفيتما فجأة ؟
- أتذكريين ياسيدتي العقد الذي استعرته منك ؟ لقد ضاع مني
فاشترينا لك عقداً جديداً بقرض ربوى ، ومازلنا نسدد قيمته
- يا إلهي ، لماذا لم تخبريني ؟ لقد كان عقداً زائف لا يساوي
خمسه فرنكات ..

الثقة كالحياة ،
لا تُمنَح لنفس الشخص مرتين ..

المسبحة ..

يحكى ان ديكًا عاش في مزرعة ، فطلب منه صاحب المزرعة الا يؤذن في الفجر والا سيعاقبه ، فوافق الديك خائفاً .. ثم عاد بعد يوم وطلب منه ان يقلد صوت الدجاج والا سينتف ريشه ، فكر الديك قليلاً ثم وافق مرغماً .. ثم أمره بعدها ان يحضر بيضات الدجاج حتى تفتقس فوافق وذهب إلى البيض يجر وراءه التصاغر والذل .. ثم عاد صاحب المزرعة بعد أيام وتجبر وطلب منه ان يبيض كالدجاج والا س يتم ذبحه ، فكر الديك البائس واقتنع بنهايته المحتومة وهي ذبحه ، وكانت نهايته المؤلمة هذه هي نتيجة حتمية لتنازلاته المتكررة فقال: ليتني ذبحت وانا أؤذن..

لا تتنازل عن أخلاقك وافعالك الطيبة ، لأنك في البداية ستكره الشر وتحذر منه ، ولكن بعد فترة تتعود عليه وتبدأ تتحدر وتهبط نحو الاسفل بالتدريج شيئاً فشيئاً ، حتى ينفذ كل ما تحتويه من الخير ..

ضرب أحد الصالحين مثلاً للشخص الطيب كيف يهوي نحو المعاصي والذنوب خطوة خطوة ، ينحدر إليها كما ينزل سلم السرداد .. فقال: كمثل رجل يرتدى الملابس البيضاء ويسير متلهلاً فيجد بركة من الوحل تعترض طريقه ، يرفع نهاية ملابسه لئلا تسخ ويمشي على أطراف اصابعه بحذر شديد ليحافظ على نظافة قدمه وملبسه ، يخطو بعض الخطوات ،

ورغم حذره الشديد اصابته بعض قطرات الوحل وقد بدلت
واضحة على القماش الابيض ، غضب وحزن وحاول جاهداً ليكون
حذراً أكثر في الخطوات التالية ، وما ان مشى أكثر في هذه البركة
الموحلة حتى ازداد الطين المتناثر على ملابسه . . . نظر إلى حاله
وندم لأنه لم يبحث عن طريق آخر من البداية لكنه مع ذلك لم يتراجع ،
وإنما ازداد عناداً وحاول ان يعبر المكان ويزداد حذراً أكثر في
الخطوات التالية ، وما هي الا بضع خطوات حتى اكتشف ان البركة
اصبحت أكثر عمقاً ، غاصت قدمه في الطين واتسخت ملابسه ، وبدل
ال قطرات اصبحت هناك بقع كبيرة من الوحل على أطراف ثوبه ،
وكلما مشى أكثر كلما ازدادت البركة عمقاً ، وكذلك زادت بقع الطين
على ثوبه ، فلما رأى حاله واعتداد الأمر ، أفلت أطراف ثوبه من يده
ومشى بخطوات واسعة ، حتى انه بدأ يخوض في الطين بجسده
وملابسه غير مبالٍ بما سيصيّبه من الوحل وعمق المستنقع ..

ويمكن تشبيه هذا المثل بالرجل الذي يكذب ويعتاد الكذب
ويستمر على الكذب ثم لا يشعر انه يكذب ، ويعتبرها صدقاً أو يعتبرها
مجرد كلام عابر . . . كان هناك رجل عجوز يعمل بجانبي عندما
كنت صغيراً وفي أحد الأيام كنا نتناول وجبة الغداء معاً ، فنظر إلى
قفل المحل القديم وهو من النوع الكبير ثقيل الوزن ، فقال لي وهو
يندب أيام فتوته: عندما كنت شاباً كنت امساك هذا القفل بيد واحدة
فاعصره وأكسره ..

وهناك رجل آخر في حيّنا اسمه طارق ، وكان يخبر الجميع عن بطولاته و مغامراته ، وأنه كان يوماً في الجيش اثناء الحرب الإيرانية العراقية ، وقد ضل طريقه مرّةً وعزل عن رفاته بين الجبال، ثم تذكر ان سلاحه يحتوي على طلقات نارية مذيبة ، فوجّه سلاحه الرشاش إلى الأعلى وكتب بالرصاص على السماء "طارق محاصر" مما هي الا لحظات حتى جاء رفاته لنجاته ..

وسرد لنا قصة في حادث و زمان آخر ، وأنه كان يقود سيارته العسكرية متوجهاً لمدينة البصرة ، ولم ينتبه إلى العداد حتى نفذ وقود السيارة ، توقف على جانب الطريق ونظر يمنة ويسرة فلم يجد إلا بقرة قريبة منه تنزع حشائش الأرض بشفاهها ، فذهب وحلب ضرعها وملأ خزان السيارة وانطلق ، يُقسم طارق هذا ان السيارة كانت تمشي مسرعة مرتاحه ، وكانت تُقذف الجبن المثلثات من فتحة العادم ..

وكذلك الزنا ، يتدرج إليه الإنسان خطوة بعد خطوة منذ أول نظرة ، ثم تتبعها ابتسامة خجولة ، ثم كلمة ، حتى ينزلق داخل مستنقع الزنا ويواجه تبعاته ، ومنها ان يكره الرجل زوجته وهي تكرهه لأنها جرب شيئاً آخر وبدأ يقارن ، لقد سقط منذ الخطوة الأولى ، وخطوة تتبعها أخرى حتى وصل إلى هذا الحال ، كما قال الله سبحانه وتعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَشْبُعُوا حُطُوتَ الشَّيْطَنِ ۝ وَمَن يَتَّبِعْ حُطُوتَ الشَّيْطَنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)) ..

وهذا ما حدث مع رجل كان يذهب باستمراً لبيت من بيوت البغي والرذيلة ، فما كان من زوجته الا ان سبّقته يوماً إلى ذلك البيت واتفقت مع صاحبة البيت ان تطفئ المصباح وتدخل زوجها عليها ، فلما دخل عليها أخذ يلمسها ويتغزل بها ، وينتّي على جمالها ونعومتها وعطرها ، وبينما هو على تلك الحال اشعلت زوجته المصباح ، فنظر إليها وعرفها فقال بلا تردد: ما أجملك في الحرام . . . نعم ، خطوة تتبعها اخرى حتى اصبح لا يجد متعة ولا سروراً ، ولا يطمئن له قلب إلا عن طريق الحرام ، ولأن الحرام كماء البحر كلما شربت منه ازدلت عطشاً ..

يُقال ان شاباً وقع في عشق ابنة كبير الشحاذين ، ولما علم أباه بذلك حاول صدّه عن تلك الزبحة المسمومة ، الا انه لم يبالي وأصر على الزواج منها ، وعندما توجه الشاب مع أهله لخطبة الفتاة قال جدها: ان مهر ابنتنا غالٍ وقدره عشر دنانير . . . تبسمت وجوه الحاضرين باستغراب ، فهو مبلغ زهيد ، ولكن العجوز أضاف شرطاً آخر ، وهو ان يحصل العريس على هذه الاموال من التسول .. فعرضت عليه مئات الدنانير حتى يرجع عن ذلك الشرط القاسي ، لكنه أخبرهم ان هذه الزبحة لن تتم الا بهذا الشرط ..

فلم يجد الشاب مهرباً من الرضوخ لطلب الجد ، فلبس رث الثياب ومرقوعها وأخذ يسروح في البلاد ، وظل هائماً حتى جمع المبلغ .. وعلى الفور اتجه للجد ووضع العشرة دنانير بيده ..

فـسـأـلـهـ الجـدـ: هـلـ شـعـرـتـ بـشـيـءـ غـرـيـبـ يـحـدـثـ لـكـ فـيـ رـحـلـةـ
الـتـسـوـلـ الـتـيـ قـمـتـ بـهـاـ ؟ـ فـقـالـ الشـابـ: لـمـ أـشـعـرـ بـشـيـءـ إـلـاـ مـعـ آـخـرـ دـرـهـمـ،ـ
فـقـدـ قـادـنـيـ حـظـيـ العـاـثـرـ لـرـجـلـ شـحـيـحـ لـمـ يـسـتـجـبـ لـتـوـسـلـاتـيـ،ـ وـلـكـ لـشـدـةـ
حـرـصـيـ عـلـىـ الدـرـهـمـ تـبـعـتـهـ وـلـزـقـتـ بـهـ كـالـقـرـادـةـ،ـ فـصـدـنـيـ بـكـلـ أـشـكـالـ
الـصـدـ وـأـنـوـاعـهـ،ـ وـحـيـنـهـاـ أـحـسـسـتـ أـنـ شـيـءـ بـيـنـ عـيـنـيـ قـدـ اـنـقـطـعـ كـانـقـطـاعـ
وـتـرـ مـشـدـدـ ..ـ وـهـنـاـ اـبـتـسـمـ الـعـجـوزـ وـقـالـ قـوـلـتـهـ التـيـ صـارـتـ مـثـلـاـ:ـ مـاـ دـامـ
خـيـطـ الـحـيـاءـ اـنـقـطـعـ مـنـ بـيـنـ عـيـنـيـكـ،ـ فـلـاـ خـوفـ عـلـيـكـ ..ـ

أـيـهـاـ الـحـبـبـ الـلـبـبـ،ـ تـنـبـهـ لـأـمـرـكـ وـمـبـادـئـكـ،ـ فـعـنـدـمـاـ تـوـافـقـ
وـتـذـعـنـ وـتـرـضـخـ،ـ سـتـصـلـ لـهـذـهـ المـرـحـلـةـ مـنـ التـنـازـلـ وـالتـذـلـلـ،ـ
وـالـخـصـوـعـ وـالـخـنـوـعـ،ـ وـفـعـلـ كـلـ مـاـ هـوـ رـدـيـءـ وـفـاسـدـ،ـ ثـمـ يـظـهـرـ
وـيـتـجـلـيـ أـمـامـكـ طـرـيـقـيـنـ لـاـ ثـالـثـ لـهـمـاـ،ـ فـإـمـاـ التـبـاهـيـ وـالـتـبـجـحـ بـفـعـلـهـ رـغـمـاـ
أـنـهـ قـبـيـحـ وـسـيـءـ،ـ أـوـ الـقـيـامـ بـهـ مـكـرـهـاـ رـغـمـاـ عـنـ اـنـفـكـ،ـ وـسـيـنـتـهـيـ عـنـهـاـ
كـلـ خـيـرـ فـيـكـ،ـ هـذـهـ الـحـيـاءـ تـشـبـهـ الـمـسـبـحـةـ،ـ مـاـ اـنـ يـنـقـطـعـ الـحـبـلـ وـتـفـلـتـ
أـوـلـ خـرـزـةـ فـمـاـ بـعـدـهـاـ يـنـزـلـقـ بـسـهـوـلـةـ ..ـ

كـنـ حـذـراـ مـنـ الـبـدـاـيـةـ،ـ فـهـاـ هـنـاـ فـيـ عـالـمـاـ،ـ لـاـ شـيـءـ يـعـودـ كـمـاـ
كـانـ،ـ وـالـتـنـازـلـ نـزـولـ ..ـ لـاـ شـيـءـ غـيـرـ هـذـاـ ..ـ

لا يُعيد الضحك ما أذهبه الغضب ..

لَا يُعْدِدُ الْفَحْشَةُ مِمَّا يُفْحِشُ فِي الْجَنَاحَيْنِ ..

المعادلة ..

أخبرني أحد الأصدقاء انه عندما كان فتى بعمر المراهقة ذهب يوماً للبيت عند اقربائه في منطقة السيدية ، وهناك ذهب لصالون حلاقة ليصف شعره ، الا انه تفاجأ بالحلاق يبصق على شعره لترطيبه بدل استعمال رذاذ الماء . . . كان الحلاق يجمع لعابه ثم ينفه على رأس الولد المسكين ليضحك اصدقائه والزبائن الجالسين في المحل . . . انه انعدام الأخلاق ، وهل يوجد تفسير غير هذا ..

يُقال ان شخصاً وجّه سؤالاً إلى الخوارزمي عالم الرياضيات عن قيمة الإنسان ، فأجاب: إذا كان الإنسان ذو أخلاق فقيمه = ١ ، وإذا كان الإنسان ذو جمال أيضاً ضع صفرأً بجانب الواحد لتصبح قيمته = ١٠ ، وإذا كان الإنسان ذو مال فأضف صفرأً آخر لتصبح قيمته = ١٠٠ ، وإذا كان ذا حسب ونسب فأضف صفرأً آخر لتصبح قيمته = ١٠٠٠ ، كريم ومتسامح ضع صفرأً ، قوي صبور حليم ضع صفرأً ، وهكذا كلما كانت له محسن ضع عنها صفرأً حتى يصبح لهذا الإنسان قيمة كبيرة = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ولو أننا قمنا بحذف الرقم واحد وهو الأخلاق لتصبح العدد = مجرد أصفار لا قيمة لها ، وكذلك لو ذهبت الأخلاق أصبح الإنسان بلا قيمة ..

أفضل ما تعطي وتقدم للأخرين هو الأخلاق ، فإن كل ما تفعله في حياتك اليومية وتعاملك مع البشر فهو لك وخاص بك ، وربحه لك ومردوده عليك ، حتى في أمور العبادات ، انت تفعل ما تؤمر به لتفوز بالجنة وتتجو من النار .. إلا الأخلاق ، فإنها للناس من حولك على تنوعهم ، ان كانوا غرباء أو أقرباء أو من عائلتك فأخلاقك لهم ينتفعون بها .. في هذا الزمان حيث انحرست الأخلاق وبدأت بالتلاشي كأنها راتب الموظف بعد أسبوع ، ان كنت صاحب أخلاق فاضلة ومحباً للخير ستصبح كمن يوزع الماء البارد المثلج على التائبين في الصحراء .. أعتقد ، والجميع يوافقني في هذا الامر ، على ان أجمل شيء في هذه الحياة هي الأخلاق ..

اما بالنسبة لمن يسرف في فعل الخير .. أقول له .. انتبه ، لا تكن ليناً فتعصر ، لا تبالغ ولا تسرف في التواضع ، كن على طبيعتك ليعرف الناس ان فيك جانب سيء وجانب صالح ، ولكن بحدود أخلاقك وتربيه اهلك وتعاليم دينك ، لأنك إذا كنت طيباً فقط سيصيّبهم الذهول والدهشة ان طالبت يوماً بحقك ، أو أعطيت رأيك أو اعترضت ، أو نبهت من اساء إليك وبيّنت له حدوده ، عند ذلك يستغربون وتسجل نقطة سلبية عليك .. كن على طبيعتك ليعرف الجميع انك إنسان لك مساوى ومحسن مثلك مثل أي شخص .. فالطيبة لا تعني ان تكون ساذجاً ، بل عليك ان تتحلى بالقرة أيضاً ، حتى لا يفسرها الآخرون ضعفاً وجيناً ..

قرر ثعبان ان يتوب عن أذى الآخرين ، فسأل حكيمًا ماذا عليه ان يفعل ؟ فأمره ان يذهب إلى مكان معزول لا أحد فيه ، وأن يكتفي بالطعام الذي يكفي قوت يومه دون ايذاء ولا عض ولا تخويف ، ففعل الثعبان ذلك واتخذ بستانًا بعيداً جُحراً وملأوى له ، وبات لا يؤذى أحداً، فقرر بضعة من الصبيان ان يضربوه بالحجارة كل يوم ، ولكن الثعبان التائب لم يرد عليهم فشجعهم ذلك على ضربه ورجمه أكثر ، حتى كادوا ان يقتلوه وهم يمرحون ، فعاد حزيناً إلى الحكيم يسأله عما يجب فعله ؟ فقال له: قف منتصباً واصدر صوت فحيح عالٍ وانفث القليل من السم في الهواء مرة واحدة حتى يراك الصبية فيبتعدوا عنك ، وبالفعل قام الثعبان بفعل ذلك فخاف منه الصبية وابتعدوا عنه نهائياً ، وتركوه تائباً في هدوء وسلام ..

احذر وتمهل قبل ان تخطو الخطوة
السيئة ، تمهل كثيراً ، فكل شيء إذا
ذهب لن يعود أبداً ، ثق بي يا صديقي ..

.. حسْنَةٌ تَمْلِكُ إِلَيْهِنَّ، لِمَنْ تَرْكَهُنَّ
وَلِمَنْ تَرْكَهُنَّ، لِمَنْ تَرْكَهُنَّ، أَنَّهُنَّ
أَحْمَلُهُنَّ، وَلِمَنْ تَرْكَهُنَّ،

اخطاء طويلة الأمد ..

هناك اخطاء تسمى اخطاء طويلة الأمد وهي طويلة الأمد لأن آثارها مؤلمة ومستمرة .. احذر ان تكون سبباً لهذا النوع من الاطياء، كالغدر ، وخيانة من كان له فضل عليك ، أو خذلان من جاءك ملهوفاً واثقاً من مكانته في قلبك ومتاماً انك لن ترده خائباً ..

فعندما يأتي الخذلان من شخص عزيز لن يفقد الإنسان الثقة بشخص واحد ، وإنما يفقدها بالجميع ، يعيش بعدها فراغاً لا يملئه شيء أبداً ، ولن يسمح لأحد بالاقراب منه ، ويرى الجميع مشاريع خذلان مع وقف التنفيذ ، تتبدل مشاعره ، ويغلب عليه الصمت ، ويهيمن عليه الفراغ ، ويصبح الشخص حذراً يتربّص بالآذى من الجميع.. كالذى نجا من الغرق ، صحيح انه نجا ولكنه سوف يخاف من الماء إلى الأبد ، وسيبقى حبيس جراحه . . . قيل لرجل يوماً: هل يمكنك مسامحة من خانوك؟ فأجاب: ان من يخونوك كأنهم قطعوا ذراعيك ، تستطيع مسامحتهم لكنك لا تستطيع عناقهم ..

هناك الكثير من الاطياء طويلة الأمد عليك التحرّز منها لأن خطوة صغيرة في الاتجاه الخطأ سوف تدفع ثمنها سنة أو عشر سنين من العذاب ، كشراء بيت بلا دراسة ولا تخطيط ، أو الدخول في مشروع خاسر ، ومن الممكن ان تدفع الثمن عمرك ، كله كرجل تزوج على عجل ثم ندم على مهل ..

ويزداد ألمك إذا كنت خائف وتخشى خطوة التغيير... أهون هذه الاحطاء هو الوشم ، وأشدتها أدى هو التبذير المبكر ، كغني وفقير زرعا شجرتين معاً في نفس الوقت ، لكن الفقير جز ثمار شجرته مبكراً ، والغني صبر وانتظر واعتنى بشجرته حتى امتلأت بالثمار ، ثم أخذ ما يكفيه واستثمر الباقى في بيعه وزراعته وحفظه لوقت آخر.. فهذا عقل الغني وهذا طبع الفقير ، والغنى ما ان يحصل على مال سيفكر كم يدخل منه وكيف يتحكم بالباقي ، والفقير لو حصل على مال سوف يرتكب ويتحمّل كيف ينفقه... وكذلك من ظن ان العمر طويل فأغرق نفسه بالملذات والشهوات والاسراف في المحرمات ، ثم تلقفه الافلاس والفقر والديون بلا رحمة ، احذر من الاحطاء طويلة الأمد ..

أخذ راعي الاغنام يقود قطيعه يومياً إلى المراعي الفسيحة وهو يعزف بمزماره الخشبي ، ثم يستلقي عند انتصاف الظهيرة تحت اغchan شجرة وارفة الضلال ليستريح ، وفي أحد الأيام وبينما كان الراعي يستريح كعادته وإذا به يسمع صوت هسيس صادر من الاحراش القريبة منه ، فانتابه الفضول وتتبع الصوت حتى قاده إلى ثعبان كبير وقد علق ذنبه بين حجرين ، وهو يصدر صوت فحبح وهسيس ويتلوي محاولاً التحرر فلا يفلح .. تقدم الراعي بهدوء وقد أشفق على الثعبان وخضخض أحد الحجرين فتحرر الثعبان ، وزحف نحو الراعي مصوباً نظره ولسانه إليه ،

جلس الراعي وأغمض عينيه وقال: لا بأس ، ان كنت ستلدغني بهذه طبعتك ولست نادماً لأنني حررتك بهذه طبعتي .. ثم فتح الراعي عينيه فشاهد الثعبان يزحف بين الاعشاب مبتعداً حتى اخفى ..

في اليوم التالي وبينما كان الراعي يجلس تحت ظل شجرته المعهودة ويعرف بمزماره وإذا به يرى الثعبان ذاته يقترب منه وهو يتهادى على انغام المزمار ، فاستمر الراعي بعزمته إلى ان توقف الثعبان عن التمایل ، ثم وضع قطعة ذهبية كان يخبيها في فمه أمام الراعي وانصرف ، سر الراعي كثيراً بذلك وأخذ القطعة وشارك الفرحة مع عائلته لدى عودته للبيت . . . استمر ظهور الثعبان الراقص على انغام مزمار الراعي يومياً في نفس الوقت من النهار ، وفي كل مرة كان يضع قطعة ذهبية وينصرف ، فكان الراعي يأخذها ويهدي الله . . ويترك الثعبان لشأنه ..

وبعد شهر قرر الراعي الذهاب إلى الحج بما جمعه من مال فأعطى المزمار إلى ولده الشاب ، وأخبره بقصة الثعبان ، وأمره ان يعزف به في الظهيرة وقت الاستراحة حتى تستمر العائلة بالحصول على قطعة الذهب يومياً ، سافر الراعي فقد ولده القطيع لنفس المكان وجلس مجلسه تحت ظل الشجرة وشرع بالعزف ، فشاهد الثعبان يأتي متمايلاً مع حركة المزمار تماماً كما أخبره والده ، ثم ترك الثعبان قطعته وغادر ، وتكرر الحال في اليوم الثاني والثالث والرابع ..

بعد عدة أيام سأم الفتى من انتظار قطعة واحدة يومياً وقال في نفسه: لابد ان هذا الثعبان يعيش قرب كنز كبير . . . قرر الفتى ملاحقة الثعبان إلى وكره ، فتتبعه بعد نهاية المعزوفة حتى رأه ينسد داخل جحر فهجم عليه وضربه بفأس كانت معه فقطع ذيله ، فالقت الفتى الثعبان ولدغه في رقبته ، فعاد الفتى إلى بيته بعد جهد جهيد حيث توفي هناك متأثراً بالسم ..

عاد الراعي الأب من الحج وعلم بمصرع ابنه ملدوغاً فأيقن ان ولده قد أساء التصرف مع الثعبان ، وبعد مضي فترة من الزمن استأنف الراعي عمله في رعي الاغنام ، وعند الظهيرة شرع بالعزف لكن الثعبان لم يحضر فاستمر الراعي بالعزف حتى شارت الشمس على المغيب ، واخيراً ظهر الثعبان مبتور الذنب ، لكنه لم يكن يتراقص بل وقف يطالع الراعي عن كثب . . . فقال له الراعي شوقاً وحنيناً: هيا يا صديقي لستمر كما كنا ولنسى ما حصل ..

وهنا نطق الثعبان بحزن قائلاً: انت مخطئ أيها الراعي ، لا يمكن أبداً ان ننسى ما حصل ، فكلما نظرت انا إليك تذكرت ذيلي المقطوع ، وكلما نظرت انت الي تذكرت ولدك المتصروع ، فهذه الدنيا لا تبقى على حال واحدة ، والآوقات الجميلة من الصعب ان تدوم إلى الأبد ، وداعاً يا صديقي ..

قال الثعبان ذلك ثم اختفى إلى غير رجعة ..

من المستحيل جداً أن يستمر حديث
بين رجل وامرأة بدون كذب ..

הו נרמז לאין סוף חשבה ..
אנו לא מודים לך כי תזכיר חשבה

أها ، لحظة من فضلك ، تذكرت شيئاً ، انها اثنا عشر ..

- ماذا ؟

- اثنا عشر باصاً ..

- ماذا تقصد ، لم أفهم ؟

جواب اللغز ، لغز الباصات التي يقابلها المسافر اثناء الطريق ، عندما يغادر بغداد ، انها اثنا عشر باصاً .. لأن المسافر لا يقابل ست باصات فقط ، وهي الباصات التي خرجت من مدينة الموصل إلى بغداد ، والتي انطلقت مع بدء رحلته بنفس الوقت ، ولكنه سيقابل أيضاً تلك الباصات التي كانت في الطريق والتي انطلقت قبل بدء رحلته بست ساعات ... أعتقد ان النتيجة مبهمة وأشد تعقيداً من اللغز نفسه ... لكنها سوف تبدو أقرب للفهم والحقيقة في حال قمت بتجربتها يوماً ..

عامل ولباخ وبائع خضار وأرنب ..

هل تذكر قصة الأرنب الذي أراد ان يصبح شجاعاً في كتابي الثاني "لديك قلب أرنب" هذه القصص الثلاث التالية يكمن فحواها ومقصدها في قصة الأرنب نفسها . . . الأرنب الذي أراد ان يصبح قوياً ..

ذهب أرنب صغير خائف إلى جذع شجرة ناطق، جذع ساحر، أراد الأرنب ان يصبح قوياً ، وطلب منه ان يحوله إلى ثعلب مكار ، لبى الساحر طلبه وبلمح البصر تحول إلى ثعلب شرير .. بدأ يمشي بغرور في الغابة ويقفر أمام الارانب ويحدث صخباً وضجيجاً ليخيفها، ثم سمع نباح كلب فارتعد وهرب ، رجع إلى الساحر وطلب ان يحوله إلى كلب لأن الكلب أقوى من الثعلب ، استجاب لطلبه وبلمح البصر تحول إلى كلب مخيف يلهث ، وخرج يلهث في الغابة وطارد بعض الثعالب انتقاماً منهم . . . وبعد ان تعب وجلس يريح بذنه سمع عواء ذئب من على بعد أميال ، كاد يتلفظ قلبه من حلقه من شدة الخوف ، رجع مرة أخرى إلى الجذع وطلب هذه المرة ان يحوله إلى ذئب بعيون مخيفة ورأس ضخم مستدير ، لم يرفض الجذع ونطق بكلمات غريبة فتحول الكلب إلى ذئب شرس ، طارد الذئب كل من الارانب والثعالب والكلاب وكثير من حيوانات الغابة ، واصطاد بعضها وتناول حتى الشبع .. وفجأة أحس بالأرض ارتجت من تحته ..

انه زئير ملك الغابة ، هرب مسرعاً ولم يلتفت ، مباشرة إلى الجذع الساحر وطلب ان يحوله هذه المرة إلى أسد قوي تخلف منه جميع حيوانات الغابة ، نظر إليه الجذع بتهكم واسفاق وقال له: مهما حاولت ، ومهما تحولت ، لن تصبح قوياً أبداً ، لأن لديك قلب أرب ..

العامل .. يمر عامل تنظيف وتسليك المجاري وهو يركب دراجته الهوائية ، رجل طيب مؤدب قصير القامة ، وهادئ ، يعمل كل الاوقات ، ومتى ما احتاج إليه .. يتصل به أي شخص بحاجة لتسليك انباب الصرف الصحي ، فيهرع صاحبنا ويمتهن دراجته ويتوجه إليه .. لا يخرج من عمل ولا يتأنف من اتصال ، ينفق القليل ويدخر الكثير ، يبدو انه يبحث عن الراحة التي تأتي في النهاية ، الراحة التي يقال عنها من يضحك اخيراً يضحك كثيراً .. استمر لسنين يُحشد كل فلس ودرهم ودينار يحصل عليه حتى اشتري قطعة أرض على شارع تجاري ، بعد عدة سنين من الحرمان القارص الموجع ، ثم بني قطعة الأرض هذه ، وظل يرفع بنيانها ..

خلط من طابوق وبلوك ، واستعمل للسقف الأخير قطع من "الساندوبيتش بدل" وهي الصفائح المعدنية المعزولة بنوع من الاسفنج العازلة للحرارة ، وكذلك استعمل بعضاً من قضبان الحديد المرمية الزائدة عن حاجة جاره أو صديقه ..

وكان يدفع اجرة العمل بالأجل والتقسيط ، وربما باع أسوة الذهب الخاصة بزوجته ، وغيرها الكثير من الأدوات المساعدة حتى انتهى الصرح المتواضع بعد عدة سنين أخرى . . . اكتملت عمارة بأربع طوابق ، وفي كل طابق شققين للسكن ، ودكаниن في الطابق الأرضي ، عمارة متماسكة نوعاً ما ، أعتقد أنها واحدة من أسوأ البناءات التي تمر عليها في حياتك كلها ، المتكونة على جارتها ، حصيلة خردة من الحديد ، وخلط من البلاط الملون ، وكل طابق بلون مغاير ، وكل جزء من الطابق يحتوي على بلاط للأرضية بعدة ألوان متناقضة ..

أصبح سعرها بعد عشرة سنين قريباً من نصف مليار دينار ، بعد سنتين طويلة من خزن الأموال وبدل الإيجار وعمل التسلیک ، سمعت انه يمتلك الآن خمس أو ست عقارات مختلفة ، وكلها مؤجرة ويستم هذه الأموال ويردّها ويكتسحها فوق بعضها للخزن والاستثمار.. وصل صاحبنا للهدف شكلاً و قالباً ولكن ليس قلباً وهامة ..

استمر صاحب هذه العمارة في مزاولة عمله السابق وهو تنظيف المجاري .. نفس الدرجة الخائرة المُتعبة ، ونفس أسياخ الحديد ونفس الوجه المجهد ، ويمكنك ان تحكم عليه من على بعد ميل وبكل سهولة انه عامل تسلیک المجاري مصنوع من الزمن القديم ..

كان إنساناً ناجحاً يحسده الجميع على أمواله ، ولكن لم يحسده أحد على بقاءه في نفس المهنة . . . منعه قلبه ، قلب عامل تنظيف المجاري ، قلب لا يستطيع أن يسمو به إلى مستوى مالك عمارة على شارع تجاري وعدة بيوت وعقارات متفرقة ، يجمع بدل الإيجار ويهنا بهذه الأموال لما بقي من عمره الاحدب ..

اللّبّاخ .. أحد البيوت التي سكنتها في حياتي ، حياتي المستمرة بصعوبة إلى الآن ، كان في منطقة الدورة هي الميكانيك قريب من المركز الصحي ، بعد ان تتجاوز المركز بمنتي متر وعلى جهة يدك اليسرى ترى اسوق "البركة" وبجانبها أفران صمون "الزيتون" .. عندما تصل هناك إذا نظرت إلى الجهة المقابلة للأسوق سوف تشاهد اربع محلات لتصليح وتجارة قطع غيار السيارات ، خلف هذه المحلات شارع ضيق يميل بزاوية حادة للخلف ..

اشترىت هذا البيت ، في الحقيقة هو ثلث بيت تقربياً ، اشتريته مناسفة انا وشاب آخر ، وكلّ منا حصل على قدر ما دفعه من أموال ، أخذت انا مئة متر وحصل صاحبى على مئة وستون متر المتبقية ، قطعت المئة متر خاصتى ببناء حائط على طول البيت ، ليتبقى نصيبي من البيت هو صالة الاستقبال وغرفة نوم في الطابق الأرضي وغرفة أخرى في الطابق الأول ، بلا درج أو مطبخ أو حمام ، ولا حتى دورة مياه ، لذا وجب ان اعيد تصميم الخريطة واستحداث ما ينقصه ..

المهم ، موضوع البناء والخريطة ومتطلبات العمل ليست غايتها هنا ، وإنما أحد العمل ، هو الهدف من المقال ومحور هذا السرد ، **اللّبّاخ** ، كما يسمى في لهجة بلدنا ، وهو عامل طلس الجدران بالجبس والاسمنت . . . طلب مني مليونين ونصف المليون دينار اجرة عمله لترميم جدران البيت ، حاولت تخفيض المبلغ لما يقارب المليونين ولكنه رفض العمل ، فراك يديه كما تفعل الذبابة وغمغم بصوت منخفض ثم انصرف ..

أحضرت عاملًا آخر واتفقنا على مبلغ مليون وستمائة الف دينار ، والحمد لله اكتمل البيت وسكنت فيه مع زوجتي وأولادي لفترة من الزمن . . . كنت يوماً أسير في الشارع فرأيت **اللّبّاخ** الذي رفض العمل وأصرّ على مبلغ باهض ولم يتنازل ويخفض من تكلفة العمل ، رأيته يقف قرب كوم من النفايات يفتش بعناية فائقة عن أي اداة بها روح ، يفحص بعينيه الواسعتين عن أي شيء قابل للاستعمال يمكن الاستفادة منه .. حاورت نفسي سراً ، متعجبًا:

ايها الرجل ، ماذا هناك ؟ لا يوجد شيء بالتأكيد ، لو انك رضيت بالمبلغ الذي قايضتك عليه لاشتريت ما تحب ، ولكن غيرك الآن يبحث في القمامات التي رميتها بنفسك . . . الا انه في الحقيقة لديه قلب يُزّين له البحث عن أشياء يسهل الحصول عليها ، وان كانت لا تساوي فلساً ، قلب عامل فقير قليل الحكمة والفطنة ، ينظر للأرض ، للأسفل ، للرخيص المرمي ..

وموظف آخر يعمل في دائرة المغاربي العامة ، كان يقول بزهو: اسأل عنِي في الدائرة ، أنا يلقبوني بالصرصار . . . وآخر كان يتحدث إلى الزبائن في صالون الحلاقة انه انتحل وصاحب دور ضابطاً أمن وسرقاً بالحيلة أموال السائرين . . . الأول يفتخر كونه عامل محترف في فتح المغاربي والثاني يفتخر كونه سارق . . . لديهم قلب رديء ، قلب اعتاد الامتهان والتذلل والتدنى ..

على الإنسان ان ينسى ويتخلى عمداً عن سيء طبعه وعاداته التي نشأ بها ويتبدل للأذكى ، كما تغير حاله عليه ان يغير من افكاره وإلا سيبقى حبيساً لأفكار الفقر والدنو ، أفكار المشقة والجهد ، أفكار استحقار النفس وبقائها تتردى في الذل . . . إذا وفتك الله وتغير حالك ، إذا انتقلت يوماً إلى حي الطف وانظر ، أو دخلت مرحلة دراسية جديدة ، أو زاد عمرك وكبرت وانتقلت لمرحلة أخرى ، أو نمى راتبك وأصبحت غني مترف ، انت أيضاً تغير ، وغير شكلك وحياتك وقلبك وقلبك ، وكن غني النفس ، غني الافكار .. بدأ طباعك وتصرفاتك وافكارك القديمة المُخلجة ، تبراً منها ، انها تتشبه لحاء شجرة عتيقة ، إذا تخلصت منها أصبحت أجمل وانظر .. قال رسول الله ﷺ : ان الله يحب إذا أنعم على عبد نعمة ان يرى أثر نعمته عليه ..

بائع الخضار ..

فَلَمَا كُنْتُ أَنْسِيَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ ، وَلَكِنِي كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ هَا تَذَكَّرْتُ حُبُّ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ الْمَعْدُمِ ، وَرَغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ تَشَبَّهُ غَمَامَةً أَلَمْ فِي دَاخِلِي ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ جَذَابَةً جَدًّا عِنْدَمَا أَخْبَرَتْهَا أُولَادِي وَيَصْغُونُ إِلَيْهَا بَاشْتِيَاقٍ ، يَتَفَرَّسُونَ وَجْهِي دُونَ أَنْ تَطْرُفَ لَهُمْ عَيْنَ خَشِيَّةً أَنْ تَفْوِتُهُمْ كَلْمَةً . . . كَانَ عَمْرِي ثَلَاثَةً عَشَرَ عَامًّا وَكُنْتُ فِي الصَّفَ الثَّانِي مَتْوَسِطٍ ، تَرَكَتُ الْدِرَاسَةَ سَنَةً كَامِلَةً لِمَسَاعِدَةِ أَبِي فِي الْعَمَلِ ، اخْرَجَ مِنَ السَّادِسَةِ صَبَاحًاً حَتَّىَ الثَّامِنَةِ لِيَلًاً ، يَوْقَظُنَا وَالَّذِي فَجَرَّ ، نَغْسَلُ وَجْهَنَا وَنَتَّاولُ الطَّعَامَ ، فِي بَيْوَتِ الْفَقَرَاءِ نَجْلِسُ عَلَىِ الْأَرْضِ وَنَأْكُلُ أَيْ شَيْءٍ تَطْبِخُهُ لَنَا أُمِّي ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ نَأْكُلُ كَانَتْ أُمِّي تَسْابِقُ مَلَاعِقَنَا الْجَائِعَةَ وَتَضَعُ فَنَاتِ الْخِبْرِ لَنَا فِي الْعَصِيدَةِ السَّاخِنَةِ ، كَفَرَاخُ الْبَطِّ ..

ثُمَّ تَخْرُجُ جَدِتِي رَحْمَهَا اللَّهُ مِنْ حَجَرَةِ نُومِهَا وَعَلَىِ رَأْسِهَا فَوْطَةٌ سُودَاءُ ثَخِينَةٌ تَلْبِسُهَا فَوْقَ قَطْعَةِ قِمَاشٍ ، سُودَاءُ أَيْضًا ، وَلَا يَهُمْ أَنْ كَنَا فِي الصَّيفِ أَوِ الشَّتَاءِ ، تَحْدَثُنَا بِكَلْمَاتِ رِيفِيَّةٍ لَطِيفَةٍ حَيْثُ مَسَقَتْ رَأْسَهَا .. ثُمَّ نَغِيرُ مَلَابِسَنَا وَنَذْهَبُ إِلَىِ السَّوقِ وَالْعَمَلِ فِي بَيْعِ الْمَوَادِ الْغَذَائِيَّةِ .. الْكِبَارُ يَمْشُونُ فِي الْمَقْدِمَةِ ثُمَّ نَتَبَعُهُمْ ، نَحْنُ الصَّغَارُ بِوْجُوهِ مَرْحَةٍ رَاضِيَّةٍ ، وَعَلَىِ طَوْلِ الْطَّرِيقِ يَرْكُلُ أَحَدُنَا الْآخَرُ ، أَوْ يَصْدَمُ كَتْفَهُ ، أَوْ يَمْدُ يَدَهُ لِيُوْقِعُ أَغْرِاضَهِ عَدْدًا ، ثُمَّ التَّظْلُمُ لِلْأَبِ الْمَشْغُولِ الْبَالِ وَادْعَاءُ الْبِرَاءَةِ وَالْعَفْوِيَّةِ ..

ندفع عربة محملة بالمواد الغذائية ونرتب الاغراض معاً
وننتظر رزقنا بفارغ الصبر والثقة ، اتناول طعام الغداء الذي احضرته
معي في نفس مكان العمل ، أو اطلبه من المطعم ، من الرائع ان يُسمح
للرجل الصغير تناول الطعام خارج المنزل ..

تعب ونعايس وجوع وحر ، أو صقىع .. بعد المغرب يصبح الجو رطباً من كثرة الزحام والسوق المكتظ بالبشر ، ونشرع بصعوبة التنفس . . . في يوم من الأيام وبعد مرور ساعتين بعد شمس الظهرة ونحن جالسون في الحر والصمت ، لم نكن قد بعنا الكثير هذا اليوم وقد مر الوقت بلا عمل ولا حراك ولا ربح ، ولا ادري ما نفع جلوسنا هنا ، على هذا الحال ، فحتى الكلب لم يكن يحتاج لخدماتنا . . . كانت تعامل قريباً مني بنت سمراء صغيرة لكن ملامحها جميلة ولها وجه صغير وعيناوان سوداوان تشع ذكاءً ..

وَجَدَ أخِي عَالِمَةً صَغِيرَةً مِنَ الْقَمَاشِ الَّتِي تَخَاطَطُ عَلَى يَاقَةِ الْمَلَابِسِ مِنَ الْخَلْفِ ، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا شَرْكَةُ الْبَتْوَلِ ، فَقَالَ لَهَا أخِي وَهُوَ يَنْيَأُهَا قَطْعَةً مِنَ الْقَمَاشِ بِبَتْوَلٍ ، هَذِهِ لَكِ . . . ظَنِتِ الْفَتَاهُ أَنَّهُ يَرِيدُ التَّهْرِشَ بِهَا ، أَوْ أَنَّهُ أَرَادَ اعْطَاهَا وَرْقَةً تَحْتَوِي رِسَالَةً غَرَامِيَّةً سَخِيفَةً ، فَأَخْبَرَتِ الْبَنْتُ أَمَهَا ، وَأَرْسَلَتِ الْأُمَّ فِي طَلَبِ اخْوَتِهَا الْكَبَارِ ..

وبعد فترة ليست بالبعيدة جاء اخوتها ، اثنان من الشباب الغاضبين وكانت ملامح الشر تظهر على وجوههم ، وبدأ العواء والتهديد بتلقين أخي درساً قاسياً بعد المساء ، بعد ان يغلق السوق ، جاء المساء ، وجاء الشابان أيضاً ، وكان أخي يصلني ، انتظراه حتى انتهاء الصلاة ثم تحدثا معه وذهبنا ، أخبرني أخي انه كرر دعاء خاص بالنجاة من المصائب مئة مرة . . . لقد حلت المشكلة التي صنعت سهواً وغباءً .. ولست ألم اخوتها على غيرتهم ، فهذا ما وصل لهم من المعلومات ، وهذا هو رد الفعل لكل شريف غيور على بناته ، ولست أعجب من أمرهم ، ولكن عجبني عن قصة سمعتها يوماً عن رجل أتى شيخاً يسأله فقال: هجم رجال على بيتي وعذوا على عتبة داري ، وضرروا زوجتي ، يا شيخ هل أرد عليهم بالمثل ام اعفو واصبر واحتسب اجري على الله ؟

قال له الشيخ: اعفو واصبر . . . بعد ان ذهب الرجل تعجب الحاضرين وقالوا للشيخ: كيف يا شيخ والرسول ﷺ يقول: ومن قاتل دون أهله فهو شهيد؟ . . . رد الشيخ بوقار ، وقال كلمة بين الحزن والاحقار: وهل شرف الإنسان يحتاج إلى فتوى..

لست ألم اخوتها ، ولكنني ألم أخي على تصرفه ، لأن بتول هذه فتاة ، والفتاة عليك تجنبها والحذر منها ، وكأنها قطعة من الحديد ، سواء سقطت عليك أو سقطت عليها ، ألحقت بك ضرراً ..

وكان يعمل قريباً مني رجل عجوز ، وكان كل يوم عند الصلاة وبعد الوضوء يمسك الجورب بيديه على هيئة فتيل ويسرع بتجفيف ما بين اصابع قدمه ، يبدأ من الاصبع الصغير ثم صنوه ، واحداً تلو الآخر ، يسحب من هنا وهنا ، جيئةً وذهاباً .. يا لهم من عمال رائعين ويا لها من صحبة جميلة ، هذا ما كنت أشعر به يومياً في بداية ترك الدراسة ، ثم يختفي هذا الحماس ويتلاشى مع التكرار .. والعنا ..

في الشتاء ينهر المطر بغزاره على النايلون الشفاف الذي نغطي به اكياس الحبوب ، وفي ثوان يتبدل لون الأرض والافق والملابس ، وواجهات المباني الاسمنتية ، نقف تحت مظلة كبيرة ونزن الحبوب للناس ، في حال جاء شخص مبلل غاضب يريد شراء بعض البقوليات . . . وقد كانت أمي تجبرني على ارتداء الكثير من الثياب تحت الجاكيت حتى اني احس بثقلها على رقبتي ، اعترض احياناً ، ولكنني لطالما حدثت نفسي وقلت لها معاذباً: في مثل هذا الزمهرير حتى المدفأة بحاجة لارتداء بلوز من الصوف الخشن ، وتجبرني أمي على ارتداء سروال قطني أو أكثر تحت البنطلون ، ومع هذا ارتجف من البرد وانا أشاهد الرجال يحكون احذتهم على حافة الرصيف ..

وكنت ايضاً ، ارافق تارجح أحد المسؤولين يكسوه العرق الدهني المختلط بالماء ، وحبات المطر تنحدر من على رأسه ومن سترته العسكرية الثقينة ، لا يهتم بالمطر ولا يبحث عن مأوى ، لأنه جرّب مسبقاً نظرة الانقضاض والكراهية في وجوه الرجال ان حاول واقترب من تجمع للناس يحتمون من المطر تحت بناية ..

أعود ليلاً واقفز داخل البيت مسرعاً ، الصق جسدي بالمدفأة ، انه اللهب الغالي يتبختر مرحاً بي ، وجدتي الحبيبة تفترش الأرض أمام التلفاز ، واقرب ما يكون من اللهب ، تسحب طرف ملابسي لأنحني وأقبل خدتها ، وهي بدورها تقبلني برقة وعطف لا يشبهها شيء على وجه الأرض ، وعطرها الدافئ يحملك للنعاس ..

أمي في المطبخ ، واخوتي الأصغر مني يمسكان اختي بفرح وتهنئة وهي تُحقق في أولى خطواتها ، أحضرت أمي العشاء ، ارغفة خبز تصنع في تنور المنزل ، تخبزه أمي وأختي الكبيرة يومياً بلا ضجر أو ملل ، وافخاذ الدجاج ، وحسائش خضراء تصلح للطعام البشري ، ما بدا لي انه أشهى طعام في العالم . . . افرغت لتر من الحساء الدافئ في معدتي ، ثم الدجاج والخبز والرز ، وشيء من كل شيء . . . خلال هذا السنة المجهدة شاهدت الغرائب وأبصرت العجائب ، وتعلمت بعض المسؤولية ، وقيمة المال ، وأصبحت أكثر قوة ..

وكنت قد نضجت تماماً ، و كنت أدرك ان هناك فجوة كبيرة بين طبقي و افكاري ، فأنا صبي في الثالث عشر من عمره وكذلك رجل يعمل ليل نهار ليعين والده ، بحيث يتغذر ربط افكار أحدهنا بالآخر . . . انتهى عام من العمل وعدت بعدها لإكمال الدراسة .. بعد هذه السنة التي قضيتها في السوق ، عدت هائماً ملهوفاً ومحباً للدفاتر والصفوف والكتب والاصدقاء والمعلمين ، والدراسة ، انه شغف العودة بعد الانقطاع ، وهذا الشغف جعلني اتميز عن الجميع ، و كنت الأولى في الصف ، ودائماً ما احصل على أفضل الدرجات والعلامات الدراسية ..

جاء لمدرستنا استاذ رياضيات جديد ، متوسط الطول ، كثيف الشعر ، اسمر قليلاً ، لديه كرش كبير ، وقد بدا متواضعاً وكان يحدثنا دائماً عن الأمور الحياتية العامة ..

عندما كنت صغيراً ، كانت هناك ، سابقاً ، مناسبة سنوية وهي يوم انتخاب قدوة الصف ، ويعتبر هذا النشاط تشجيع و تكريم لأكثر طالب مجتهد ومحبوب في الصف من قبل زملائه ، يتم ترشيح ثلاثة طلاب بناءً على العلامات الدراسية ، والأخلاق ، وعلاقة الطالب بزملائه .. وعندما يحين وقت الترشيح توزع قصاصات ورقية على الطلاب لكتابه اسم مرشح واحد من بين الثلاثة ، يكتب عليها اسم المرشح فقط حفاظاً على السرية والحرية الشخصية للطالب الذي يقوم بالاختيار ،

ثم بعد الفرز يُعلن الاستاذ عن الفائز ، ويتم تكريمه والتصفيق له بحرارة ، والاعلان عن اسمه عندما يُرفع العلم يوم الخميس ، وكذلك منحه وسام الطالب القدوة ليعلق على صدره طول العام الدراسي ، واضافة الكثير من المهام إليه باعتباره ممثل عن هذه القاعة الدراسية ، ويحظى باحترام المدرسين له لسنة كاملة ..

واخيراً جاء يوم الانتخابات ، الدقائق تسير بطيئة ومملة ، وقد أحسست وقتها بحرارة ، وجو خانق ، وابتسامة بلهاء ، وعرق بارد على جبيني ، وحين كنت اتنفس عميقاً ويخفق قلبي بشدة كانت بلوزتي بلونها الحبرى تتحدب مبتعدة عن جسدي وتتقرّل للداخل بسرعة .. استدررت إلى رفافي وأنا ارمقهم بنظرات الشك والتسلل ، وكأنّي أخاف ان يغيروا رأيهم ويختاروا الطالب الذي يجلس بجانبي ، صبي لا يأكل إلا اشياء لونها ابيض أو زهري ، هذا ماكنت أخبره به دوماً ..

وها قد تم تم اختياري ، بعد العد والفرز كنت الفائز الأول ، العبد الفقير ، بملابسي ووجهي الذي كوته الشمس ، واصابع يدي الطويلة الخشنة التي حملت الاطنان من اكياس الغذاء لعام كامل بقيظه وصقيعه ، نهضت بخطوات ثابتة مسرورة منتظراً تصفيق أصدقائي بحماس . . . وها قد جاء المدير للنظر في قوائم الفرز وأخذ النتائج ، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان ، لقد قفز المدرس وحشر نفسه بظلم وتعسف معترضاً فرحتي ومسرّتي ،

وأخبر المدير ان هذه هي السنة الثانية لهذا الطالب في نفس المرحلة الدراسية ، وهناك طلاب آخرون ليسوا ندأ له في الذكاء والمواظبة ، ولكن علاماتهم الدراسية لا بأس بها ، أجابه المدير بأنه لا بأس بالطالب الذي بقي سنة أخرى في المرحلة الدراسية نفسها إذا كانت هذه هي رغبة زملائه . . . أصر المدرس على رأيه ، وسحبوا مني هذا الوسام والمفخرة ، وتم اختيار طالب آخر ، وجهه أبيض ، مائل للبياض ، وأكثر بياضاً ، ملابسه مترفة ، ومنطقه التي يسكنها حيث المسؤولين واقرباء رئيس الدولة بينما كان بيتنا في منطقة تسمى "دور العمال" ..

تكدرت لغراة كلمات الاستاذ وتدخله ، تلبد وجهي بالهموم بطريقة حزينة وكئيبة وغريبة ، تمنيت لو اني استطعت حمل نفسي على البكاء ، ادركت حينها سوءات ومعايب العراق داخل روحي بين الطفولة والرجلة ، جلست مكاني اخضخض ساقي وأفرك يدي ، توتر ، اضطراب ، خوف ، كنت احرك حتى لساني ، كمن ينطف فمه واسنانه من بقايا الطعام ، بطريقة حزينة وغريبة . . . تحدث المدير معه بكلمات مقتضبة لم ادرى ماهيتها ، كأنها لغز بينهم ، وهز رأسه ثم انصرف ..

لم تكن لدي فكرة واضحة عما كان ينتظري من الخبر ، وأن شيئاً غير كريم وغير عادل سيحدث ، لا أتذكر يومها كيف سلكت طريقي إلى المنزل ، لقد كنت مغناطأً تعيساً مهيناً من غير تصنع ..

بعدها تغير حالي ، كطفل جمع المال لعام كامل واشتري دراجة جميلة ملونة ، ثم سرقت . . . كنت قبل هذه الحادثة احصل في الامتحان على علامة كاملة ، ثم أصبحت أدخل لامتحان فأمسك الورقة واكتب بها اسمي وبعض كلمات السؤال وارجعها له ، وتأتي العلامة صفر . . . كنت صبياً عنيداً قضى معظم طفولته يعمل في السوق . . . قال لي مرة بعد ان سلمت له الورقة فارغة:

- هكذا أصبحت ؟
- نعم ..
- بارأك الله فيك ..
- وفيك أيضاً ، استاذ .. وخرجت ..

وكانني تذكرت مقوله "عندما يموت الشغف ،لن تغريك الفرص ولو جاءت على مقاس أمنياتك" . . . اشتاهيت حينها لو بكت مثل الأطفال ، لكن الرجل المغدور داخلي لم يطأعني . . . استمر حالي وذنبي هو درجة الصفر .. الدرس الذي تعلمنه بعد كومة من السنين هو ان الناس يؤذوك بكل حال ، وحتى ولو كانت نيتهم طيبة ، المهم ان لا اهلع او انطفئ . . . كان هذا المدرس يبيع الخضار والبطيخ الأحمر في السابق .. اكره ذكر هذا المدرس كما يكره المريض قدوم الليل ، وكما اكره الماعز الذي أكل نصفة علبة من سجائر يوماً ، عندما كنت اعمل أمام كراج سيارات النقل الجماعي في سوق "الدورة" ويصعد الناس منه إلى مختلف مناطق بغداد ، ابيع السجائر هناك ،

في السابق كانت علبة السجائر باهظة الثمن لذلك تُعرض علبة واحدة مفتوحة من كل نوع ، ليشتري الناس سيجارة واحدة أو أكثر ، وربما اشعلها الرجل وسمع نداء صاحبه من خلفه وهو يقول: نفس نفس .. ليس تنفس من سيجارة صاحبه بعض الدخان ، يُثلاج به صدره ويُصبر بها فؤاده ..

وبينما أنا جالس هناك اداعب اصابع قدمي ، مر راعي الغنم ومعه ما يقارب من ثلاثين ماعز ، مرت المجموعة من أمامي وأنا اراقب الوانهم وقرونهم ، ثم برز رأس أحداها وسحب بفمه واسنانه المتراسقة علبة سجائر مفتوحة ، وبدأ يلتقط التبغ المغلق بالورق والفلتر ، وبينما أحس الراعي بفعل معزته وزجرها ، وأبعدها عن أغراضي ، كانت البلاهاء قد تناولت ما يقارب سبع سجائر ..

لم يدفع لي مقابل الضرر ، وإنما اشتري مني سيجارة واحدة واعشلها وذهب مع حيواناته الشريرة .. . لقد ظلمني الماعز وظلمني المدرس رغم الفرق في الهيئة والملابس ..

بائع بطيخ . . . مدرس . . . قلب . . . ماعز . . .

انه القلب يسير وتتبعه الاعضاء والحواس بلا تفكير ، فكيف لقلب مريض ان يُحيي جسداً ، وكيف لقلب اسود ان يشع نوراً وخيراً ..

دائماً ما يخيل لي هذا المدرس ، ويتراءى أمامي طيفه ، وكيف كان يوماً يبيع البطيخ الأحمر ، ويرتدي الثوب الفضفاض ، ويرفع أحد طرفيه ليسهل عليه حركة سيقانه الممتلئة باللحم والشعر وكتل دبقه ، ويحمل سكيناً ، وينادي بكلمات غريبة مضحكة ساذجة ، كان هذا قبل حصوله على وظيفة مدرس رياضيات ، مدرس يؤمن على مئات الصغار الطموحين ، مدرس يرتدي قطع ملابس تم الاعتناء بها جيداً ، وبنطل وحذاء لامع يخسى عليه من الغبار ..

لكنه رغم كل هذه المهارة والاتقان ، ورغم كل التقلب وتبديل الحال ، إلا ان لبّه بقي لبّ بائع بطيخ ، مقتص ، مغتاظ .. لديه قلبٌ رديء ، لا يسمو به ليصبح قلب مدرس حنون ، ولا يستطيع ان يتعامل مع الطلاب بمهنية وحيادية ..

منعه قلبه ، قلب بائع البطيخ الأحمر ، ينظر للأغنياء وجميلي الخلقة على انهم الأفضل ، وخاصة أولئك الذين يرتدون قمصاناً فاخرة ، بالغة النظافة ..

الشجرة التي تولد معوجة ،
لا تنموا باستقامة أبداً ..

ለ ከመ ተመዝግበ እና የኩን የኩን የኩን የኩን

الضحية ..

وقع طائر في حب وردة بيضاء رهيفة ، وذات يوم ذهب إليها مصراً عن حبه ، لكنها رفضت قائلة: انا لا أحبك . . . أما الطائر فكان يحبها حد الهياق ، وكرر الذهاب إليها يوم بعد يوم ، وفي كل مرة كانت الوردة البيضاء ترفضه .. وفي النهاية قالت له وهي تدفعه للإحباط: عندما يتتحول لوني الأبيض إلى الأحمر سأبادرك نفس المشاعر وأحبك . . . وذات يوم جاء الطائر وقد جرح جناحه وطار فوقها ونشر دماءه على بتلاتها ، وعندما تحول لون الوردة البيضاء إلى اللون الأحمر أيقنت مدى حب الطائر لها ، لكنها أدركت هذا بعد فوات الاوان . . . وذاك الشاب الذي أحب فتاة عمياء ، ولما تقدم لخطبتها رفضت ، فكيف تقبل الزواج بشخص لم تراه ، ولا تدري عن ملامحه وهيئته ، ثم حصلت يوماً على متبرع وأجرت العملية ، وأبصرت ، ثم التقت بحبيها فرفضته مرة أخرى لأنه أعمى ..

وجارتي التي أحرقت نفسها وخرجت تصرخ ليلاً ، تصدع هدوء الليل وتبتدر أحلام النائمين ، لأن حبيها هجرها ، كنت أعرف حبيها هذا ، أعرفه جيداً ، عاطل عن العمل ، سائق دراجة نارية ، يشرب الخمر ، ولا يمتلك مؤهل دراسي ، ويسكن وأمه بالإيجار ، لكن الفتاة أحبته ، ولا علاج لهذا الغباء إلا بإحراقه ، ثم انها لم تمت ، ولم تسلم ، تشوهدت واضافت لحزنها حزناً جديداً ، وانقضت فرصها في هذه الحياة ، لو انها عزمت ان تنسى ما مضى وتبدأ من جديد ..

وكم من فتى انتحر وهجر أهله ، وضرب والديه ، وكثير منن
أدمى المخدرات ، وما كل هذا إلا لأنهم تعرضوا للخداع والغدر
والفقد.. وتلك الفتاة من البرتغال التي يتناقل الاجيال خبرها منذ مئات
السنين ، عندما وعدها أحد البحار بالعودة والزواج منها ، انتظرته
لأربع واربعين عاماً وهي تقضي أيامها في الميناء تلوح لكل سفينة
عابرة ، وتسأل البحارة عنه ، ثم ماتت خائبة ، فصنع لها اهل القرية
تمثلاً يخلد ذكرها . . . أعتقد ان كل من رأى هذا التمثال سوف يسأل
نفسه سراً: هل هذا وفاء أم غباء؟ ..

كل تضحية خارج حدود منزلك هي في الاصل خسارة ، سواء
كانت تضحية لصديق ، لقريب ، لحبيب ، لوطن . . . اما التضحية
داخل حدود البيت سواء كانت للشريك أو الأولاد فيجب ان تكون
بحدود المستطاع ..

تحدثت مواقع التواصل الاجتماعي عن تلك المرأة وزيارتها
المستمرة لزميلتها الموظفة المصابة بالسرطان ، وانها كانت دائمًا
تجد البيت واغراضه فوضى ، والأطفال بهندامهم القديم المتتسخ ،
وعلامات الدراسة المتدنية ، والرجل مكتفوس الشعر بائس الحال ،
يأكل من طبخ يديه المقرف ، لأن الزوجة المسكينة في مراحل يائسة
مع المرض ولا تقوى على تحريك أي عضو من جسدها المهزوم ، ان
حال البيت كمدينة منكوبة ،

ثم ماتت هذه المرأة . . . وبعد مدة ذهبت صديقتها للاطمئنان على الأولاد فوجدهم بأفضل حال ، من نظافة وطعام وتعليم وتسليه ، وبعد ان أعطتهم الحلوى والهدايا التي احضرتها معها ، سألتهم عن أحوالهم وعن كيفية تدبير امورهم ، فتبين ان الأب قد احضر مدبرة منزل تقوم بخدمتهم والقيام بأمور البيت والطبخ . . . اكملت المرأة حديثها بحزن قائلة: كان من باب أولى لو ان الزوج احضر خادمة لزوجته المسكونة قبل وفاتها ، ليخف عنها وطأة المرض ، ويزيرها عنها مشقة البيت والأطفال ..

لا أعتقد ان فكرة الحب من طرف واحد ، والخدمة والتضحية ستصل بنا للانتحار ، لكننا قد نسقط في فخ التضحية بالكرامة ، والتضحية بالصحة ، او نتازل ونعطي أكثر مما يطلب منا ، ونُزّهق كل جميل فينا لكي نرضي الآخرين ، ثم نصبح منبودين لأننا فقدنا الفضائل والمحاسن والمفاحر التي كنا نمتلكها ، وفقدنا الادوات التي كانت تغري الآخرين ليتمسكون بنا ..

لا تكن طيباً أكثر من الحد المقرر للطيبة ، ولا تتجاوز الحد في اللطف والتضحية ، لأنه سينقلب ضدك على كل حال ، ولا أعتقد ان هناك حل أفضل من ان تصبح كالمرأة ، تعطي بمقدار ما قدموا لك ، وتحرمهن بمقدار ما منعوك ..

وفي الكثير من الاوقات والأماكن تحتاج إلى التظاهر بالغباء ،
وعدم الكلام ، وت剋ف السكوت ، والركن إلى زاوية وعدم ابداء أي
مساعدة ، وعدم تحريك أي عضو في جسدك ، وربما لو اصطنعت
النوم لكان أفضل ، فكل تضحية هي تمهيد لصناعة ضحية..

كان هناك رجل متزوج بامرأة كسلة ، وكانت عندما تعجن
وتصنع أقراص الخبز وتتركه ليتحمر ، تأتي الدجاجات وتمشي فوقه
فتترك آثار أقدامها عليه ، ثم تأتي الزوجة وتضعه على النار كما هو ،
ثم قدر الله ان ماتت هذه الزوجة ، فتزوج الرجل من امرأة أخرى في
غاية النشاط والنظافة ، وكانت حين تعجن وتصنع أقراص الخبز ،
تغطيه وتتركه يتتحمر بعيداً عن الدجاج ، بينما ظن الرجل ان زوجته
الأولى كانت تحبه وتقوم بنقش الخبز وتزينه ارضاءً له ، فكان يأكل
الخبز ويقول: من يوم ماتت المرحومة ما أكلنا خبزة مرقومة ..

الأم النشطة تجعل ابنتها كسولة ..

من يستحقها ..

في الدراسة الاعدادية حيث المراهقة وحب الشباب والملابس الضيقة والألوان الصارخة ، وتسريحة الشعر الصلبة ، وبخات العطر الخانقة .. تшاجر طالب مع مدرس اللغة الإنجليزية ، في الحقيقة هو لم يبدأ الشجار ، ولم ينتشاجر ، ولم يدخل في شجار من الأساس ، القصة وما فيها ان المدرس أراد ضربه فأمسك الطالب قميص المدرس من أكمامه وسحبها للأسفل ، ولم يترك له مجال ليضربه ، وكلما حاول المدرس رفع يده سحب الطالب أكمامه بقوة وانزلها للأسفل ، حاول وحاول وبلا جدوى ..

الغريب في الأمر ان المدرسين ومنهم سرت ابتسام ومعاون المدير استاذ احمد قالوا للطالب: هدى اعصابك ولا تنفع ، وأوصوا اصدقائي ان يخموا غضبه ، لماذا؟ لأن والد هذا الطالب قد توفي قبل فترة .. لقد حكموا عليه من باب المشاعر والعاطفة ، وانه قد مر بمصيبة ، وأن والده متوفي وحالته النفسية منهارة ، لذلك وجب عليهم ان لا يعاقبوه .. وغلب على ظنهم ان المدرس ربما يكون سبب هذه المشكلة . . . إلى اليوم عندما أتذكر ذلك الموقف أتمنى لو ان أحدهم صفعه بقوة ليعلمه تبجيل المدرس واحترام الكبير ، وحدث هذا أيضا عندما مات جيراننا الرجل الطيب "ابو صالح" وترك بعده فتى شرير يؤذى الأولاد ، وبالمقابل هم لا يؤذونه لأن والده متوفي . . . وهل هذا سبب مقع لكي يؤذى اصدقائه وجيرانه ؟

والأشد غرابة من هذا كله ، انه كان معنا في المدرسة ولد صغير لا أتذكر اسمه ، لقد كان أعمى ، لكنه ، وتقريباً في كل اسبوع يت shading مرة أو مرتين ، ويضرب بقوة ، وربما يصيب من يعاركه بأذى وجروح ، لقد رأيته أكثر من مرة يفعل شجاراً ، ثم يلوح بيده في الهواء يبحث عن شيء من أعضاء جسد غريميه ، أو ملابسه أو شعره أو قميصه ، وما ان تتعلق يده بشيء حتى يشده إليه كأنه أخطبوط خبيث ، وبهذا لن يستطيع الفتى الآخر الهرب أبداً ، فيبدأ هذا الأعمى بضربه وضربه ، بقوة وخبث ، ويضيف للموقف انه يصرخ ويبكي ، وعندما يتم احضاره إلى إدارة المدرسة فإن الذنب دائماً ما كان يقع على الطالب الثاني ، على اعتبار ان هذا الولد أعمى ومسكين ، وهو بدوره يقول: لقد استهزأ بي وضربني ، لم أكن أراه فكيف اضربه ..

تمنيت لو اني كنت مديرأ في ذلك الوقت لأمسكت الأعمى وأشبعته ضرباً وابكيته ، لأنني حقاً كنت اكرهه .. كان يمسك الطلاب دائماً ويتثبت بملابسهم بيد ويضرب باليد الأخرى بكل خبث ، يضرب على الوجه والبطن والرأس ، انه ظالم حقاً ، هناك حكمة تقول: كلام مظلوم ووجه ظالم .. أعتقد انه في حالة هذا المشاغب أصبحت الحكمة بالعكس تماماً ، وجه مظلوم وفعل ظالم ..

هل لاحظت ان كل هؤلاء ، من المدير والكادر التدريسي والجيران ، والكثير من البشر ، يُحَكِّمون المشاعر في اصدار القرارات والحكم على الآخرين .. كل شيء يحدث نتيجة المشاعر محسوله فاسد ورديء ..

مثال آخر أشد بشاعة وسفهاً وغباءً وهو ما يسمى بالحب الاعمى ، الذي يُجبر صاحبه ويلجأ للقبول بالإعاقات وسوء الخلق وسوء الأخلاق ، وكثير من النقص تحت ذريعة الحب ، يقفز الشاب داخل هذه الحفرة الرديئة بكل قوته وحماسه ، وبكل مأثره ومفاحرها ، حتى قبل ان يدرس قراره جيداً وقبل ان يعرف خيره وشره ..

ارجوك يا صديقي ، لا تهرب نحو الجحيم ، سيطر على مشاعرك .. ترى فتاة يعجبك رمشها أو صوتها أو ابتسامتها ، فتذهب كالاحمق وتتزوجها كلها ... المشاعر مرتبطة مع الغباء بعلاقة طردية ، تزداد بزيادته وتتفاقم بنقصانه ... تأكد يا صديقي ان كل قرار يأتي بعد نفحة مشاعر هو قرار خاطئ ..

واحذر كل الحذر من استخدام المشاعر والعاطفة في مكان عملك وتجارتك ، وخاصة عند ابرام العقود .. العاطفة للبيت والعائلة فقط ، اما العمل ، يجب ان يمر بلا عاطفة ... إذا كنت تعمل ضمن مجموعة فاجتهد وثابر واحلص في عملك لتؤدي واجبك على أكمل وجه ، ولتتخرج وترفع من قيمتك ومكانتك ، فقط لا أكثر ..

لا تنتظر المحبة ولا تنتظر الحنان ، لا تنتظر الشكر والثناء ،
لا تغضب ، ولا تشعر بالخذلان والشفقة لحالك ان لم تحصل على
والابتسامة وكلمة شكرأ ، لا تحشر عاطفتك في ساعات العمل ،
فالعمل ، للعمل فقط ..

وهناك أمر آخر ، المشاعر لا تنسى ، فاحذر من وضعها في
المكان الخطأ ثم تتعرض للغدر والخذلان ، وتنطفئ وتلوم نفسك ،
وتعزل العلاقات والاصدقاء .. العاطفة ثمينة والمشاعر عزيزة ،
اختر لها مكاناً جديراً بها ولا تفرط بأمرها ، لا تنشرها وتبعثرها على
كل من تتعرف عليه ، ولا تمنحها لكل من يجلس بجانبك ، ولا تغدق
بها كل من هب ودب .. المشاعر جوهر نادر لا يستهان بها ، لأنها
مرتبطة بالقلب مباشرة ، امنحها قيمتها وابذلها في من يستحقها ..

أيها الصديق الطيب ، انتبه لأمر المشاعر والعاطفة ،
فمن خلالها تُصنع مواقف كثيرة ، ولها تبعات تستمر مع الحياة ،
وتنثبت في النفوس ، سواء كانت طيبة او سيئة ، فاختار أين تغرسها ،
وكيف تصوغها وتداريها ..

وأعتقد انه من الأفضل لك ان تصنع منها الكثير من الذكريات
الحلوة والموافقات الجميلة ، لأنها تستقر وتجذب عميقاً في النفوس ،
ومع الوقت سوف تصبح من أجمل وأحلى الذكريات في حياتك ..

فقد أحد الأدباء ذاكرته في آخر حياته ، فقال لصديقه الذي جاء
لزيارته: انا لا أعرفك ، ولكنني أعرف اني أحبك ..

الطيب يؤذى نفسه ،
والخبيث يؤذى الآخرين ..

خمر ، شاي ، ماء ..

خمر ..

انه محل الابتسامة والقهقة والمزاح ، على عدد ساعات النهار ، انه صالون الحلاقة .. اما في الليل ، يختلف الأمر ، فانت اما ان تكون هادئاً بسبب التعب ، او يأتيك السكارى وعطلات الليل وينقلب الحال إلى مقهى بشبابه ودخان سجائرهم ..

في إحدى الليالي حضر شخص غاضب هائج ، وكان فمه متورم واسنانه حمراء من الدماء التي تغطيها ، ولا ادري ان كان قد تشنجر مع اهله او الجيران .. امسك مقبض الباب ودلف للداخل و قال لي بالحرف الواحد: احلق كل شيء ولا تُبقي إلا شعر الحاجب .. انه طلب غريب ، لأن شعره طويل ويغطي عظمة كتفه ، لحيته خينة وشاربه خشن ، كررت السؤال أكثر من مرة وكان يردد بغضب: احلق كل شيء إلا الحاجب .. الليل وما ادراك ما يحدث في الليل ، عراك الشباب ، ومناقشات الوضع الأمني ، والجدل السياسي والطائفي ، وكل مشكلة تحدث في البلد تُناقَش في صالون الحلاقة ، وكل شاب تعرف على فتاة أو خطبها ، أو وعدها بنزهة ، أو هجرها ، فلا بد ان اسمع بقصتها ..

الحلاق هو الشخص المدلل والمحبوب ، وكل المعاملات في الدوائر الحكومية يمر عليها وتنجز بلا طابور ولا انتظار ، لكن الأجمل والأروع من هذا كله ان الجيب يغص بالمال على الدوام .. الساعة الثانية عشر ليلاً دخل جاري ابو مصطفى لأحلاق له شعره الابيض ، ابو مصطفى هو إنسان بريء وطيب إلى حد لا يوصف ، تخيل انه مهما كان عمرك عندما تحدثه ستتجده صديقك المقرب ، وأجمل طباعه انه لا يكلمك إلا وهو مبتسם ، وقد اختار اجمل المفردات ليسيطر بها ، انه رجل معطاء هادئ كالنهر .. شذبت شاربه بمشط صغير وما اجمل ابو مصطفى وما اجمل شاربه اللطيف ..

ثم دخل بعده شاب سكران يتزرنج ، انه عامر ابن المنطقة وأحد اولاد الجيران ، وجلس على أحد المقاعد ينتظر دوره ، ينظر للحائط والتلفاز وينظر تجاهي ، يشاهد عملية قص الشعر بلا عقل ولا مقصد انما مجرد عيون تتحرك عبثاً ، احياناً تتكشف لك لحظات غريبة مثل ان يجتمع هذا الرجل الطيب ابو مصطفى في نفس المكان مع هذا الشخص المترنح قليل الادب ، وهذه هي قطع الاحجية والمكان والدراما لصنع قصتنا .. كان المخمور يجلس ويصوب نظره إلى طبلة أمامه عليها منفضة سجائر ومجلات وجرائد ، أعتقد انه يراها شيئاً آخر ، وإلا لماذا هذه النظرة وكأنها تكلمه وتناقش معه خطوته التالية .. وبعد ان انتهيت من قص شعر ابو مصطفى نهض وشكري ومد يده في جيب دشداشه ليدفع لي أجرة الحلاقة ،

لكن الشاب السكران والذي كان يجلس كالخرف الوديع ، قفز فجأة تجاهه وحلف وبالغ في القسم ان يدفع الاجرة بدلاً عنه ، وبعد مفاوضات ظريفة بينهما ،

- انا ادفع ، انا اكبر منك
- والله ما تدفع انت مثل أبي
- ما يصير ، أخجلتني
- على العكس انت تأمر ، يمدو خليه تر ، أبداً ما مم ما كوفر بي
- غمم ووومو هوو أبداً ، كلل رجاءً قفرتت ..

وهلم جراً ، حتى حسم الأمر ، وأن الشاب السكران سوف يدفع أجرة شخصين ..

عدل ابو مصطفى هيئته وملابسها ، ونظر في المرأة وذهب لحال سبيله ، وابتسمته الطيبة تزين وجهه ، بعد ان شكرني وشكر الاستاذ المترافق على لطافته وكرمه حين تكفل بدفع الاجرة لكتلهماء..

اعدت ترتيب ادوات الحلاقة وكنست الأرض ، ونضخت الشعر عن الكرسي ، ثم ناديتها ان تفضل عزيزي ، وقف أمامي بطوله الفارع ، لكتي تظاهرت بأنني لا آبه به ولا بقوته ... انه الليل ، وأنا وحيد ، لقد اخافني حقاً ، لكتي لن أدعه يشعر بهذا ، وخاصة في مكان عملي ،

وكنت قد تذكرت مقوله "تظاهر بالقوة حتى ان كنت ضعيفاً ، فلا أحد يعرف الفرق" .. المشكلاة العويصة ان الرجل حين يأخذ الخمر عقله يصبح حنوناً ويخبرك بمشاكله العاطفية ، وربما تدمع عينيه لشيء تافه .. لكنه ، وفي نفس الوقت ، قنبلة موقوتة وقد ينفجر غاضباً لأنفه الاسباب . . . امسكت المقص والمشط وبدأت أعبث برأسه بأطراف انا ملي ، ثم شفرة الحلاقة والمعجون والكحول ، وصنعت جواً للعمل لا بأس به ، لتنظيف هذا الرأس الأشعث المتتسخ .. كانت طلباته واضحة ودقيقة ، الأمر غريب ، لم أسمع عن مخمور حاليه متذبذبة بين جسد يترنح وعقل صاح ..

كان يموء كجرو صغير ويتكلم معي بلطفة ، الاحمق ، كيف علم نقطة ضعفي ، وأن هذه الطريقة تجعلني اتنازل حتى عن عقلي وحذري ، وانتازل عن جواربي أيضاً . . . تخيل معي رجل مخمور يأتي منتصف الليل ليحلق شعره وذقنه ، من المؤكد انه متبر للتقرز ، انه أشبه بعلكة على الأرض يملأها الشعر والأتربة والواسخ ..

خطوة تتبعها أخرى حتى تحول تحولاً لا باس به ، لم يتبدل شكله كثيراً لكنه تغير نحو الأفضل ، وقد أبدى مدحأ لا بأس به عن مهارتي ، انها عملية مرهقة ومملة اقتضت ساعة من الجهد والعذاب ، واشتمئاز من رائحة البول الذي شربه ، ثم انتهت بهذه النتيجة ..

فتحت قطعة القماش عن رقبته ، ووضعت له عطر الكلونيا ، قلت له: نعيمًا . . . ثم نهض ، كنت أتوقع ان يفعل أي شيء ، يبخس حقي ، أو يزيدني بقشيشاً على اعتبار انه بلا عقل ، أو يعانقني من فرط حنين المخمورين ، وهذا يحدث دائمًا .. ثم نظرت تجاهه انتظر ان يخرج المال ويدفع حساب شخصين ، هو وأبو مصطفى ، كنت انظر تجاهه كطفل ينتظر هدية العيد ، تخيلت كل هذا وأكثر ..

لكني لم اتوقع أبداً ان يقف على قدميه ، ومن ثم يميل لليسار ، يمين ويسار ، ترناح داخل المحل ثم امسك مقبض الباب ، وخرج من غير لا كلمة ولا نقود ولا ضمير ، وتركني وحيداً اطالع ظهره ، واراقب خطواته ، تركني وحيداً انظر إليه ، بنفس الطريقة التي كان ينظر بها لمحاتي المحل قبل قليل ..

انتابني شعور غريب ، انه ربما ، الآن ، وفي سره ، كان يضحك بخبث ويعمز لنفسه فرحاً بنجاح حيلته .. لم اندبه ولم احاول ، هذه هي مشكلة السكارى ، انهم في عالم آخر .. لمثُ نفسى مراراً وتكراراً ، لماذا انا خائف ؟ لماذا انا خجل من المطالبة بحقى ؟ لماذا انا ضعيف ؟ هل سيحدث يوماً واقف نفسي اني اسامح من يكرهني ويتكبر علي ويؤذيني ، بحجة ان أخلاقي طيبة ولا داعي لحياة يشوبها الكره والحقد ؟ .. لكني أعلم علم اليقين ان خوفي يملئ علي أوامر التنازل ، ويملي علي فكرة الاصل الطيب ، انه التكيف ..

كان يأتي بعدها نهاراً إلى صالون الحلاقة بكمال عقله وصلابته ، ومع ذلك لم أذكره بالحادثة ، لأنني خجول ، لكنني لم أكن اسمحه في داخلي أبداً ، وكنت اعتمدت أن أسيء إلى تسرية شعره وتصفيتها ، وأسيء إليه في طريقة الحلاقة والاحترام ..

بعد فترة من الزمن رأيت شاباً آخر من ابناء منطقتنا ، وهو سكران أيضاً ، يفعل هذا مع بائع الفلافل في المطعم المجاور ، لقد طلب منه لفة فلافل وعلبة مشروب غازي ، ثم ترناه وتبخر في خطواته ولم يدفع المال ، وذهب يهدي فتركه صاحب المطعم لحال س بيله ، وعندما مرّ من أمامي غمز لي موضحاً بأنه احتال على صاحب المطعم ، فتذكرت صاحبى وأظنه مارس الحيلة نفسها معي ..

ذكرت لكم هذه الحادثة بتفاصيلها كي أرفه عن نفسي ، ولا اترك آثارها تضغط على احشائي من الداخل ، وللتزيل عنى بعض الغم ذكرتها لأسلبي نفسي ، ولتنقي هذه الكلمات روحي ،

كما تُنقى الدموع قلب المفجوع ..

شاي ..

ربما لن تصدقني ان أخبرتك اني كنت أذهب يومياً للعمل في الساعة السادسة إلا ربع صباحاً ، مرتديةً ملابس العمل الثقيلة القاسية ، وكانت احمل في يدي كيس الغداء ، أشبعه "كاميرو" فرخ الدجاج الاسود في أفلام الكارتون ، وكانت ابتدئ نهاري برفع أكياس المواد الغذائية ، طحين ، رز ، سكر ، والبقوليات بأنواعها وأضعها في عربة ذات ثلات عجلات ، وأدفعها لمسافة كيلومتر ونصف ، ثم ارتبها على قطع خشب منضدة ومرتفعة عن الأرض على علب زيت الطعام ، ثم افرغ العربة وأعود مرة أخرى للمخزن لإحضار وجبة ثانية من أكياس الطعام . . . وبعد إكمال نقلها وترتيبها وفرشها ، اخلع ملابس العمل وارتدى القميص الأبيض والبنطال الاسود ، ثم اترك اخي الأصغر يبيع الاغراض هناك وادهب مباشرة إلى المدرسة ، حتى اني لا أتذكر ان كنت وقتها اغسل وجهي ام لا ..

وبعد ان ينتهي الدوام المدرسي اعود مباشرة إلى سوق الدورة، استبدل ملابسي ، غداء ، عمل ، بيع ، كيل ، إحضار الاغراض من المخزن . . . نعمل هناك مع مئات الباعة الذين نصبوا الاسرّة ورفعوها عن الأرض ، وصفّوا العربات جنباً إلى جنب على طول سكة الحديد ، ووضعوا عليها الاغراض والطعام والملابس ، وكثير من الحاجيات التي تباع وتبائع ..

وكل منهم يحضر ولده معه ، وهكذا يُهبي ولده ليسير على هذا الطريق المفتر .. الآن ، وبعد ما يقارب من ثلاثة عقود أذهب إلى ذات السوق لأجد نفس الباعة ونفس الأغراض ، نفس الشخص ونفس الشكل لم يتغير ، إلا لون شعره والتعرجات على جبهته ، لم يحاول الارتفاع لمرحلة أفضل ، وأسهل ، وأكثر ربحاً .. على عكس الأغنياء ، تجد أحدهم كل خمس سنين في مشروع جديد ، يواكب التطور ويعرف المال كمجرفة .. وكل إنسان يسير على خطى والده إلى نهايته ، ليثبت مقوله: " الأغنياء يزدادون أموالاً ، والفقراe يزدادون أطفالاً " ..

المفروض ان هذا العمر خاص لاختيار القطع التي يتكون منها الفتى ، وتبني شخصيته بحسب نوع هذه القطع ، ويتم اختيار كل لفظ و فعل وفكرة بعناية ، لأنها تدوم معه لآخر العمر ، وكل شخص نراه أمامنا اليوم سواء كان رجل أو امرأة ، هو حصيلة ونتاج مجموعة القطع التي وضعها ورثت فوق بعضها منذ أيام الطفولة ..

كنت اعمل هناك حتى يحل الظلام ثم أعود للبيت ، ويتكرر الموقف يومياً ، هذا وقد كان عمري حينها أربعة عشر عاماً .. تذهب للعمل خجلاً نشطاً في أول أيامك ، ثم تمل وتتعب ، ومع مرور الأيام تكره العمل ، ثم تعتاده ويصبح عادة ضرورة ، لن تهتم بعدها برانحاتك وملابسك وشعرك ووجهك الكالح ، ثم تصبح كحشرة قوية قاسية ، تحمل الظروف من قيظ وبرد ..

وتزداد حيلة ومكرًا ، أيضاً ، فلم يكن يسلم منا جرذ ولا قط ،
ولا رجل محبول يمر لحاله ، ولا يسلم منا حتى الكلب النائم ، لا بد ان
ننجزه . . . كنت فتى بسيطاً اعمل في السوق ، وزحام السوق ، وقدارة
السوق التي لابد ان تلطخ روحك ، وكانت حرب الخليج قد انتهت منذ
فترة قريبة ، والحصار يمر ببطء على بلدي والاسعار ترتفع سريعاً ،
كان الأولاد من اقراني في بيوتهم ينامون ، يأكلون ، ويتذفرون ، بينما
كنت احمل مع أبي رحمه الله هم عائلتي وعبء المعيشة ..

عندما كنت اعمل هناك ، كان ينقصني كل شيء الا صخب
العمل وكثرة النقاشرات ، اما الانزواء جانباً والجلوس وحيداً طريداً ،
فلم اكن أعرف عنه ، ولا وجود له ، لأنني بين نقاش مع زبون ،
وقصص جار العمل ، ونصائح الكبار ، وذلك انهم لا يجدون في
بيوتهم ولا اولادهم مستمع جيد ، ولا حل لتفریغ شحنة العضمة
والحكمة إلا في هذا الولد الخجول الذي لا يمل سماعهم ..

ويا ليت الشحاذين يختفون من الحياة ، أو على الأقل لا
يزدادون يومياً . . . كنت اشتري بمصروفي اليومي قصص أطفال
وكتيبات رخيصة في كل المجالات ، وروايات ، وافتراض سكة القطار
بقطعة من الكارتون وأجلس لأقرأها ..

هناك ، يصبح العمل والتعب واللعب والمزاح كل هذا يصبح عندك سواء ، لأن الخوض في هذه الحياة والتشعب في السوق ، والعمل الشاق ، يجعلك تتيقن ان السعادة فكرة في رأس أحدهم يستحضرها لنفسه أو يطربها ، بغض النظر عن امكانياته وثروته ..

كنت أعمل واخي الصغير في هذا السوق الغاضب والمضطرب ، وفي أحد الأيام ونحن على وشك الذهاب للبيت مساءً جاء ولد بنفس عمري وضرب اخي الصغير مما آثار غضبي فهممت عليه ، وبدأ الشجار ، وصراخ يشبه عراك القطة في آخر الليل ، كان هناك الكثير من الضرب والصرارخ ، والثرثرة والشتيمة ، والأشخاص.. سألني الناس عما اصابني ؟ ولماذا كل هذه الغضب والصرارخ ؟ .. لكنه اخي الصغير ، ان يُضرب اخوك الصغير أمامك انه اسوء شعور ، ولا أعتقد ان أحداً يستطيع امساك نفسه في هذه اللحظة ..

وبينما انا أضرب وأضرب ، تلقيت صفعة قوية ثقيلة ، مؤلمة، أكبر من ان يفعلها هذا الولد .. نظرت تجاه مصدرها فإذا بالرجل الذي يعمل بجانبي هو من صفعني ، بكره واستهزاء ، وابتسامة خبيثة تزين وجهه .. "خضير ابو عباس" ، الرجل الذي نساعده كثيراً ونراقب اغراضه إذا غاب ، ضربني غدراً ، وحين التفت إليه نجح وبسرعة في استعادة مظهره البريء ، وانه كان يحاول فك الشجار والمساعدة...

خاصة ، وأن الوقت هو الليل ، حيث لن تميز بين الطيب والخبيث .. والظلم حalk ، ويمكن للخبيث ان يخرج ما يحتويه . . . في تلك الليلة لم أستطع النوم ، الهموم تأكلني ، واسفل رقبتي من الخلف يزداد ثقلًا من الكدر ..

صباح اليوم التالي جلست صامتاً لم اتفوه بحرف ، احتجت إلى شجاعة هائلة لمواجهة الرجل ، هل اصارحه ؟ هل اذهب واتشاجر معه ؟ هل اكلمه ؟ اسأله فقط ؟ .. ان أي شخص مثلي ، كفتى صغير سوف يخشى مواجهة شرير كهذا .. لا مناص لهذه الروح التي تقلق بشأن كل شيء ، وترسم آلاف النتائج من لا شيء ، كنت خائفاً ان اعاتبه فيوبخني أو يضربني .. انني افكر كثيراً ، وارسم تبعات كثيرة .. لا مناص لهذه الروح الجبانة الا المواجهة وكشف الحقيقة ..

ذهبت إليه ، وكان سارحاً ينظر إلى كومة اغراضه ، وينظر إلى الزرhma وكل هؤلاء الناس ، يفتح عينيه كتمساح تحت أشعة الشمس ، بلحاته السوداء الخشنة كأنها فرشة صبغ الاحدية ..

- لماذا ضربتني البارحة ؟ ..

ضحك وظهرت أسنانه العوجاء المتخاصمة فيما بينها ، كأنها مجموعة أحجار متنافرة . . . ضحك عالياً ، وكثيراً ، ومن يضحك كثيراً لابد ان ينقصه شيء ما . . . ثم غضب مباشرة وفتح عينيه أوسع ما يستطيع ، كانت عيون قبيحة كأنها عيون كلب أجرب وسخ . . . مرّ على هذه الحادثة ما يقارب الثلاثة عقود ، ولا ادري ان كان هذا هو شكله حقاً ، ام ان هذا ما تصوره لي ذكرياتي من باب كرهه وخذلانه لي ، كما في قانون "الاتجاهات تحدد الآراء" بما معناه انه لو تعثر أمامك شخص تحبه ستقول: مسكين ، اتعبه التفكير والانشغال بتطوير حياته ، قم أيها الحبيب ، قم حفظك الله . . . أما ان تعثر أمامك شخص تكرهه ستقول: احمق ، لا يعرف كيف يمشي ، زادك الله عمي فوق عماك ..

عندما واجهته بالحقيقة لبث قليلاً ينظر في وجهي ، يبحث عن رد يخرسني به .. قرأت في عينيه انه يتمنى الان لو يصفعني مرة ثانية ، لكن ، يبدو انه اكتفى من انتصاره عليّ البارحة ..

- وما الحاجة لأضررك ؟

كنت ارى الفرحة في عينيه ، أعتقد ان روحه الان تقفر كحمار صغير .. ثم بدأ ينافقني والغضب يلمع في وجنتيه ، انه مثل بارع ، عندما تبين له اني كشفت حبّته أخذ يرفع نبرة صوته ، ثم ضحك في سخرية كأنه بريء ..

اقسمت له اني رأيته ، بالغت في القسم عليه ، وانه هو من ضربني لا غيره ، فأنكر وأخذ يُقسم بدوره بأنه لم يضربني .. متأكد انه ضربني ولم أكن غبياً ليخفى علي هذا ، لكنني صغير ، وبغيب والدي كل ما فعلته هو ابني أكدت له انه هو من ضربني . . . للحظة وفقت أمامه صامتاً وشرعت اتأمله بلا نية لفعل شيء ، الا انها نظرة من تعرض للغدر والخذلان . . . بالنسبة لي ، لقد انقضى اليوم ، لكنني لن انسى في كل لحظة وكل يوم أمر من أمامه أو التفت إليه ، انه الشخص الذي ساعدته وخذلني ، الشخص الذي احترمته واهانني..

ربما في المستقبل سوف اساعدك مرة أخرى وأخرى ، واراقب أغراضه أيضاً ، وربما افعل أكثر من هذا ، ان الإنسان وقلبه الطيب الذي تعود العطاء ومساعدة الغير ، فإنه مهما تأذى ومهما تألم سوف تتغلب عليه طبيته ، ويتحكم به عطائه . . . لقد غيرت هذه الصفعة حياتي حرفياً ، وإلا ، فما السبب الذي يدفعني لذكرها اليوم وبعد أكثر من ثلاثة عقود ، أتذكرها لأزداد هماً وتوجساً من غدر البشر . . . حتى اني أردد مع الناس مقوله ، الحيوان أرحم من البشر وأقل جشعًا ، لأن الحيوان لا يؤذني إلا عندما يكون جائعاً ، وعندما يشبع فإنه يمسك شره عن الآخرين .. على عكس الانسان الذي كلما شبع زاد شره . . . الثقة بالآخرين مثل قدح شاي ساخن في ذروة الشتاء ، رغم رائحته الزكية ، ودفنه ، وطعمه وحلوته ، ومنظره الذي يجرك إليه ، إلا ان ذبابة واحدة ، قد تفسد هذا كله ..

ان السوق وما فيه يشبه زريبة البقر . . . رأيته وقد ضربني ،
ومتأكد من هذا ، لكن السوق هو السوق .. وأولاد السوق هم أولاد
السوق .. وأصدقاء العمل أغنياء عن التعريف ..

ماء ..

كل منا تعرض في حياته للكثير والكثير جداً من الألم
والخيارات والغدر ، والخذلان والحوادث ، لن تمر هذه المواقف مرور
الكرام وتنسى ، على العكس ، سوف تصبح ذكريات تزيح شطراً من
الثقة بالنفس والثقة بالآخرين ، وحتى ان كان الخذلان من غير البشر ،
فإن الألم يبقى هو الألم نفسه ..

حضرت حفلة زفاف ابن خالتي في مدينة كركوك ، وبعد
انتهاء الحفل ذهبنا مع بعض اقربائي إلى نهر صغير بعرض خمسة
عشر متراً تقربياً ، نزلنا تحت الجسر واخترنا بقعة نضع عليها ملابسنا
لبدء السباحة في هذا النهر ، الرمال تدغدغ قدميك وتسحبك للأسفل ،
والقصب على ضفاف النهر يتحداك ان تنزل ويخبرك انه سوف
يتثبت بك وينحرقك ، والجسر يقف فوق رؤوسنا وكأنه ينصحنا بعدم
الخوض في هذه المغامرة ، والامواج تمر سريعة أمامنا ، وهي
الوحيدة التي تشجعنا للحق بها ..

جاء دورِي للفوز في الماء فأخبرتهم أنني أستطيع السباحة بخط مستقيم فقط ، أما محاولة الاستدارة وسط الماء الجاري والعودة إلى رصيف النهر فهذا صعب على امثالِي ، ولم أكن حينها قد ارتقىت إلى هذا المستوى في السباحة ، أشار إلى أحد الأصدقاء أن أصبح حتى أصل إلى أحد الأعمدة الخرسانية التي ترفع الجسر وأمسك به ، ليقوم صاحبِي بالسباحة ويعينني معه إلى الضفة . . . مشيت بعض الخطوات ، وكطفل يلهمه رميٌّ نفسيٌّ في الماء ، وبدأت اجذف يمين يسار ، يمين يسار ، أصفع الماء واتخطُّ فيه ، اشبه كنفراً يضرب عدوه بيديه ..

اندفعت بضعة أمتار باتجاه عمود الجسر ، و كنت اقترب منه رويداً رويداً ، وكان رفافي ينظرون لي ويشجعونني بإعجاب ، وأنا أصبح غاضباً مظهراً التواضع ، لأبين لهم أنني لست ذلك السباح الماهر ولا أملك تقنياته في الحركة ، لكنني ابذل قصارى جهدي ..

صرت قريباً من العمود ، وأسررت إليه ملهاً ، خائفاً ، فتحت ذراعي كطير ينوي الهبوط لأحتضن العمود بقوة ، انه تذكرة العودة ، ومحطة الانتظار ريثما يصل رفافي ويعيدونني إلى ضفة النهر ، لقد وصلت فرحاً وأمسكت به ، واحتضنته كأجمل حضن ، وشددت عليه يدي أكثر ، وأكثر ، ثم انتبهت ان الماء يرتفع مسرعاً ويقترب من صدري ، ثم رقبتني ، وحنكني ، حتى غطى فمي ، اني أغرق ، لقد خاني العمود ، انا ممسك به بقوة ولا زلت اترحلق إلى الاسفل ،

ثم ادركت ان العمود الذي وثقت به زلق بفعل الطحالب التي نمت عليه مع الوقت ، لقد كنت أغرق ولا أعرف ما أفعل ، أعتقد اني ذلك الرجل الذي تطارده المصائب كل الوقت ، بلا شك ..

صرخت عالياً ، صرخت وشربت بعض الماء ، ثم ها انا ورأسي داخل النهر ، تركت العمود وحركت يدي عشوائياً لأخرج رأسى للهواء ، ثم عدت لأغط في الماء وأحاول مرة أخرى، وأخرى، وأخرى ، واصرخ .. ان لحظة الغرق خطيرة جداً ، لكنها في نفس الوقت جميلة وفي قمة المغامرة ، ومن اروع الذكريات التي لن تنسى أبداً .. أعتقد اني لبشت داخل الماء بعض الوقت ، كقطعة طعام رميته في الماء ، ثم تداركت الأمر وبدأت ألمم الاشياء من حولي ، بين منظر وذاكرة وموقع وحالة ، واحس بها سريعاً لأحاول إنقاذ نفسي ، حاولت الاستدارة والعودة لكنني فشلت ..

السعال يتفجر داخل حلقي وينثر الماء خارجه ، انه غرق بسيط اعتدت عليه ، يشبه كل مرة مضت ولكن ، لماذا هذا الخوف الفطيع الذي انتابني ، لقد كنت متيقن انه سوف يتم إنقاذي ، وسأعود للبيت سالماً ، وهذه ليست المرة التي الأولى التي اغرق فيها و يتم إنقاذي ، لكنني لست متأكداً هذه المرة كل مرة ، لأن الخطوات مختلفة ولا شيء يتكرر في هذه الحياة ..

داخل الماء وانت تغرق لا يمكنك ان تلاحظ او ترى اي شيء، سواء كانت قطعة من الذهب ، جثة غارقة ، سمسكة تسخر من حالك التي وصلت لها ، من المستحيل ان تلاحظ اي شيء حتى لو كان الماء نقياً صافياً ، لكن ، بعد ان يتم إنقاذه يصبح الأمر كأنك جفلت من الحلم واستيقظت ، فتبدأ بذكر ما رأيته ..

ثم قفز أحد اقربائي في الماء ، وما ان وصل قريباً مني حتى مدلت ذراعي لأتعلق به واحضنه ، يبدو ان ما ينقصني هو الحنان ، وانا محتاج للحضن هذا اليوم أكثر من اي وقت مضى ، قبل قليل ذهبت للعمود لأحضنه ، والآن أحد اقربائي ، لذا بدأت امسك اي شيء يمر قريباً مني واحتضنه بقوة ، لكن الصبيان في تلك المناطق تربو في الماء والسباحة والانهار ، لذلك ، وبلا تفكير منه استمر بالسباحة واندفع اسفل مني ، وما ان اصبح خلفي دفعني بقوة من ظهري باتجاه الضفة ، ثم قفز الآخر وسحبني ، وحملني كسمكة سلور فقدت وعيها وطرحي على الأرض الطينية ..

لا ادري كيف يجتمع الاصدقاء في زمن الطفولة بكل هذه السهولة ، بينما في وقتنا هذا واعمارنا ، نجد من الصعب ان تجتمع برفيق واحد فقط وتألف قلوبهما ، لكن الطفولة ومرح الطفولة هي نفسها في كل مكان ، فلان يعرف فلان ، وفلان يعرف علان ، وصديق ابن خالتي وجاره وابن عمه ، واثنان لا نعرفهم التقينا بهم صدفة اثناء الطريق ، وآخر كان يسبح قبل وصولنا ، وهكذا اكتملت الجوقة ..

أعتقد انما يجمعهم هو السذاجة ، وعدم التدقير في كل الأمور ،
نوع الملابس ، شكل الوجه ، لون الشعر ، كم يملك من المال وماذا
يعمل والده ، كل هذه لا تهم ، لذلك تراهم يجتمعون بـ سهولة ، انها
مفردات التفرقة منذ القدم ، وإلى الابد ..

لولا ان الله يسر هؤلاء الاصدقاء لكان من المتعذر ان اعود
إلى بيتي سالماً ..

كلما تذكرت الموقف ، تدفقت إلى مخيلتي صورة القط توم من
افلام الكارتون ، وهو يتزحلق على عمود الكهرباء ، لأن الكلب
سبايكى دهنه بالزيت ..

اصعب التحديات ، هو الثبات ..

اصعب التحديات ، هو الثبات ..

قط في طريقه للأسفal ..

قبل ما يقارب من عشرين سنة قرأت في إحدى المجلات المحلية خبر شيق وغير مألف ، عن قط سقط من الطابق السابع عشر إلى الأرض فمات على الفور .. هل استغربت ؟ أعتقد انك الآن تسأل ، وأين العجب والتشويق في هذا الخبر ؟ ..

يدّعى كاتب المقال في المجلة ان القط لما استمر لفترة طويلة في السقوط وقد طالت المدة الزمنية له وهو في فراغ ، هواء ، أمان ، ولحد الآن لم يصطدم بالأرض ، ظن القط الابله انه لا يسقط ، أرخي جسده وسرح يتأمل النواذ وهو ينزل للأسفال ، حتى ارتطم بالأرض الصلبة ومات . . . حسناً يا صديقي لنقرأ بعض المعلومات ثم نعود لهذه القطة المسكينة التي تعثرت قدمها وهوت للأسفال . . .

أولاً؛ السقوط الحر أو انعدام الوزن ، هو فقدان الاحساس بالوزن بسبب مرور الجسم في حالة سقوط مستمر نحو الأرض ..

ثانياً؛ السرعة الحدّية هي أقصى سرعة يصل إليها الجسم أثناء السقوط الحر ..

احفظ هذه الكلمتين لأننا سوف نحتاجها بعد دقائق ..

نادرًا ما ينجو البشر من السقوط من ارتفاعات عالية ، ولكن يبدو ان للقطط حظاً أوفر في النجاة . . . أجريت دراسة منشورة عام ١٩٨٧ على أكثر من مئة قطة وقعت عن طريق الخطأ من ارتفاع يتراوح بين طابقين و ثلاثة طابقينً معظمها هبطت على سطح خرساني . . . نجت حوالي ٩٠٪ من القطط من الموت ..

المثير للاستغراب ان درجة الاصابة مثل كسور العظام وعدد الوفيات المؤكدة تقل مع زيادة الارتفاع ، وذلك ان القطة التي سقطت من من ارتفاعات شاهقة لم تصب إلا باصابات طفيفة في منطقة القفص الصدري ، وأطلق سراحها بعد البقاء ثمانيه وأربعون ساعة تحت المراقبة . . . إذا سقطت قطة شاردة الذهن عن طريق الخطأ من حافة النافذة ، فإنها تعيد توجيه جسدها بسرعة وبفطرتها الخالية حتى تكون سيقانها أسفل منها .. و تستعين القطة بمرورها سيقانها لتمتص قوة الهبوط على الأرض ومن ثم تُقلل قوة الصدمة على جسدها أثناء الارتطام بالأرض .. وهذا يحدث في حال لم تصل القطة إلى السرعة الحدية ، فإنها ستختفي من تسارعها وتحافظ على وضعية سيقانها ممتدة أسفل جسدها يشبه جهاز ماص للصدمات ، استعداداً للنزول على الأرض ..

ولكن ، اعريني انتباحك هنا ، إذا وصلت القطة إلى السرعة الحدية (أقصى سرعة يصل إليها الجسم أثناء السقوط الحر) فإن التسارع يختفي وتسترخي القطة نوعاً ما ، وتبسط سيقانها إلى

الجوانب على نحو غريزي من أجل زيادة مقاومة الهواء الواقعة عليها وتحفيض سرعة السقوط بطريقة تشبه السنجان الطائر ، ثم وقبل ان تصل للأرض تعود للوضع الأول ومد السيقان للأسفل وامتصاص الصدمة ..

نعود الآن للقط المذكور في المجلة ، مع ان القطة لا تموت من السقوط من مرتفع شاهق ولكن هذه القطة اغفلت واهملت فترة الاستعداد للسقوط ومد السيقان للأسفل ، وظننت انها بأمان لذلك استمرت على وضع تخفيف السرعة وبسط السيقان للجانب وهو وضع الامان والاسترخاء ، او انها أرخت جسدها بسبب البلة المعروف عنها ، او للتمتع بالمشاهد المباغتة من خلال النوافذ ، طفل ، امرأة ، زوجان يتشاركان ، عجوز ترافق الحائط ، قطة حلوة الفراء ، كلب كريه .. انشغلت تتأمل وترافق وأغفلت عن العودة لوضع ما قبل الارتطام بالأرض ، وضع الاستعداد ، فتردلت قتيلة بسوء القرار والتدبير ..

الأمر عينه ينطبق علينا نحن البشر ، بل أننا ننافس ونبارز القطة في هذه الاستراتيجية ... البقاء في وضع الامان لفترة طويلة يجعلك تنسى ان هناك بلايا وقوارع حولك في مكان آخر ، وأن هناك متاعب ومصاعب تنتظرك عليك الاستعداد لها ، وتنسى قيمة ما انت فيه من النعيم ، فتبدأ بتحيير حالك وتبدل وضعك ، حتى لو كان هذا التغيير للأسوء ..

لم تكن الكتابة بأقلام الحبر شيئاً يسيراً قبل عقود ، فالامر كان مكلفاً من الناحية المادية ، مع احتمالات الفوضى الشديدة بسبب تناثر الحبر ، والوقت الطويل الذي يحتاج إليه حتى يجف .. حتى جاء اختراع أقلام "بيك" الذي غير تاريخ الكتابة .. قلم الحبر الجاف المعروف ، أداة الكتابة الرخيصة التي يمكن التخلص منها أو فقدانها دون أسف ، كما تميز هذا القلم في زمن اختراعه بسهولة الكتابة بانسيابية من دون ان يتسبب في تمزيق الورق ، ويمكن الكتابة به على الورق ماء متنوعة إضافة إلى الورق ..

يبلغ عمر القلم أكثر من سبعون عاماً ، احتل فيها مرتبة القلم الأكثر مبيعاً في العالم ، بيع منه مئة مليار قطعة حتى عام ٢٠٠٦ واصبح أيقونة شهيرة لأقلام الحبر الجاف في العالم ، قد تبدو كل هذه المميزات غير مهمة في وقتنا الحالي ، لكن في الحقيقة هذا القلم الذي لم يتغير تصميمه البسيط على مدى سبعون عاماً كان ثورة في عالم أقلام الحبر الجاف ..

قريباً من نهاية الحرب العالمية الثانية ، اشتري رجل أعمال مصنعاً في إحدى ضواحي باريس .. ثم بدأ العمل على أقلام "بيك" واستثمرت شركته في التكنولوجيا السويسرية القادره على تشكيل المعدن وتمكنه ان تنتج كرة من الصلب الغير القابل للصدأ يبلغ قطرها مليمتر واحد ، كرة تسمح للحبر بالتدفق بحرية ..

كما طور لزوجة الحبر بحيث لا تتسرب ولا تتكلل ، ساعد رأس الكتابة السلس ، والتصميم المريح الخاص لأقلام بيك في تحويل السوق العالمية للأقلام من أقلام حبر إلى أقلام حبر جاف .. وفي عام ١٩٥٩ أحضر بيتش القلم إلى السوق الاميركية مع شعار " يكتب لأول مرة ، في كل مرة " .. وسرعان ما بيع قلم بيك بسعر ثلاثون سنتاً وهو ما يعادل ثلاثة دولارات في هذا الوقت .. يشبه قلم بيك في شكله السادس القلم الخشبي التقليدي ، وينتظر الانبوب الشفاف الخاص بالقلم مستوى الحبر ، وهو اختراع مذهل في خمسينيات القرن الماضي ..

وفي عام ١٩٩١ فتحت فتحة صغيرة في تصميم غطاء القلم لتقليل خطر الاختناق عند استنشاق الغطاء ، أو في حالة ابتلاعه طفل ، وقد صمم هذا الثقب خصيصاً لهؤلاء الذين يفضلون عض غطاء القلم من دون وعي ، إذ يجنبك هذا الثقب الاختناق إذا ابتلاعه بطريق الخطأ حتى تصل إلى قسم الطوارئ أو حتى وصول سيارة الاسعاف .. ورغم ذلك لا تحاول تجربة هذا الأمر أبداً .. يعد قلم بيك التقليدي هو الأعلى مبيعاً في العالم والمنتج الرئيس للشركة وأحد مصادر دخلها الأساسية حتى الآن .. قامت الشركة مؤخراً بإصدار مجموعة من الأقلام النسائية ذات اللون الوردي والارجوانى ، والتي أثارت موجة سخرية لدى المستخدمين الذين تسأعلوا: آنسستي ، هل كنت تستخدمين أقلاماً رجالية طوال العقود الماضية؟ ..

وأخيراً ، وهذه زبدة المقال وما يهمنا من هذا الشرح المطول كله .. قبل فترة ليست بالبعيدة نشرت الشركة صورة للفن الاسطوري بشكله الثابت وكتبت أسفلها: لا تحاول تغيير شيء طالما لا زال يعمل..

الآن ، لنفكر معاً ، كم من شخص غير وظيفته للأسوء ثم ندم لأنه نسي انه كان في الموقف الأفضل .. وكم من شخص طلق زوجته أو تزوج عليها ثم ندم لأنه غفل ان أفضل زوجة وأفضل أم كانت بالقرب منه .. وغيرهم الكثير من سافر ، أو ترك عمله ، أو غير مسكنه ، صديقه ، طريقة تربية ابناءه ، ثقافته ، طباعه وأخلاقه ، عادات مجتمعه .. ثم .. تلهف .. نادماً .. وكم من أبٍ في عالمنا العربي المتفرد بقوانيئه ، استيقظ يوم الجمعة ، تأمل حوله ، وثبت ناحية جهاز يعمل وعزم على تطويره ، حتى أفسده ثم ندم وتمنى العودة بالزمن ، رماه في القمامه وخرج للسوق يبحث ، أملاً ان يجد جهازاً يشبهه..

صديق الصدق ، إذا كان عيشك ورزقك رغد لك وأمان ، يكفيك وعائلتك ، هذا خير والحمد لله ، لكن ، لا تمد ساقك وتنتمي ثم تعفو مبتسمًا وتظن انك بامان من الحوادث المباغطة ، لا تعتقد ان رزقك سوف يستمر على هذا المنوال لوقت طويل ، وأن المنافسين والحسدين بعيدين عنك ،

عليك الاستعداد للشروع والمصائب ، وادخار بعض المال ، والتهيأ لتفادي الخسارة وتدهور المشاريع وانهيار الارباح ، لا تكن كالقط الذي غفل انه يسقط ، تخلى عن الاستعداد ومات .. ولا تحاول تغيير شيء طالما الأمور تمام التمام وانت مستعد لها كل الاستعداد ، وسلسلة حياتك لا تزال تعمل بجد ، واظب واستمر في وضع الاستعداد ولا تخلى عنه إلى وضع الاسترخاء والبحث عن الراحة والتسلية ثم تسقط ولا تشعر ، حتى تجد وضعك المالي ملتصقاً بالأرض ..

نعود للقط المذكور في الجريدة والذي كتبت عنه في بداية هذا المقال ، وبعيداً عن الجانب العلمي وبعيداً عن قوانين السقوط وثرة الفيزياء ، لا أعتقد انه سقط سهواً فقد تبين ان هذا القط من نوع فريد وقام العلماء بإشراكه في الكثير من التجارب العلمية ، والكثير من صوره موجودة في الجرائد والاعلانات وهو يرتدي ازياء مختلفة ،

و قبل سقوطه من حافة الشباك بثلاثة أيام اشتري له مالكه قلادة من الذهب الخالص ، وتم نقش اسم القط بحروف كبيرة على قرص من الذهب أسفل القلادة ، وفوق الاسم وضع حبة صغيرة من الماس تجهيزاً لجلسة التصوير الخاصة به ، حيث كان المصور يبذل جهداً كبيراً ليغير من هيئة القط ، ثم يلقط الصورة المناسبة . . . وبعدها بيوم وعندما كان القط يسقط من الأعلى بعد ان حاول التشبث بمخالبه ، والتي تظهر وقت الحاجة ، وبدأ يخمش حافة البلاط الخشنة ، واصبح الموقف خليط من الصراخ بغضب والمواء والتسلل لكن بلا

أي فائدة لقد هوى القط المسـكـين خائف ومذعور من الأعلى .. لم يستغرق الأمر سـوى جـزـء من الثـانـيـة لـكـل هـذـه الـاحـدـات ، مـيلـان ، تـرـحـلـق ، سـبـعـة أو عـشـرـة أو سـتـة عـشـرـة خـمـسـة ، وـبـيـنـ صـرـخـة وـتـوـسـلـ ، وـأـخـيـرـاً سـقـطـ لـلـأـسـفـلـ ، وـحـدـثـ كـلـ هـذـاـ فـيـ أـقـلـ مـنـ ثـانـيـةـ ، وـلـسـوـءـ حـظـهـ صـادـفـ وـجـودـ ثـلـاثـةـ شـبـانـ يـقـفـونـ اـسـفـلـ الـبـنـيـةـ

.....

.....

.. ؟ ..

أعلم ان هناك تضارب كبير في كتابة المقال ، وكذلك في طريقة شرحـهـ ، أعلم انه مـرـبـكـ وـيـجـعـلـ القـارـئـ فيـ حـيـرـةـ منـ أـمـرـهـ ، إـلاـ انـيـ فيـ الحـقـيـقـةـ تـعـبـتـ ، وـنـفـدـتـ طـاقـتـيـ ، وـلـمـ يـعـدـ لـيـ مـزـاجـ لـكـتابـةـ تـتـمـةـ القـصـةـ ، وـلـاـ اـسـتـطـعـ حـذـفـ المـقـالـ ، وـلـاـ إـعـادـةـ تـرـتـيـبـهـ مـنـ جـدـيدـ

وكذلك .. اعتذر

دعـناـ نـقـلـ الصـفـحةـ وـنـنـسـىـ هـذـاـ الـهـرـجـ وـالـتـشـوـيـشـ وـنـشـرـعـ
بـقـرـاءـةـ مـقـالـ آـخـرـ جـدـيدـ ،

لا داعـيـ لـقـطـبـ جـبـيـنـاـكـ وـاـزـدـرـاءـ مـقـالـيـ وـكـلـمـاتـيـ ، لا داعـيـ
لـلـغـضـبـ ، إـلـىـ الـلـقـاءـ ..

لَنْ يَسْبِقَكَ أَحَدٌ ، إِذَا كُنْتَ تَجْرِي وَحْدَكَ ..

المخلوق ..

سجن قارا .. في المغرب .. هل سمعت عنه ؟ أعتقد ان الجواب هو : لا .. انه اخطر و اغرب سجن عبر التاريخ .. وهو عبارة عن معلمة تاريخية مهمة ومن أشد السجون غموضاً و رعباً في العالم . . . ويوجد هذا السجن المرrib تحت الأرض في مدينة مكناس المغربية ، يقال ان مساحته مجهولة ، وهو السجن الوحيد في العالم بلا ابواب او نوافذ ، ومن يدخله لا يخرج منه أبداً . . . اتخذ المولى اسماعيل في القرن الثامن عشر مدينة مكناس عاصمة للمغرب أثناء فترة حكمه ، وقام بتشييد سجن يمتد تحت باطن الأرض إلى مدى غير معروف .. حيث أمر السلطان بإنشائه لكي يُلقى فيه الأسرى من الجيوش والاجانب الذين يدخلون البلاد معتدين ، أو للتخلص من اعداء السلطان المعارضين للحكم ..

ترجم أغلب المصادر ان أصل تسمية سجن قارا بهذا الاسم إلى رواية تصف المعماري البرتغالي وبأنه كان سجيناً لدى حكومة السلطان المولى إسماعيل ، وأنه اقترح تصميم هذا السجن السري تحت الأرض مقابل حريته ..

ويقال ان مساحة السجن غير معروفة لأن أغلب أقسامه غير مفتوحة للعامة الان ، فهناك من يقول ان مساحته تقدر بعشرات الكيلومترات تحت الأرض وعلى عمق غير محدد ،

وأن أقسامه السرية تمتد على مساحة مكناس بأكملها .. وأن ممراته متشابكة إلى درجة تجعل السجين يموت قبل أن يصل إلى نقطة الخروج .. والشكل الهندسي للسجن مصمم على شكل شبه مستطيل ، مقسم إلى ثلاث قاعات واسعة ، وفي كل قاعة مجموعة من الأقواس والدعامات الضخمة ، وعلى هيئة دهاليز ومتاهات معقدة جداً ، وفي كل قاعة يوجد عدة ممرات ، وكل ممر يقود إلى قاعة أخرى ، ثم ممرات أخرى وقاعات جديدة غيرها ، ثم أخرى وأخرى بحيث إنك إذا توغلت فيها ولو قليلاً أصبح من شبه المستحيل أن تجد طريق الخروج مرة ثانية ، ومن الصعب جداً أن تعود من حيث أتيت ..

ويحتوي على عدة ثقوب في السقف ، حيث يتم رمي السجناء من تلك الثقوب وكذلك الأمر بالنسبة للطعام ، ولهذا يعتبر بمثابة سجن مؤبد لمن يدخله .. هناك رواية تقول أن المولى إسماعيل جعل للسجن مخرج واحد في مكان ما ، والذي يجده فهو حر ، ولكن مع الأسف لا أحد عثر عليه .. هناك من يتساءل ، لماذا لم يتم استكشاف هذا السجن لتنجلى كل أسراره ؟ .. السبب ببساطة هو أنه لا يوجد من لديه الشجاعة لدخوله ، وهناك من يقول أن السجن مسكون بالجن والعفاريت وقرناء الذين ماتوا فيه بأبشع الطرق ، وأنه ملعون بشكل من الأشكال ، لأنه كان مهجوراً في فترات طويلة وهو ما جعل جن الصحراء يسكنه ، بجوار رواح الموتى الذين كان معتقلين بباطنه ..

حاول الكثير من المغامرين استكشافه وكانت النتيجة ان من دخله لم يرجع أبداً . . . وكانت واحدة من هذه المحاولات هي لفريق من المستكشفين الفرنسيين في التسعينات ، عندما قام هذا الفريق بتحضير كل الادوات الازمة والتجهيزات والتكنيات الحديثة لسبر أغوار السجن ، فكانت النتيجة مأساوية ، اذ اخترى الفريق ولا يزال مصيرهم مجهول إلى يومنا هذا . . . وبسبب انتشار اخبار هذه الواقعة قامت الحكومة المغربية بغلق سراديبه ومراته بحائط اسمتي ، وتركت قاعة الدخول الرئيسية فقط متاحة للزيارة كأحد المقاصد السياحية ، ويجذب هذا السجن العديد من السياح الذين يأتون خصيصاً إلى مدينة مكناس لزيارة سجن " قارا " الاسطوري . . . وعلى مدار تاريخه أُقى فيه أكثر من مليونين سجين .. عندما تسمع عن مثل هذه الاماكن الغامضة والسجون تفهم لماذا يُعتبر الإنسان أخطر مخلوق على وجه الأرض ..

هل تعرفت يوماً إلى حيوان اسمه "ابو الحسل" هذا الحيوان هو صغير الضب وولده البكر ، العزيز على قلبه الخشن .. يتغذى على الاوراق والحشائش في الربيع ، اما في فصل الشتاء فإنه يعتمد على الروث الخاص به .. يكبر ليعيش وحيداً ، ويأكل بعض النباتات الشوكية والحشرات ، ولا يشرب الماء إلا نادراً ، حتى انه لا يحتاج إلى ذلك لأنه يستفيد من العصارات داخل النباتات والحشرات ، ويمتص محتواها المائي الموجود داخل خلاياها ..

ترك الكرة الأرضية كلها ليعيش لوحده في حفرة وسط الصحراء ، ويتحمل كل التضaris صيفاً وشتاءً .. ومع ذلك يذهب الناس إليه لاصطياده بعدة طرق . . . أما بإطلاق النار عليه . . . أو ينتظر الناس موسم الامطار حيث تكون الأرض لينة ، فيتم إدخال عود منن لتحديد موقع الضب في الجر ، ثم الحفر واستخراجه . . . أو عمل عقدة خيط وتربيط إلى صخرة ، فيخرج الضب للغذاء أو أخذ حمام شمسي ، حمام هو الأخير في حياته ، فيشنق بهذا الخيط . . . أو يتم اغراق الجر بالماء لإجبار الضب على الخروج واصطياده . . . وهناك خدعة أخرى حيث يضع الصياد حزمة من العشب أمام فتحة الجر ، ليصدر العشب خشخشة تحاكي صوت حركة الافعى ، عندئذ يمد الضب ذيله ليدافع عن نفسه فيمسكه الصياد من ذيله ويسحبه للخارج . . . أو استخدام الحيلة الأشد خبثاً وهي مد خرطوم من أنبوب عادم السيارة وادخاله في جر الضب ، فيخرج الضب مختنق يترنح يمكن الامساك به بسهولة ..

يعيش وحيداً في جر له فتحة واحدة ، ومخرج واحد ، ومع ذلك يذهب الناس إليه لإخراجه من حفرته وقتلها وأكله . . . لا أعتقد ان هناك مجاعة في العالم ونقص في الطعام ، وخاصة في هذه الدول التي يُشتهر وجوده فيها تبرر هذا الفعل الاجرامي ، إلا ان هذا الزاحف المدمع ، الشحاذ الذليل ، يُقتل ويُؤكل للوناسة . . . ان البشر وغير البشر يفعلون الشر بفضيلة ولطف ، ويكتب لهم مأثرة ..

يقال ان أكثر شخص يخاف ان يزعج الفريسة هو الصياد ،
فلا يغرك الاهتمام الزائف ، حتى ان ابليس لما أراد اخراج ابونا آدم
عليه السلام من الجنة قال له :

اني أريد لكم الخير «وَقَاتَلُوهُمَا أَنِي لَكُمَا لَمْنَ النَّاصِحِينَ»
ان أغلب الاشرار في العالم ومع الاسف الشديد لطفاء وظرفاء الصحبة
وقد يمأوا في مصر كانوا إذا أصابهم الجفاف وقلّ منسوب النهر يختارون
فتاة بكر صغيرة ، ويلبسونها الحلي والجواهر ، ويرموها في نهر النيل
ليجري مأوه .. ألم أقل لك ، يُعتبر الإنسان أخطر مخلوق على وجه
الارض ..

عليك الحذر دائماً لأن الإنسان مجبول على الظلم والاذى ،
قال الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان وهو أعلم به «ان الإنسان
كان ظلوماً جهولاً» وعندما أراد الله خلق البشر قالت الملائكة
«أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» كن حذراً ، لأنك مهما
كنت طيب القلب وتقدم الخير ان اخطأ مرّة واحدة ، فإن هذه المرة
ستكون كالحرب الأولى ، لا ينسى ... ولا أعني بكلامي هذا مقاطعة
الناس والتقرّز منهم وهجر العلاقات الاجتماعية ، وإنما الحذر من هذا
المخلوق ... والأهم من كل هذا عليك الحذر من نفسك ، لأنك ستظلم
وانت لا تشعر بذلك ، بل تظن انك على صواب ..

هل تعلم ان الظلم ، وكذلك الغباء ، يمنع صاحبه من الاحساس
بأنه يظلم ويعتدي ، والشريير يظن انه يفعل الصواب ، ودائماً ترى
الشريير يحاكي ويقتفي المسكنة والاعطف ، ويقول عن نفسه انه انسان
طيب وانه يتعرض للظلم وقلة التقدير . . . فاحذر ان تؤذى أحداً بلا
احساس منك ولا شعور بالذنب ، صاحبك يتألم بشدة بسببك وانت لا
تدري ، عائلتك تتألم خوفاً منك وانت تتكلف الحكمة ، وتتصنع جلب
النفع والفائدة لهم ..

ومهما كان طبع البشر مؤذ وضار لغيره ، كل ما عليك فعله
الا تصبح مثلهم ولا منهم ، لأن الظلم والاذى مؤلم لدرجة يعجز اللسان
عن وصفه ، وحتى لو كان الإنسان على درجة من التقوى والعظمة
فإنه يتألم ، حتى ان آدم عليه السلام ، خلقه الله بيديه ونفخ فيه من
روحه ، وهو أول بشر وأبو البشرية كلها ، وعندما قُتل ولده هابيل
حزن عليه حزناً شديداً وقال:

تغيرت البلاد ومن عليها .. فوجه الأرض مغير قبيح

تغير كل ذي لون وطعم .. وقل بشاشة الوجه المليح

قبل ما يقارب من خمسة عشر عاماً ، وفي بداية الشتاء القاتم البارد ، تركت مدینتي وتوجهت لمدينة السليمانية ، لأجل العمل والمال.. ذلك الصباح كان بارداً ، منعشًا ، يُرْغِمُك على النظر من نافذة السيارة المسرعة نحو الشمال البعيد .. وكانت السحب البيضاء القطنية تملأ السماء من كل الاتجاهات ، منذ ثلات ليالٍ ، غيوم بلا أمطار ، يدفعها نسيم الصباح بلطـف ، وهي تعانق بعضها لتمتع قرص الشمس من الظهور .. وعندما تند الشمس اشعتها الذهبية الласعة النحيلة بين الفينة والفينية ، تهديك جرعة رخيصة من الانتعاش ، وبالرغم من حكمة هذه السحب وتكاثرها فقد كان واضحاً انها لا تنذر بالتجمع لإحداث عاصفة مرعدة تعكر صفو رحلتنا في أول يوم لنا ، كانت الغيوم تغير من أشكالها المبهمة وتتفرق ، تستطيل وتستدير كأنها ترقض ، وتغير ألوانها كذلك ..

ثم بدأت السماء الصافية البهية بالظهور من جهة الغرب ، المطر لن يهطل اليوم ، والطقس سيكون أجمل من فرحتي بالحصول على هذا العمل ، في هذا المكان الذهري ، حيث لن تجد ملابسك دبة بسبب رطوبة مدينة البصرة ، ولن يضيق صدرك في بغداد المكتظة ، ولن تمل صحاري مدينة الانبار الطويلة ..

أقلني صاحب المعمل بسيارته إلى أقليم كردستان ، أكثر الأماكن سحرًا في العراق .. شعرت ببرودة تغمر قلبي ، اتنـي محظوظ لنيل هذه الوظيفة في هذه البقعة من العالم ..

في الماضي لم نكن نستطيع الوصول هنا إلا عن طريق السياحة المُكلفة ، وذلك بعد الحصول على تأشيرة الاقامة والموافقات الرسمية ..

عندما تنظر من النافذة ترسم أيامك القادمة ، وتخيل نفسك ممدد كل يوم عدة ساعات على هذا العشب الاخضر ، المائل إلى اللون الاصفر بسبب البرد ، وأوراق الشجر ، والحشرات الزاحفة ، والذباب وفراخ البط تصفق على الطين ، وربما تمكنا من تجربة الصيد احياناً ، أو التعرف إلى المزارعين هناك ..

على طول الطريق ، وعلى اليمين والشمال هناك مزارع الحنطة المتموجة ، وبعض شجيرات لا اعرف نوعها ، وال فلاحين يرتدون السروال العريض ويلفون رؤوسهم بالشمامغ ، والملابس الصوفية ، وبعضهم يرتدي جاكيت بلا أكمام ، والمحاريث والجرار ، وأشجار متفرقة بعيدة . . . وقريباً من كل هذا كانت مجموعة من الخراف السود والبيض تحاول الهرب في كل اتجاه ، وبعض الكلاب تعiedها لمسارها ، والراعي يستخدم الحصى والصياح لبعدها عن مزرعة جاره . . . في شتاء ذلك المكان الرحيب عليك ان ترتدي الصوف الثخين سواء كنت بشراً ام خروفاً ، أما الكلاب تركض عوضاً عن ذلك . . . لم أرى أي شجرة جوز أو بلوط ، يبدو انها تزرع في مكان آخر ..

ثم غصنا داخل مجموعة من الطرق الضيقة بين الجبال الخضراء ، طرق هائجة لكنها لا تنفس الغبار ، ثم الممر البطيء المترعرج بين التلال إلى المعمل ، كانت السيارة تهتز بشدة وهي تشق طريقها فوق الحصى . . . في الطريق ألقى السائق التحية على رفقاء وكانوا يتکئون على الجدار الشمسي بحثاً عن الدهاء ، وهرباً من الهواء البارد المنقى ..

ثم ظهر المعمل من جهة السائق ، في بقعة منخفضة قليلاً عن جانب الطريق ، وفجأة وعلى الرغم من الجو الناصع الدمث ، انتابتني رجفة ، وتمنيت ان اذهب للبيت ، حيث بدت أمام مخيلتي بوضوح صورة قفزت من ذهني ، صورة ولدي بعمر ستة شهور ، يبتسم ، ويناغي ، اشتفت لرقبته الطيرية ، وعطرها الجميل ، اجمل من رائحة التفاح .. كنت أعلم تمام العلم اني أفعل هذا لأجله ..

معلم تكرير النفط ، معمل بعيد ووحيد بين الجبال ، بدائي وبسيط وصغير ومنعزل .. مساحة المعمل هي نفس مساحة ملعب كرة قدم ، في مقدمة المعمل يوجد كرفان يحتوي على أربعة غرف ، ومطبخ فيه أسوء الطباخين وأسوء وصفات الطبخ ، لا أدرى كيف يسمح لهذا الطعام بالدخول إلى المعدة .. وبقية الغرف هي استراحة للعمال وللنوم ، وفي الوسط كانت توجد ساحة كبيرة للناقلات ، وعلى اليمين خصص مكان لمولد الكهرباء ،

أما في الزاوية البعيدة هناك وُضعت ثمانية خزانات ضخمة سعة كل منها مئة الف لتر ، ورصفت على شكل مجموعتين ، لخزن النفط الخام أو خزن المنتج بعد تكريره ، أما على اليسار كانت هناك معدات المعمل والتصفية وتكرير النفط ..

والفكرة الأساسية لتكرير النفط بسيطة وقديمة وبداية ، تُعرف بـ "التقطير" .. حيث يدخل النفط الخام عبر أنبوب إلى الفرن ، وعندما يعمل الفرن يحدث صخباً عالياً كأنه وحش يُشخر كالجحون ، داخل الفرن يوجد وعاء كبير مُحكم يتعرض للنار بدرجة حرارة عالية ويُسخن النفط المار بداخله حتى يبدأ بالتتبخر ، وتتبخر كل مادة بناءً على درجة غليان خاص بها ، فتتبخر المشتقات الخفيفة أو لا مثل "النافتا" التي يُصنع منها البنزين .. ومع استمرار درجات الحرارة بالارتفاع تتبخر المشتقات الاتقل مثل الديزل ، ثم الاتقل ، وهكذا ، حتى لا يتبقى في الفرن إلا الاسفلت ومواد مشابهة مثل الفحم النفطي ..

ومع تبخر كل مشتق حسب درجة غليانه ، يُبرد ويُجمع في خزانات خاصة ، حيث يتم تكثيف هذا البخار بالقطير وعند درجة حرارة معينة لكل منتوج ، ثم يغلق المشغل ومساعده صمامات خاصة وينقل المنتج المتبقى في الفرن إلى خزان آخر ، وهو منتوج ثخين القوام لبقايا النفط الخام من الاسفلت والزفت والفحm النفطي ، ثم الاطفاء والتأكيد من سلامة المعمل والآلات ، وأخذ استراحة بسيطة ، ثم ملء الفرن بالنفط الخام واستئناف العمل من جديد ..

هذا شرح بسيط ومحضر لعملية تكرير النفط الخام واستخراج المنتجات منه .. ثم يعبأ مرة أخرى بالشاحنات ، ناقلات النفط "الصهريج" إلى مكان لا نعرفه .. وكل هذه العملية من التكرير والنقل والتصدير في هذه المعامل البدائية التي تقام بين الجبال ، بعيداً ، خارج المدن ، يقومون بها لخداع منظمات النفط العالمية ، والتحايل على قانون منع تصدير النفط الخام خارج البلد ..

هناك حيث التلال الترابية الحمراء ذات الرائحة العشبية الممزوجة بالطين ، تنتشر فوقها الزهور قصيرة العمر ، بألوانها الفاضحة على مرأى البصر، كل شيء بهيج الطلة ، ويشجعك على التنفس حتى يتورم صدرك .. عندما كنت هناك .. وحيداً .. منزو .. كان صوت الحمام يشعرني بالدفء ، والحنان ، والطفولة ، والبكاء ، وفي الليل تبهرك السماء ، سوداء مرصعة بالنجوم ، وشديدة الصفاء ..

كانت وظيفتي محاسب لمدة شهر واحد ثم أصبحت مدير إداري للمعمل ، وكان عمري قريباً من ثلاثون عاماً .. الطعام وفير ، والراتب كبير ، والعمل مريح ، وسلس ، وذلك لأن مالك المعمل سخي وطلق اليدين ومتناهل .. تعرضنا لبعض الحوادث هناك ، أمست ذكريات خفيفة مهملة .. إحدى الليالي ظهر لنا ذئب جعلنا نترك المكان تعلم والفرن راضخ يزمر ، طافح بالنفط ، واحتربنا في الغرفة وأقفلنا الباب على أنفسنا ، وكان الذئب الغطون يمكنه الامساك بالمقبض وسحب السقاطة وفتح الباب ..

ومرة سمعنا صفير انفجار الغاز الموجود في خزان فارغ ،
جعل العامل يركض حبوأ بيديه ورجليه ، كأنه ضبع كسرت ساقه
الخلفية . . . وكانت قد تعلمت قيادة السيارة في الطرق الخالية الزلقة ،
شاحنة عجوز متعبة لكنها نشطة ، وكأنها صبي من الريف يركض
حافياً .. وفي كل مرة يجذب انتباهي شيء غريب في ذلك الوقت ،
والآن ، وفي كل مكان وزمان ! .. عندما يصعد العمال للسيارة بعد
انهاء العمل ، لا أدرى ما السبب الذي يجعل كل عامل يوصد الباب
بقوة ! .. هل هو برهان على انجاز العمل بنجاح باهر ؟ أو ربما إقرار
على انه يشعر بالتعب والنشوة ..

وأذكر .. أيضاً .. عندما احترقت ساقية الماء المغطاة بالخام ،
ساقية بطول خمسة أمتار وعرض أقل من متر ، تجتمع بها مياه
التنظيف وفضلات المعمل ، وكانت تطفو على سطحها بعض المواد
النفطية ، احترقت قرب الخزانات ، لم نكن نملك سوى ثلاثة
اسطوانات اطفاء الحريق صغيرة الحجم ، امسك كل شخص بواحدة ،
وبدأ يصوب تجاه النار ، أما البقية كانوا يصرخون ويركضون في كل
اتجاه ، قريب من النار ، يسبحون مجموعة من النمل عندما تسحب
قطعة الحلوى من بينهم ، الكل يصرخ وهو يعطي الاوامر
والارشادات ، بلا أي فائدة .. أحد العمال جاء يركض حاملاً اسطوانة
مطفأة الحريق وسحب صمام الامان ووجه الخرطوم نحو اللهب ، مع
صرخة وكأنه يريد ان يخيف اللهب الغاضب ، ضغط على المقبض
ولم تخرج منها أي مادة ، حاول عدة مرات ولم يحدث شيء ،

عندما قام بحملها ورميها وسط الساقية والنار ، صرخت به مستغرباً: ماذا تفعل ؟ قال لي: عندما تنفجر سوف تنشر المسحوق الذي يدخلها وتحمد النار .. قال هذه الكلمات بحزم ، وصراخ بالتأكيد، نظرت إليه فاغرأ فمي ، الاحمق ، إذا انفجرت سوف تنشر الوقود المشتعل في الارجاء ، وعلى الجميع . . . ناديت جميع العمال ليبتعدوا على ان نستأنف اخماد النار بعد انفجار المطفأة .. انفجرت بعد دقيقتين وعذنا لمحاولة اطفاءها ، لكننا ، وللأسف ، اصابنا اليأس وسط كل هذا الصخب لذلك انسحبنا ، وتركنا النار تتاجج حرّة ..

جاء بعد ذلك رجال الاطفاء الهاهدين واصمدوها على مهل ، لم تكن تستوجب الحذر حتى .. والكثير جداً من الذكريات .. عندما هجم سرب جراد كثيف كسحابة يغطي الافق ، ويفرش الأرض ، ويلوي الزرع .. يذكرني بتكتسه المعرف قول أحد الشعراء:

ثلاثة من طبعها الفساد ، الفأر والبربر والجراد ..

وعندما وجدت عقرب صفراء في سريري ، وابنتها تخبي في ملابسي .. الكثير من الذكريات ، لا أعتقد انها تعني لك شيئاً ، لكنها تجوب رأسي على الدوام ، لم ألتقط بأحد العمال يوماً لذكر هذه القصص بتباه واحتياط ، كما يفعل الجنود القدامى مع أولادهم المُجبرين ..

عندما حل الصيف تبين ان هناك نقص ، اختفت عشرات الملايين من الدنانير خلال الجرد الشهري ، ولا دليل على وجود سارق أو سبب لهذه الخسارة ، تم سرقة متوسط بما يعادل مبلغ خمسين مليون دينار . . . عندها قام صاحب المعمل بمساعدة كمية النفط الخام ، خطوة جريئة منه لتعويض الخسارة .. لكن .. حدث العكس وتضاعفت الخسارة إلى مئة مليون .. كنت المتهم الأول بسرقة الأموال ، وكذلك مشغل المعمل ومساعده .. لطالما كنت أعتقد ان فكرة العمل في غابات الشمال الجبلية هي فكرة رومانسية ، حتى أدركت مسؤوليتها عند الذهاب والتوجل هناك ..

استدعاني مالك الشركة لغرفته الملاصقة لغرفتي ، نهضت وتفحصت نفسي بقلق في مرآة نظيفة ، رخيصة ، معلقة على الجدار.. كان الجو حار وعصبي ، والشمس شديدة الحرارة ، ان قضاء دقائق زهيدة تحتها حتى تظهر على وجهك كل ملامح الفقر والبؤس ، انتظرت قليلاً ، مطأطاً الرأس ، ارافق اخاديد الصلصال الجافة . . . ثم دفعت الباب الصدئ ودلفت للداخل ، كان الرجل يسند رأسه للخلف وقد اغلق عينيه ، وكان يسترخي حائراً ، لم يشعر بوجودي رغم صرير الباب الحاد ، صرير يؤلم الاسنان ، القبيت التحية بهدوء محاولاً ان أبدو أكثر تماسكاً ..

لم تكن الغرفة مكتب فخم يليق بمدير شركة نفط ، رغم صغر هذه الشركة ، لا يوجد مكتب على غرار المدراء ، ليس هنالك كرسي دوار مصنوع من الجلد ، لا توجد لوحات على الجدران ، لا أوانى من الفخار لنباتات الظل ، لا مكتبة أو قرطاسية ، ولا حتى طبلة صغيرة لوضع قدح الشاي ..

كانت الغرفة للاستراحة فقط ، تحتوي سرير معدني مقعر للأسفل ، كأنه يريد ان يُقبل الأرض ، مخصص للنوم والجلوس ، وتفوح منه رائحة العطن ، وكرسي بلاستك مليء بالخدوش وكأنه معد للقطط لتاح عليه اظافرها ، وعطر البطانية المختمر ، والفراش العتيق .. تشبه إلى حد بعيد غرفة حارس كهل ، اعزب ، في مخزن قديم للأدوات ، خارج المدينة ..

كان المدير رجل عجوز وسميين ، ونظيف ، وكذلك انيق ، يضع عطرًا غالياً ، يلبس قميص ابيض وسترة جميلة بلون الحبر ، لا أظن انك سوف تجد صعوبة في تخيل كيف يجلس مدير سمين وسترته ، يحقق مع أحد موظفيه حول سرقة ... جلس أمامي برأسه الكبير المستدير ، وبدأ يسألني عن كمية النفط المفقود وهل من جديد حول الموضوع ، بدأ يشرح لي عن كمية المال الضائع وأنه يبحث عن أي خيط يوصلنا لسبب من أسباب الخسارة الشنيعة ،

كان يستجوبني بطريقة غير مباشرة ، يتمتم ويهرش رأسه ثم يسرح قليلاً ويعود لسؤالي مرة أخرى ، كان يسأل واجبهه ويكمم مردفاً اممم .. هم .. ام .. ها .. امم .. لم تكن نظرته وصوته هي نفسها من الرجل الطيب الذي عهدها من قبل ، كانت أكثر ميلاً لإعطاء أوامر صادرة من شخص في موقع السلطة ..

بعد أن أنهى ما في جعبته من الأسئلة ، جلسنا صامتين وكل منا متثير في أمر الآخر ، بدأ ينظر تجاهي بحماس ، متصلباً ، ينتظر أن ترمش عيني للتأكد من اني هو المجرم الخائن للأمانة ، يحاول أخافتي بتلك العيون ذات اللون الأخضر الفاتح ، يتوسطها خرز صغير لونه بنى داكن ، يشبه بذرة داخل نصف حبة عنب خضراء ، يعصر عينيه بقوة محاولاً أخافتي ، وأنا انظر إليه بنفس الطريقة ، لأنني أعرف ما يريد من هذه المحاولة الساذجة ، ركزنا في عيون بعضنا كغبي وأغبي ، كما يتحدى الأطفال بعضهم ، لمدة ثانية واحدة ، اثنان، ثلاثة ، اربع ثوان ، تسعة ، عشرة ، خمسة عشر ، ستة عشر إياك ان تطرف او تبدو خائفاً ، بقينا على هذه الحالة الحذرة المضحكة لما يقارب من عشرون ثانية ، مجرد تصور ان شخصاً ينظر إليك على نحو غريب ، هو أمر مزعج جداً ..

هذا الرجل أخافني حقاً، لم يكن السبب عيونه الذابلة أو نظرته التي اجهدته لينتفها ،

لكن ما اخافني هو حكمه الذي أراد ان يصدره ضدي بدليل واهن ، دليل رمشة عين المتهم ، و معناها انه كاذب خائف لم يستطع كتم جرمته أكثر . . . يؤكد خبراء لغة الجسد ان التواصل بالعين اثناء الحديث دليل على صدق المتكلم ، أما إذا تحدثت لشخص يكذب فإنه لن يستطيع النظر لعينيك أبداً أثناء الحديث ، وفي بعض الأحيان يتلفت ليراقب الأشياء من حوله ..

يبدو انه قرأ هذا المقال سابقاً ، وأعجبه .. بعد هذه المحاولة اليائسة نظر مهزوماً إلى الاتجاه الآخر وسرح تائهاً يفكر ، انا متأند انه قال في سريرته: يبدو ان هذا الابله بريء حقاً .. هز رأسه بطريقة جميلة ، مؤلمة ، ثم ، ابتسامة فاترة ..

خيم الصمت بضع دقائق فيما عدا دقات قلبي وال الساعة المعلقة على الحائط الحزين الرطب ، ساعة مكسورة الزجاج . . . لم أكن أعتقد ان الاستجواب كان من الممكن ان يسير بشكل أفضل ، ان استحالة ان اسرق من هذا العجوز كاستحالة رؤية نهر او بحر بلون ازرق في الحقيقة . . . ابتسمت خفية ، متشفياً ، منتصراً ، ثم شرعت بالخروج ، كلانا شعر بالحزن ، هو لم يجد ضالته ، وانا حزنت لموقعي ، لص . . . بعد فترة من الزمن تبين ان الخسارة سببها تبخر كميات كبيرة من المنتوج خلال فصل الصيف ، وذلك لأن المعمل بدايي لا يحتوي أجهزة أو معدات حديثة تحول دون ضياع المنتوج في الهواء .. هواء الشمال ، البريء من الغبار ..

أشرقت الشمس بهدوء لتضيء جميع طرق المزارع الضيقة
حولنا بنور صاف مفرح ، كل شيء هناك جميل ما عدا اني مكتظ
البال ، الحشائش والورود الملونة المبتلة ، والأرض الطينية ، وبعيداً
ذلك التل المرتفع ، كنت امشي عليه في الربيع الفاتح حين اشتاق
لطفلي ، وحشائش قصيرة تملأ وسط الطرقات ، وفضلات الخراف
المكوره ، مبعثرة في كل المكان ..

مرّ قطبيع من البقر بخوارها وثغائهما ، وآثار خطوات البقر
على فضلاتها تشبه ختم قديم ، والهدوء ، هدوء قاتل مريح ، يبعث فيك
اهتياج للتفكير بكل شيء ، بلا هواة ... هناك على مسافة ليست
بالبعيدة أستطيع رؤية فلاح ينظر نحوي بانزعاج ، لأن بعض نفایات
النفط تسربت إلى داخل ارضه ، لقد كنت حقاً أظن ان العمل سيكون
أشبه ببرحالة مجانية إلى جبال الشمال ... امضيت ستة أشهر بحلوها
ومُرّها ، ثم استقلت من العمل وعدت للبيت ..

لقد كنت محظوظاً هناك محظوظ و Maher ، وجيد في عملي ،
ولا بد من الحظ للنجاح ، لأن اتقان العمل والاخلاص ليس كافياً ..

ثم تكرر نفس الموقف مرة أخرى ، الحكم عليك بدليل سيء واهن .. انتقلت بعد فترة ليست بالقليلة للسكن في بغداد ، وبعدها بعامين تقريباً طرق الباب رجل غريب وعرّفني بنفسه ، انه رجل الاستخبارات في مركز الشرطة القريب من بيتي ، وانه يجب عليّ الحضور لملء استماره معلومات ، ذهبت للمركز ودخلت على غرفة ضابط الاستخبارات ، كان رجلاً في الأربعين ، بنيته اقرب إلى مقاتل عسكري ، يبدو عليه مظهر رجل الجيش الحقيقي ، اسمر ، طويل ، شعره اسود مصفف بعناية .. سأله وهو يثبت عينيه في عيني بتعاظم:

- هل تسكن بالإيجار ؟ ..
- كلا ، هذا البيت ملكي ، لدى سند يثبت هذا ..

أردف سريعاً وقد عزم ان يكون سؤاله واضحاً على الفور

- منذ متى وانت تؤجر هذا المنزل ؟ ..
- سيدتي ، ان المنزل ملكي ولدي ما يثبت هذا ..

عبث بأصابعه في شاربه مفكراً .. ثم .. آآآآاه .. نعم .. هذه النظرة التي أعرفها .. ها قد بدأنا .. ها قد بدأ العد التنازلي .. إما ان تثبت ، او للسجن والتحقيق والتعذيب ... استمر الحال هذه المرة لأكثر من خمس وعشرون ثانية ، نحدق في عيون بعضنا .. يسأل وأجيبه ثم يصوب نظره تجاهي .. ثلث جولات متتالية .. كنت خائفاً أكثر هذه المرة ، وتأهله ، ومحير .. لا أدرى ماذا علي ان أفعل ، هل استرسل وافرط في النظر ، أم التفت لجهة أخرى ؟ ..

انه ضابط استخبارات ، وهذا يعني ان هناك احتمالين للنتيجة ..
الاحتمال الأول ، انه سوف يعتبرها نظرة تحدي ، قلة أدب ، جلسة
تأديب . . . الاحتمال الثاني ، سوف يعتبرها هرب من الحقيقة ، كاذب
 مجرم . . .

كنت خائف ، ومرعوب ، ومهزوم ، وخائرك القوى والمدد . . . في
طريق العودة من مركز الشرطة للبيت ، أخبرني ولدي الصغير انه
كان يمتلى ذعراً عندما كان يجلس بجانبي على الكرسي في غرفة
الضابط ، وكنا انا وضابط الاستخبارات نحدق في عيون بعضنا . . .
وقال لي: لقد كنت ارتجم بقوة ، وكاد قلبي ان يقف من شدة الخوف ،
وانه كان يظن ان الشرطي سيأخذني للسجن ، كان يذكر هذا الموقف
لسنين تمرا ..

حقاً ، بلـ ، وفعلاً ، ان الإنسان ، أخطر مخلوق . . . تخيل انه بسبب
رفة عين او التفاتة بسيطة ، كان من المرجح ان اعتبر سارق للنفط ،
ومباشرة لمديرية مكافحة الاجرام ، للتأكد ان كنت اللص أم لا ..

وبسبب رفة عين أخرى كان من الممكن ان أدخل السجن وأُعلق من
اليد اليمنى والساقي اليمنى ، وأُضرب ليل نهار في مركز الشرطة ،
حتى أُقير على جرم لم ارتكبه ، ولم اسمع عنه ..

الشر ، قليله كثير ..

.. حَمْرَةَ قَلْبِيْهِ مَنْهِلًا

لا أمان ..

في أروع وأفخم مبنى ، وفي أبهى معلم من معالمها ، في قلب المدينة التي خنقتها الاحجار العالية ، وفي زمن كانت فيه الشمس تسطع بوهج على قصور شاهقة ، وأسواق تتع بالضجيج ، في مدينة البرتغال ، حيث يقف بزهون هناك ، القصر الانيق ، الرشيق ، طويل القامة ، كأنه رمز أمان للناس من حوله .. وداخل هذا القصر عاش ملك مع عائلته ، وكان هذا الملك حكيمًا سياسياً داهية ، لكنه سفاكاً للدماء .. غرز الكثير من أعمدة الخشب عند مدخل قصره ، وزينها برؤوس الكبار والملوك من أعدائه المهزومين ..

وعندما أراد أحد ابنائه اغتياله أمسك به وضرب عنقه ، ومن جبروته وعنته انه أخذ يوماً مالاً من أعمى ، فارتحل الأعمى وعاش بمكة ، فبلغه ان ذلك الأعمى يدعو عليه ويشتكى إلى الله ، فأرسل إليه أحد جنوده وأعطاه حفنة من الدنانير مطلية بالسم ، فسار الرجل إلى مكة وأعطاه الذهب ، فقال الأعمى: يظلمني في مملكته ويكرمني هنا ؟ ثم وضع ديناراً في فمه ليتحقق منه كعادة الاصطراء ، فمات في اليوم التالي .. وهرب مؤذن من مدینته بعد ان عانى الظلم فأرسل من يأتيه برأسه ..

وقد شرب الخمر ليلة حتى أخذه السكر وذهب عقله ، ثم خرج في الليل ومعه غلام ، وسار مخموراً ، حتى وصل إلى قبيلة البرزال ، وكان بينهما حروب طويلة ، ووجد جماعة يشربون الخمر أيضاً ، فسلم واستأنف منهم وجلس بينهم ، فزاد تعجبهم ، وأكل من طعامهم وشرب حتى زاد من سكره أكثر ، وبدأ يترنح ثم سقط ، لكنه تجلد وقال: أريد أن انام .. ففرشوا له ، فتناولوا .. فقال بعضهم: هذا كبس سمين جاءكم برجله ، وفرصة عظيمة ، والله لو انفقت أموال الاندلس كلها ما قدرتم على تحصيله .. فقال أحدهم: كلا ، رجل قصدنا ، ونزل بنا مستأمناً ، لا تتحدث عنا القبائل انا قتلنا ضيفنا .. ثم انتبه وقام ، فقبلوا رأسه .. فقال لهم: أين نحن ؟ .. قالوا : بين أهلك وإخوانك .. قال: تعالوا اكتب لكم ، فكتب لكل منهم هدايا وأموال وفرس وخدم ، وأخذ معه غلمانهم ليقبضوا ذلك ، وركب ، فمشوا في خدمته ..

لكنه أساء لهم كل الاعباء ، فقد أرسل في طلبهم بعد أشهر يدعوهم لوليمة ، فأتاه ستون منهم ، فأكرمهم وأدخلهم حماماً ليستجموا ، ثم أغلقه عليهم وختمه بالطين ..

وفي يوم من الأيام جاءته هدايا ومن بينها ثوب فاخر ، أهداه له أحد الملوك ، إلا ان الثوب كان مسحوماً فمات من أثر ذلك السم ، وانتهى عهده وحكمه وظلمه .. ولكن قبل ذلك بثلاث عقود تقريباً ولد للعائلة الحاكمة فنِي نشا في بيئة ارستقراطية بين العلماء والادباء ،

أراد والده الملك ان يربيه تربية خاصة بأبناء الملوك ، تربية الثراء والامارة والقيادة ، فمنذ بلغ الثانية عشر من عمره ، ومن أول ما بدأت عضلاته تتوتر وصوته يزداد خشونة وغمامة ، عينه أميراً على إحدى الولايات ، ثم بعد ذلك بفترة يسيرة جعله قائداً على كتيبة من المقاتلين وأرسله لغزو مدينة وحصارها والاستيلاء عليها ، ثم عينه قائداً للجيوش كلها ، وكلفه بالكثير من المهام الصعبة وهو دون الخامسة عشر من عمره ، وخلال هذه الحروب والغزوات التي شاركها تعرف على رجل وأصبح من الاصدقاء المقربين لديه ..

نمت صداقتها وازداد قربهما وتآلفت قلوبهما حتى أصبح هذا الرجل من أعز أصدقاءه ، ثم عينه وزيراً له ، وكان يشاركه في السياسة والحكم ، والسفر ، والشعر والكتابة والفنون ، حتى انه في إحدى الليالي أرسل الامير الشاب إلى صديقه وأكرمه أكثر من المعتاد، وعندما حان وقت النوم قال له: لتضعن رأسك معي على وسادة واحدة، وفي تلك الليلة انتاب الوزير الخوف والفزع الكبير وظن ان صاحبه الامير سوف يقتله ، لذا انسى بصمت من الفراش ، ولف نفسه بقمائش واختفى في دهاليز القصر ، ناوياً الهرب في صباح اليوم التالي وعبر البحر خوفاً من القتل . . . وفي الصباح افتقده الامير وبحث عنه بنفسه وأمر جميع رجال القصر بالتفتيش عنه حتى وجده ، فسألته مستغرباً: أين كنت وما الذي حملك على هذا ، قال: خشيت ان تقتلني .. فضحك الامير وقال: كيف اقتلك ، أرأيت أحداً يقتل نفسه ، ان انت عندي إلا كنفسي ..

وفي يوم وبينما هو يسير مع صاحبه ، وهو يشاطره الفنون والشعر قال بيتاً من الشعر ينتظر من صاحبه ان يكمله ، تلعم صاحبه وظل يبحث بين الكلمات ، لكن صوتاً ناعماً قريباً منها أجابه بما يناسب البيت الشعري ، فلما استدار ناحية الصوت فإذا هي فتاة من أجمل ما رأى ، تغسل الملابس على ضفاف النهر .. فسأل عنها ثم ذلَّ على أهلها فخطبها لنفسه ، وكانت بعد ذلك من أعز نسائه إليه ، ولا غرابة ان تقع الفتاة بحب الامير ، ولكن العجب انه أحبها أكثر ، وكان أشد تعلقاً بها ، فاكرمها وأحبها ولم يرفض لها طلباً ، لما أعجب بها من فصاحتها وحكمتها ، وجمالها وانوثتها ، وتألقها بالشعر والمطالعة.. وكان يغدق الكثير من الأموال لرضاها وتلبية طلباتها ..

ومن أغرب القصص في اسرافه لإرضائهما ، انها كانت تنظر يوماً من شرفة القصر إلى فتيات صغار يلعبن بالطين ، فاشتهرت اللعب معهن ، وتشوّقت إلى أيام طفولتها يوم كانت تلعب مثلهن ، فما كان من الامير الشاب إلا ان أحضر كميات هائلة من الرمال والتراب وماء الورد ، وأفضل العطور ، ثم أمر بإحضار العنبر والمسك والكافور ، ثم عُجن ذلك كله وحُلّط جمِيعاً حتى صار طيناً ، ليفرشه الخدم أمام القصر ، وتلعب به زوجته وتسرير عليه مع صديقاتها وخداماتها .. ويحكى انها غضبت يوماً منه ، فقالت: ما رأيت منك خيراً قط .. فقال لها: ولا يوم الطين؟ .. فاستحيت وسكتت ..

ومع مرور الوقت تسببت هذه الزوجة وصديقه الوزير إلى وقوع الأمير الشاب في الاسراف والتنعم ، وانغمس بالكثير من اللهو والترف ، مما اضطر والده الملك الحاكم إلى طرد صديقه من البلاد ونفيه بعيداً .. فبقي الامير وحيداً حتى توفي والده مسموماً .. وأصبح بعده ملكاً للبلاد ، لكنه يختلف كثيراً عن أبيه ، مخالفًا له في الصرامة والعنف ، ميالاً إلى التسامح والتساهل ، شاب فتى ، فارس شجاع ، وأميرًا ذا هيبة باهرة ، مولع بالشعر والأدب والمسامرة ، وكان أول ما فعله ان استدعي صديقه وعيّنه كبير وزرائه ، وبقي معه يستعين به ويستشيره ..

وعندما بدأت بلاده بالتساقط قرية بعد أخرى بيد اعدائه ، وجاءه يوم أدرك فيه ان دولته لن تصمد طويلاً ، قرر ان يطلب المساعدة ، فعقد الملك وزراءه اجتماعاً واستخلصوا انه لا بد من طلب العون من جيوش صديقة ، وهكذا قامت الجيوش بمساعدته حتى انتصر على اعدائه ، وألحق بهم أشد الخسائر والهزيمة .. ولكن النصر كان مُرّاً ، ولم يكن يدرى ان استدعاء هذه الجيوش سيكون بداية نهايته ..

و قبل هذا بمدة كان ولده قد حذر من طلب العون وقال له: ان قائد هذه الجيوش بعد ان يساعدنا سوف يخرب بلادنا ، ويبعد شملنا ، ويطالب بالملك ... وهذا ما حدث بالضبط فبعد ذلك وعندما زار قائد الجيوش دولته قال لوزرائه وللقيادة الذين حضروا معه:

كنت أظن اني ملكت شيئاً ، فلما رأيت هذه البلاد صغرت في عيني مملكتي .. وطبع بالاستيلاء عليها ، فقالوا له: أرسل بعض جنودك بحجة انهم يسكنون مع الملك في بلاده حتى ينصروه ويعينوه في حال تعرضه للعدوان . . . وافق الملك الشاب وتقبل الأمر بحسن نية . . . ثم بدأ هؤلاء الحلفاء يتحولون إلى خصوم ، وقررروا السيطرة على الممالك شيئاً فشيئاً ، ثم قام هؤلاء الجنود بالانقلاب وانتزاع المدن من أمرائها واحدة تلو الأخرى ، وقتلوا أمراء هذه المدن ومن بينهم اثنان من ابناء الملك ، ولم يتبقى له إلا مدینته التي يتحصن بها ..

لقد اقترف خطئاً جسيماً ، ولكن ، لا أحد يملك الفرصة لاختيار أخطائه ، وأخيراً حوصلت مدینته من قبل جيشان عظيمان ، واحد من جهة الغرب وجيش آخر من جهة الشرق ، وبينما هو على هذا الحال حصلت انتفاضة قوية في داخل مدینته .. أخبره بعض حاشيته ووزرائه ان يقضي على هذه الانتفاضة بقوة ولكنه أبى ذلك ، حيث كان محبًا لمدینته وأهلها ..

لقد تحرك شيء ما عميقاً داخل احشائه ، شعور غريب وجديد عليه ، يخبره ان خصمته هذه المرة ليس بالخصم السهل . . . ثم نجح بعض الثوار في فتح ثغرة لجيوش خارج المدينة ، واقتحم من خلالها بعض الجنود ، الخونة . . . ان المصائب لا تأتي فرادى ، ولم يكن التسلل بالشيء البسيط لأعدائه ولم يكن التسلل هدية بلا ثمن ،

وثب الملك من قصره بلا درع ولا قناع ، وقفز نحو أول متسلل من الجدار وسدد إليه رمحاً فقتله في الحال .. ثم خرج الرجال والأولاد حاملين سيوفهم وعصيهم ، متعلين وحافين الأقدام ، يقفون في مهب الجيوش ، والغبار يعلو وجوههم وانوفهم ، يتعرضون للضرب والقتل لكنهم لا يتراجعون ولا يفرون . . . الغاية العظمى والهدف الوحيد الآن هو المواجهة وإغلاق ثغرة الخونية ، وتمني النصر ..

ولا أحد يعتقد أو يصدق إن إزالة الملك هي النية الحقيقية وراء هذه الجيوش ، وحتى لو تنازل الملك وأعلن الخضوع والرضوخ .. فلا أحد يدري إلى أين سيصير مآل الأمور وحياة الابرياء ، لا أحد يثق بمبول الغزارة ، ولا حدود لجشعهم . . . كان دوي المعركة فوق الرؤوس ، وصليل السيوف ودق الفؤوس ، يُبكي النساء والأطفال ، والاغنام والحمير ، والحجر والشجر . . . اشتباك المهاجمون والمواطنون في معركة ضارية قُتل فيها الكثير من كلا الطرفين ، قاتل الملك وقاتل معه شعبه ، تقدم الملك الصفوف واستبسّل وضحي ، لقد كان قوياً كالدب وشرساً كالفهد ، ويهجم كخنزير ، ويضرب كنمر ، ومخيف كالذئب ، ويحزن كلبوبة ، ويتأمل كالصقر ، كدب يُخفي مخالبه عن جراءه ويقتل بها أعدائه ..

لكن الجيوش كثيرة والخيانة كبيرة ،

وبعد قتال عنيف تم الاستيلاء على المدينة ، فنهبوا قصورها وخرابوا بناها ، وقتلوا أربعة من ابنائه ، وذبحوا العديد من فرسانه خلال هذه المعركة . . . وفي أثناء ذلك وقع الخطب العظيم ، ودوى صوت صارخ في السوق ، وتبعه صوت ثانٍ أشد عنفاً قريباً من القصر ، وثالث في أزقة المدينة ، صرخات تمزج الغضب بالحزن والضعف واليأس .. عندها أيقن الجميع بانتهاء الحرب وانقضت معها أيام الحرية والهباء ، لقد وقعت دولته في المصيدة ولا مناص منها ..

كأنها افعى وذيلها في يد عجوز يحمل حجراً ، كأنها ثعلب حاصرته الكلاب ، أو كخروف يُجرُّ من ساقيه ، أو فار أغلقت عليه خزانة الملابس ، انه الخوف والرعب واليأس ، وفقدان الحلول والهيل . . . وفي ليلة من ليالي الخريف أُسر الملك الجريح هو وعائلته وأخذت معه زوجته وبناته ومن بقي من أولاده إلى منفى بعيد ، إلى مدينة صغيرة تدعى "أغمات" ، للتغيير حياته إلى الأبد ، حيث أمر قائد الجيش الجديد بنفيهم هناك ، ليقضى آخر ما بقي من حياته في السجون بظروف مزرية ومعاملة سيئة ..

كانت لحظة كئيبة على شعبه الطيب الذي أحبهم وأحبوه ، وخرج الناس لتوديعهم محتشدين على ضفتي النهر ، وقد ملا الدمع أعينهم ..

عاني خلال الأسر من المرض والكرب والضيق والعسر ،
ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وجلده يتردّد بين النكبات والعثرات ،
ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، عندما رأى ابناءه يرتدون ثياباً
ممزقة ..

هل كان ما مضى كله حلم ؟ هل ستوقفه زوجته ؟ أم يستيقظ
على ضحكات بناته ؟ الإجابة بسيطة وواضحة للأسف ولا تحتمل
خياراً آخر ، لقد عرف أن حياته و نهايته ستكون بين هذه الجدران
الاربعة ..

وكان يُسمح لبناته ان يأتين لزيارته في الاعياد ، وكن يعملن
في الاسواق ويغزلن للناس بالأجرة ، فرآهن في أطمار رثة ، يمشين
بخطي مرتجفة متثبات ببعضهن ، في ثيابهن الممزقة ، ويغزلن
للناس ويستعنن بذلك على حاجاتهن الخاصة ، وقد تلطخن بالطين ،
وكنّ فيما مضى إذا اشتہن وطء الأرض فرش لهنّ المسك والكافور
حتى لا يصيب شيء من الأرض أجسادهن الغالية ، ثم افتقرت زوجته
المدللة والتي كانت أحب نسائه إليه واضطررت للعمل لتكتفي وزوجها
 حاجتهما من الطعام والشراب ..

فتصدق قلبه لما رأى حال زوجته وبناته وقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسورة

فسائك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الاطمار جائعةً

يغزلن للناس ما يملكون قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً

أبصار هن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والاقدام حافيةً

كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا ..

ثم زاد به الأمر حتى افقر هو وأولاده أشد الفقر ، وكابد معهم
الأسى والجزع والأسر ، وتعلموا الصنائع والعمل المجهد ، وذاق المُرّ
بعد المُرّ ، فلا معين له ولا ضمان ، ولا أمان من تقلبات الزمان ..

هذا الرجل هو "أبو القاسم المعتمد على الله" ، أما زوجته والتي كانت أحب الناس إليه ، واشتق اسمه من حروف اسمها .. حيث يقال ان اسمه الحقيقي هو "المؤيد" واستبدلته "المعتمد" تيمناً بزوجته "اعتماد الرميكة" .. لم تستطع هذه الزوجة تحمل الآلام والحسرات ، والعمل والذل والفقر والحرمان ..

فلم تبقى طويلاً حتى توفيت ودفنت قريباً من سجنه .. ثم فارق الحياة ولحق بها مكلاً بأغلاله ، ودفن بجانب زوجته ..

لا تفتح على نفسك باباً ،
يصعب عليك اغلاقه ..

„ ﻭ ﻻ ﻣُؤْمِنٌ ﻓِي ﻣُؤْمِنٍ ”

، ﻭ ﻻ ﻣُؤْمِنٌ ﻓِي ﻣُؤْمِنٍ ”

الروح والقضاء ..

في صغرى اشتريت حذاء تزلج ، ظريف ، فرحت به . . .
كنت فتى أضاع ثلثين عمره ونصف الثلث البالى شارد البال بين أحلام
البيقة ، لأن الأحلام هي كل ما أملك ، ثم انها مجانية ، بواسطة هذه
الأحلام استطاع ان اقلب الطريق إلى متاهة في لب الأرض حيث
الكنوز والجنان والاخطر .. وبالخيال أبدل مكان عملي إلى ساحة قتال
في جزيرة خضراء نائية .. هذه الأحلام تجعلني امشي عدة كيلومترات
بلا وعي ، سارحاً مع المخلوقات الجميلة القاتلة .. لماذا افعل هذا ؟
هرباً من التعب ، الألم ، القيظ ، الصقيع ، الجوع ..

لا شيء انتظر حدوثه اليوم أو غداً ، أو في المستقبل البعيد ..
حين تولد كفرد من ابناء الطبقة الكادحة ، تطحنك ظروف الحياة
وترفسك رفساً ، لن تفكّر لماذا تفعل ما تفعله كل يوم ، وماذا يخبئ لك
الغد ، أما التفكير بالمستقبل والنجاح والطموح ، هو الحلم الذي لا
تنتظره .. ما يمنعك هو انك بلا روح حقيقة تشبه باقي البشر ، لأن
روحك سُحقت تحت العمل اليومي المُنهك والمعسير ..

لقد ضاع العمر كما تضيع صنائع المعروف مع اهل الازواج،
كنت فتى مزدحم الافكار ، مشوش البال .. تجذبني مغامرات الهواة
والعبث ، كان عمري اثنتا عشرة عاماً حينها ، اعمل في السوق مع
اخوتي الكبار ..

صبي اسمر قليلاً .. بوجه حنطي اللون ، وأعتقد ان مفردة ترابي أقرب للوصف ، وشعربني قاتم أشعث ، ثائر الخصلات ، كل خصلة تميل في الاتجاه الذي ترثاح إليه ..

اشترىت يوماً حذاء قديم اسود ذو أربع عجلات ، مستخدم ، لكنه نظيف نوعاً ما ، يشبه سيارة الابطال في أفلام الأكشن القديمة ، يبدو أكبر من مقاس قدمي بثلاثة ارقام . . . تدفعه بواسطة انفه ، وهي اسطوانة من البلاستيك في مقدمته ، ترفع مؤخرة القدم وتلصق انفه بالأرض وتدفعه للخلف فيتحرك ، كما يفعل المجنزاف مع القارب ، تدفعه ويتزحلق للأمام . . . عييه الوحيد انه صامت لا يسمع .. ولا يتكلم .. لكنني كنت أحدهم ..

اشترىته صباحاً .. كفتى صغير ، احببته حد الهيام ، وكنت اراقبه كل نصف ساعة ، اخرجه من الكيس واطمأن عليه وأعيده .. كزوجة تخبي مولودها الجديد وهي عائدة من المستشفى ، وتسترق إليه النظر بجني وحبور .. انتظرت المساء ، انتظرت بصبر ليحل الظلام كي أعود للبيت وأجربه قبالة منزلنا الذي لا نملكه . . . تناولت طعامي على عجل ، اخرجه من الكيس ، وانتعلته وخرجت إلى الشارع ليلاً ، مهرولاً ، ممتلئ جرأة وحماس .. الليل في المدينة ليس بذلك الجمال ، ولا يشبه ليالي الريف الصيفية ، بل عكسها تماماً ، ليل يسهل نعه ، صاخب ، مضطرب ، لا سكون فيه ،

سماوه تحوي بعض النجوم الخجلة ، لا ظلام دامس ، لا
أسرار ولا أصوات لعشاق ، لا صر صور يغنى ، لا ضفدع يتملق انته
لا جرو يبحث عن امه ، ليل كأنه عباءة سوداء ، انه من الظلم
والتعسف لو اسميناه ليل ظلامه حalk . . . ارتديته ليلة واحدة وتعبت
لا تعلم ركوبه .. لم أكف عن المحاولة البائسة لتعلم ركوب هذا الحذاء
السحري ..

ان الطريقة الصحيحة لركوب حذاء التزلج هي ،
أولاً.. ثني الركب بزاوية يسيرة .. ثانياً .. تحني رأسك وجسدك
للأمام قليلاً .. ثالثاً .. تدفع الساق اليمين للأمام ونحو اليمين ، خارج
مسار الجسم قليلاً ، ثم تدفع بالقدم اليسار للأمام ونحو اليسار ،
مع انحراف قليل خارج مسار الجسم ، كأنك تزيح الثلج وأوراق شجر
خارج نطاق مسارك ..

خرجت إلى الشارع وكانت الفتيات الصغيرات يلعبن قريباً من
باب الدار ، يضحكن ، يقفزن بمرح ، يغبنين ..

هلا يا رمانة ، هلا يُمّة .. من هي الزعلانة ، هلا يُمّة ..

أمونة الزعلانة ، هلا يُمّة .. منو يراضيها ، أبوها يراضيها ..

صايغ ترافيها ، هلا يُمّة ، هلا يُمّة ..

اندفعت بجسدي ، الساق اليسرى ونحو اليسار قليلاً ، ثم تبعتها
باليمنى ونحو اليمين خارج مسار الجسم .. لكن الفعل كان أصعب من
الكلام بكثير ، وأصعب حتى من تخيل حالتك الآن ، وانت تحاول فهم
طريقة ركوبه من خلال كلماتي وطريقة وصفي لها .. لم تنفع المكابح ،
كنت أسقط بوجهى وعلى الاسفلت مباشرة ، ولا حائل بيننا ، انهض
مجدداً وانظر للبنات الصغيرات يقفزن قريباً مني ، ادفع يميناً ، وأسمع
صوت البنات ، هلا يا رمانة .. ثم القدم اليسار .. من هي الزعلانة ..
تدرجت على جانب الشارع .. أمنة زعلانة .. والتراب ملأ عيني
وفمي .. من هو يراضيها .. لم ينتبه أحد أو يشفق على حالى .. خدشت
مرفقى .. هلا يا رمانة .. جرحت راحة يدي .. من هي الزعلانة ..
تمزق بنطالي وسالت قطرات الدماء من ركبتي .. ولا زلت اسمع ،
ابوها يراضيها .. صاير تراجيها .. هلا يُمّة ، هلا يُمّة ..
حاولت كثيراً .. لكن الأمر أصعب مما حُيّل لي ..

كنت أظن عندما اشتريته ظهراً اني سوف اتمايل وتحملني
الريح كما تفعل فتيات التزلج عندما يرقصن الثنائي على الجليد ..
لكن الأمر مختلف .. وعندما كانت تقابلني سيارة لم أكن أميل عنها
بلطف ، وإنما احابل التوقف بصعوبة ثم امشي نحو الرصيف ، ارفع
قدمًا للأعلى واثبت أخرى كمن غاصت قدماه في بركة من المربي
الدقيقة ، أو أُسقط نفسي على الأرض متعمداً وازحف على ركبتي
كطفل يحبو .. حاولت .. وحاولت .. ان الطاقة الخارقة لدى
الأطفال تجعلني اشعر بالكآبة لحالى التي أسميت عليها اليوم ..

أيها الحذاء ، أينما كنت الآن ، وكيفما هو حالك ، اعتذر لك عن الرائحة ، فهذا الجورب يدفوني منذ الصباح .. اعتذر أيضاً عن خشونة باطن قدمي ، ومخالبي الفارعة الممتدة .. أنا أشعر بك حقاً ، وأشعر بالاختلاف بين الانامل الرهيبة لمن انتعلك قبلي ، وبين هذه الحوافر التي تنقل كاھلك الآن .. كنت تحمل إيميليا الفتاة من الترويج بغرور ، أما الآن عليك تحمل فتى الادغال مُكرهاً ، كما فعل المصباح السحري مع الساحر جفر .. آآآآاه أيها الحذاء المسكين ، أتمنى لو ان عندي قدماً أقل وزناً وأقصر طولاً ، غير هذه القدم المشوهة ، لأنساعها عليك ..

فجأة ، أحسست بشيء يخمش اصبعي من الداخل ، لم أبالي به وتسليت كثيراً بين مرح وفشل ، حد الاشباع .. . بعد ان تعبت من اللعب عدت للبيت ، اخرجت قدمي فوجدت ان اصبعي مجروح ومنتفسخ قليلاً ، وبعض قطرات الدم تختنة القوام على حافة اصبعي الزعيم ..

لا بد ان هناك عيب في صناعة هذا الحذاء تسبب بجرح قدمي بهذا الشكل ، شيء لم أعرف كنهه .. رفعت الحذاء وضررت مؤخرته على الأرض بقوة ، ثم رفعته وهززته وطرقته على الأرض مجدداً .. ثم تبين ان داخله عقرب .. عندما هززته سقط منه عقرب .. كان يختبأ في الحذاء ، كان خائفاً دافئاً فاقتحمت صومعته .. كان العقرب اسود ، وكبير جداً وأعمى ، يثير الرعب ، يشبه قطعة فحم لامعة سقطت على الأرض ،

وكان يرفع ابرته وكلاليبه بحد ، كأنه رجل كاوبوي يحدّري
فائلاً: إذا تحركت سأطلق النار . . . وبهبي لك انه مستعد للهجوم رغم
انه في الحقيقة شبه ميت ، لأنني كنت اضغط عليه بقدمي وهو
يلسعني.. مشى نحو ببطء ، عدة خطوات ، يتزاح ، رغم ما به من
المصاب .. إلا انه وبكل سهولة كان ثائر ومتغاظ ، ومنفعل ، كأنه
وحش من أساطير الفايكنج . . . ما أصابني بالدهشة هو طريقة مشيته،
كيف يستطيع المشي على أربع قوائم بينما ذيله شاخص ثابت كأنه لا
يتحرك .. حين رأيته كاد قلبي ان يثبت من فمي لو جرأت وصرخت،
لكن فمي هو الآخر تصلب من الرعب ..

انهلت عليه ضرباً حتى أصبح اشلاء .. واخيراً .. قتلتـه..
السفاح المسكين .. كان في جوف حذاء التزلج منذ اشتريته ، ربما قبل
ذلك بأيام أو أسبوع أو أشهر .. لأن العقرب يستطيع البقاء لما يقارب
ثلاث سنوات دون ان يدخل في جوفه قطرة ماء أو حبة غذاء . . .
دفع عن نفسه حتى الموت .. كان يريديني ان اسحب قدمي واتركه
لحاله وسباته ، لكنني لم أشعر به .. لبـث هناك إلى ان ارتديته ثم لدغـني
ومات على مرحلتين ، الأولى عندما دستـه بـرجلـي ، والثانية عندما
ضرـبـته حتى تقطـع .. رغم تأكـدي من موته إلا انـي كنت ارتعـش منه
مرعـوباً ، وأـشعرـ انهـ فيـ أيـ لـحظـةـ سـوفـ بـيـاغـتـنيـ ،ـ ويـقـفـ تـجـاهـيـ
وينـقضـ لـيشـوهـ وجـهـيـ ،ـ وبـلاـ مـبـالـغـةـ ،ـ هـذـاـ مـاـ كـنـتـ أـشـعـرـ بـهـ حـقاـًـ

لأن لمسة حنونة واحدة من هذا الاخ المهيب ، بخرطومه
الصلب الذي يشبه عنق الافعى ، تصيب الإنسان بثقوب وألم وحرق،
ومن الممكن ان تنهي حياته بسهولة ..

في اليوم التالي بقيت في البيت ، أتصنّع الألم .. إنها استراحة
من العمل .. وحيث كنت اعمل كان عندي صديق اسمه "حسين" ولد
هادئ طويل ونحيل ، شعره اسود .. عييه الوحيد انه صديق عمل ،
وصديق العمل يبقى صديق عمل مهما كان عمره أو عمر العلاقة
بيننا... طلب الحذاء يلهمو به يومين أو ثلاثة ثم يعيده ، أراد تجربه
والتزلج به .. جرب اللعب به ، حاول ، أراد ، حاول عدة مرات ..
لكنه لم يفلح .. وفي النهاية تزحلق ، وسقط ، وكسر معصمه ..
لا أدرى من المنحوس بيننا ، نحن الثلاثة ! ..

الخوف والحدر ، هما العنصر الوحيد الذي ظل حياً يفرض
شبحه على حياتي ، وراحتي ، وسكنينتي ، لأنه ارتبط بحادث ونكبة
مفزع .. يخيفني على أمل ان أبقى حذراً لثلا يتكرر نفس الحادث ..
بعدها ، أصبحت اخاف في كل مرة انتعل حذاء ، خوفاً من وجود
عقرب او أي حشرة .. إلى اليوم وبعد عمر سابع لم اصادف ان
خرجت ولو نملة من حذائي حين اتفحصه ، لكنه الخوف نفسه ،
وبنفس مقداره ، لم ينقص يوماً ..

المهم .. اني .. وللآن .. وبعد ثلاثين عاماً ، لا انتعل حذائي
إلا بعد ان ارفعه ، واطرق كعبه على الأرض ، مرتين أو ثلاث ، ثم
ارفعه مرة أخرى واهزه جيداً ، لعلني اجعل العقرب المختبئ ، يفلت ،
يتزحلق ، يسقط خارج الحذاء ، وبعد ذلك ارتديه .. وانا متأكد ان
هذا الفعل سينتكرر لآخر لحظة من حياتي ..

الآن ، وقبل ان اكتب هذا المقال بقليل ، تأكدت من حذائي
وقدمت بما اقوم به عدة مرات كل يوم ، اطرقه ، اهزه ، ارفعه ،
اتفحصه ، ثم انتعله ..

يكسر الإنسان الفعل ذاته لسنين طوال ل موقف حصل معه مرة
واحدة ، وكما يقول المثل "من تلدغه الحياة بيده يخاف من جر الحبل"
وهذا ما يحدث حرفياً عندما يتآلم شخص من كلمة ، أو موقف ،
أو غدر ، أو خيانة .. فإنه يحذر ويخاف لآخر العمر ..

ان أذى الناس فأر شقي ، يخنس داخل الشخص الطيب ليعزله
عن المجتمع ، ويزرع به بذرة الحذر والحيطة من تصرفات البشر ،
أو الاقتراب منهم .. انه حذر من تكرار لدغة من وثق بهم يوماً ،
حذر من تكرار ألم الخبث والخيانة التي ترافقه ذكرها طول العمر ..

تأتيك ضربة تغير كل ما فات .. ضربة لحماسك ، وضربة
لثقتك ، وضربة أخيرة تطفئ روحك ..

لا تؤدي إنسان .. فكرياً ويهيئه يمنعه أن يُظهر ويُبين لك أنه
تعرض للأذى .. لكنه في الحقيقة سوف يعاني ، وحيداً ، منكمشاً ،
طول الدهر ..

في يوم من الأيام قامت حديقة حيوان في رومانيا بإطلاق
سراح أنثى دب في الغابة ، وبعد ثمان سنوات وجدوها تقوم بالدوران
حول نفسها في حلقة صغيرة ، دوران لا نهائي .. يقول عالم الأحياء:
انها حرة الآن ، لكن عقلها لا يزال أسير الفحص الذي عاشت فيه لمدة
عشرون عاماً ، ولم تفهم حتى الآن ، ان القصبان لم تعد موجودة ..

الماضي درس ، وليس سجن مؤبد ..

.. የኞች በኋላ በኋላ የኞች

اسمي هو سيف ..

اسمي هو سيف ، اختاره أبي لأن الناس يحبون هذا الاسم ، ويقولون ان معناه السلاح الابيض المعروف .. عندما خرجت اليوم صباحاً رفعت بعض اكياس الشيبس والفستق ، وبعض أوراق الدفاتر الممزقة من أمام منزل جاري ، لأنني أعلم يقيناً انه يجلس الآن يراقب الشارع على الشاشة من خلال الكاميرات ... أنا ذاهب إلى المتحف العراقي لأنني سمعت ان هذا المكان جيد ، ويدل على الرُّقى ، والناس يمدحونه ، رغم اني لم انجذب يوماً لهذه القطع المصاغة من الطين المقسى ، وأقنعة التملق ، ولم أصدق أبداً انهم كانوا يستطيعون النسخ على الدراهم والدنانير بهذه الدقة .. لكني اخاف ان يتحدث أصدقائي عن المتحف وأخبرهم اني لم أذهب إليه أو اسمع عنه ..

صعدت سيارة نقل عام صغيرة قديمة ، تخض وتقلقل على طول الطريق ، تغربل محتويات الجسم وتغير أماكنها .. فلت السلام عليكم ، فقال السائق "السلام" .. هكذا ، كلمة واحدة فقط ، لكنني أظن انه رد باستصغار .. وعندما رفعت عيني لأنظر للطريق ، رأيت السائق يحذق في من خلال المرأة الصغيرة أمامه ، وكانت إحدى عينيه أكبر من الأخرى ، خضت رأسي وبحثت في محفظتي الرثة عن نقود طازجة ، خوفاً من ازعاج السائق ان رأى نقوداً هرئة ..

جلست في المقعد بطريقة غير مريحة ، مادا أفعل بهذه السيارة ملك للجميع . . . على طول الطريق وأنا ألوي رأسي تجاه الشباك وأنفي خارج حدود السيارة ، أشاهد العمران ، والعمال ، والقطط ، خشية ان يظن الناس الذين يركبون معي داخل السيارة اني اراقبهم ، فيغضبون . . . انظر إلى معلم الطريق ، سوق الدورة ، مصرف الرافدين ، ثم جامع مكة ، سكة القطار تحت الجسر ، منطقة المهدية الثانية ، والتي لفبت بعد الحرب " باب الحارة " تيمناً بالمسلسل السوري ، ثم مشاتل السيدية لبيع الورود والشجيرات ، وهلم جراً ..

هذا ما كنت اشاهده لأنني كنت أجلس من جهة السائق ، ويجلس بجانبي شاب اعتق ساقه وحررها للأمام ، بينما كنت أصلك ركبتي وأقل ساقّي بوضع قدم فوق الآخر ، وأشبك اصابع يدي . . . لمحت رجل آخر يجلس قبالي ، كث الشارب ، فاسي الملامح ، يضع خاتم كبير في بنصره ، وساعة سوداء ، أسنانه بيضاء لامعة ، يبدو انه لا يدخن ، وهناك ، على رقبته أربع شعرات لم يلاحظها حين حلق ذقنه صباحاً .. استطعت مراقبة هذه الاشياء بسرعة ، قبل ان يرفع رأسه عن الهاتف ويلاحظ اني انظر إليه .. وإلا .. لا أعلم ما سيحدث ، الناس هذه الأيام كالأطفال ، لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم ، وربما كانت تجلس بجانبه فتاة ، لست متأكداً ، لكنني لمحت حقيقة يد سوداء ، لذا أشحت نظري وعدت أكلم الطريق ..

اثناء الطريق ، وبالتحديد عند صومعة خزن الحبوب
"سايلو الدورة" مقابل منطقة السيدية ، صعد رجلان ، أحدهما يرتدي
سترة عريضة وبنطال تتدلى طياته اسفل قدمه ، أما صاحبه كان يبدو
قوياً مقتول العضلات ، ويرتدي كنزة ضيقة وبنطال يعصر ساقه ، لا
أدرى كيف تقابلا ..

لقد اجتاز السائق المتحف ، وأصبح محاذياً لمستشفى ابن
البيطار ، انه خطأي ، لأنني استحييت ان اسأل من يجلس بجانبي ،
ناديت على السائق بصوت مبحوح تhalbته حروف قرية إلى الروسية:
سانزل هنا إذا امكن ، رحم الله والديك ، شح جه ، منوه ح بي ،
عح عهج . . . تتحنحت وأنا ابادر حصى الشارع نظرات الشفقة
والمواساة .. اغلقت الباب على مهل حتى لا يغضب السائق ، وما ان
تحركت السيارة حتى فتح الباب ، أردت ان اجري وألحق بها لأوصد
الباب جيداً ، لكن أحد الركاب اغلقه قبل ان أصل ، ثم أسرعت السيارة
بتغافل . . . اعتذرت من السائق في سري واحمررت خجلاً ، لأن
الناس في الشارع وأمام المحلات ، جميعهم ، كانوا ينظرون لي ،
وربما قالوا: لماذا لم يغلق الباب ، انه احمق . . . لا أدرى من أين
يأتي الناس بهذه الاطنان من القسوة ..

أعلم ان الكثير من القراء سيقول في خلده انها حكاية مبالغ
بها ، وانا معهم في بعض هذا ، وربما هم على حق ، لكنها حقيقة واقعة
ملموعة يعاني منها الكثير من الناس ، وربما انت واحد منهم ..

لتحدث انا وانت على انفراد فيما بيننا ، هل انت مشغول بالناس وما يتكلمون عنك ؟ ومهتم أشد الاهتمام لرأيهم فيما تتلتفظ به ، وماذا يقولون عنك لو تحدثت بالهاتف علانية ، وكيف تعامل عائلتك وأولادك ، ومهتم لوصفهم كيفية عبورك الشارع ، وكيف تجلس ، وكيف تقف ..

هل تعلم لماذا كل هذا القلق والتوتر .. ولماذا انت بدورك تراقب من دخل ، طوله وعرض اكتافه ، تراقب طريقة مشيته ، تراقب حركاته وطريقة كلامه ، تتأمل لون عينيه ، وشكل انفه ، ياقه قميصه ، وحتى الخاتم في اصبعه ، وتلاحظ الشعرة المنفصلة عن حاجبه ، وترصد الشيب في شاربه ، وتسرىحة شعره ، تتفقده كما يفعل الطبيب مع الطفل المولود حديثا ..

لماذا تفكك ماذا ستقول غداً لترضي شريكأً أو صديقاً ، وكيف تجيب إذا سئلت بعد اسبوع أو شهر ، تصنع في مخيانتك سيناريyo لمناظرة ، وتتمرن لتدافع عن نفسك لو اغضبك أحدهم مستقبلاً . . . لماذا انت تخطط لحادثة لم ولن تقع ، وترسم في رأسك حرباً مع شريك العمل في حال تغير عليك ، وتصوغ في خيالك ان هذا شخص خطر ، وهذا يغضب ، وآخر يزعج من ابسط الكلام ، ووووو الخ ..

يا صديقي ، هل سألت نفسك يوماً لماذا انت قلق وحزن
بخصوص الآراء التي يكتنفها الناس عنك ، وفيك حزن على ذكريات
الماضي ، وخائف من ورطة الغد ..

شاهدت يوماً تجربة أقيمت على جمع من الأطفال الصغار ،
تجربة تغمرك حزناً ، ثم تستنبط منها شيئاً مهماً كان قد سبب لك
الارق لزمن طويل ، ثم ، وبعد ان تفهم ، سوف تسكب مشاكلك خارج
عقلك .. لأنك عرفت مصدرها وعرفت كيف تضع حدأ لها ..
هذه التجربة تكشف عن الفرق بين مجموعة من الأطفال ، منهم من
تربي في ظروف عائلية آمنة ، وأطفال آخرين يتم رعايتهم في
مؤسسات حكومية بعيداً عن الاهل ، تم احضار سبعة أطفال تتراوح
أعمارهم من سنة ونصف إلى سنتين ، ليتم اختبار كل واحد منهم على
حدة .. وقام المشرفين على هذه التجربة بإحضار كرسي صغير
مخصص للأطفال ووضعوا أمامه طاولة ثم قاموا بإحضار مكعبات
ملونة لمراقبة التصرفات وطريقة اللعب لكل طفل ، ومعرفة ردود
فعالهم .. . تم اعداد كل شيء ..

اجلسوا الطفل الأول ، طفل تربى في ظروف طيبة ،
مستكشف نشط ، متحمس للامساك بأي غرض يراه ، كان يمرح
بحريقة تامة ، طوله قريب من ثلاثة اشبار ، وجهه مستدير كقرص
الحلوى ، وخدود وردية ، مكتنزة باللحم ، يبدو أكثر تعقلًا من سنه ،
كأنه مدرس مادة الرياضيات ، وسيماً مهيباً ،

شعرهبني يغطي مقدمة رأسه ، الابتسامة جزء لا يتجزأ من محتويات وجهه ، وقد بدا غاية في الاناقة والوسامة ، طفل مدلل لم يتلوث بالأمراض النفسية للأهل ومشاكلهم الساذجة ،

وضعوا قطع المكعبات أمامه ، وضعوها على مقربة منه وبمستوى ذراعيه ، وبسرعة بدت السعادة على وجهه .. الطفل الذي تربى في ظروف عائلية مناسبة تتحرك يداه الصغيرتان في كل اتجاه ، بفرح ، وبلا نسق ، فرج عن اصابع كلتا يديه واطلقها لتملا المكان .. يحرك المكعبات ثم يأخذها ويضعها في فمه ، ويطرقها على الخشب ويحاول ان يرتبها ، مستغرق في اللعب ، غير آبه لما حوله ، وبالكاد يعيّر اي انتباه للموجودين ... يبعث برعونة حلوة في الفضاء الساحر من حوله ، فضاء لم نكن نراه نحن ، مطمئن وواثق ان لا أحد من الاشخاص المحيطين به سوف يسبب له الاذى ، او يمنعه من اللعب ..

الطفل الثاني ، فتاة صغيرة تذهب بانتظام إلى رياض الأطفال، ترتدي الكنزة البيضاء الثخينة ذات اكمام لونها اخضر فاتح يشبه لون الملفوف ، كأنها فتاة من القرن الثامن عشر ، وجهها يشبه النور في الليالي المقرمة ، كانت تشعر بثقة كبيرة ، ثقة غطت المكان حولها ، عندما جلست لم يختلف سلوكها عن سلوك الطفل السابق ، تمسك الالعاب بيديها ، وسرعان ما بدأت ترتبها فوق بعضها ، وتلتقط ما يسقط منها ، اخذت تلعب ولا تعطي اهتماماً للناس حولها ، وكأنهم ببساطة غير موجودين ..

احضروا الطفل الثالث ، وكانت طفلة تربت في مؤسسات حكومية ، تم ابعادها لظروف خاصة عن أهلها ، تعاني الاهتمال ونقص الوزن ، يظهر على وجهها ملامح الحرمان والافتقار للحب والحنان ، تستخدم اليد اليمنى ، بينما تتصالب اليد الأخرى ، وبحذر ، تحركت بثاقل وهي توجه يدها نحو قطعة مكعبات كانت هي الاقرب إليها ، وتلتقط القطعة ، لكنها تغير اهتماماً قليلاً باللعبة ، ثم تلتفت يميناً وشمالاً ترافق الموجدين في الغرفة ، ربما تعتبرهم مصدر خطر عليها ، كأنها اعتادت ان يؤخذ منها كل ما تمسكه ، بتعسف وانانية ، تنتظر ان يمنعها ، او يصرخ بها أحدهم ، تنتظر نظرة والهـة

ومع هذا الحزن الذي بدا جميلاً على وجهها ، إلا ان هناك لمعة كضوء القمر تغمر عينيها ، تلعب قليلاً ثم تسرح ، تتأمل حولها ، وتفكرها منصب على الاشخاص المحيطين بها ، انها تلتفت كثيراً ، وترافق بتحرز جميع الافراد المتواجدين في الغرفة ، كانت ترتفج حذرة وبلا حراك ، كورقة صفراء معلقة بغضن ، تعلم شيئاً سينماً عن الخريف ..

احضروا الطفل الرابع ، مما بدا انهم مصممون على انهاء التجربة ، ثلاثة من الاطباء او علماء نفسيين يعملون في صبر من أجل إثبات وهم ، علماء حادي المزاج لا يفهمهم سوى العلم مهما كانت نتائجه الوبيـلة . . . اعتقد ، انه ومهما ظن الطبيب انه طيب القلب ، لكن فضول العلم يدفعه احياناً ، او ربما في غير هذا التجربة ، للقيام بالشر والعمل الاناني ..

رقم اربعة ، كانت طفلة تم سحبها من حضانة أهلها السيئة إلى مكان أسوء ، كانت تشبه الطفل الأول من حيث لون الشعر وبياض البشرة ، ولكن تظهر عليها ملامح البؤس والعدم ، وبلا صبغة زهرية على وجنتيها ، تغلق نصف عينيها ببلادة ، مركزة على الاطباء الجالسين في الغرفة ، هادئة صامتة ، معترزة بالقليل الذي تملكه .. الحزن لم يمنعها من فرض شخصيتها بينما وجب عليها ارتداء حلة الحذر ، تعبر عن رفضها اللعب عن طريق رفع يديها وابعادها عن المكعبات ، بإيماءة تدل على تجنب اللعب ... بعد فترة ليست بقليلة ، واحيراً ، تلقط مكعباً وتنتظر بقلق حولها ، ونظراتها المضطربة تدل على الاخفاق ، كانت خائفة ، لديها ماضٍ قصير من الزجر والمنع ، تبعد يديها عن المكعبات وكأنها تظن انه ليس من حقها اللعب ، تم تسجيل سلوكها على انه سلبي ، لأنها لا تلعب ..

ان الألم الذي في عينيها يكفي ليوقظ ميتاً غرقاً بدموعه ، انها تجربة مؤلمة بكل المقاييس ... بل ابني ، صدق أو لا تصدق ، شعرت بالحزن المصاحب للصمت والحسرة لأسابيع عندما شاهدت هذه التجربة للمرة الأولى ، شعور غامض في اعمقى ، أطافت سبة في السر ، ثم تابعت مشاهدة التجربة والكثير من السباب أيضاً ، وبدأت أحادثها تجرفني ، ولكم حسدت الطفل الأول ..

الطفلة رقم خمسة ، طفلة أخذت من أهلها بعمر صغير ووضعت في مؤسسة حكومية ، بعد فشل تبنيها مراراً ، تحمل في تعابير وجهها الملل والتعاسة ، ترافق خطوات الطبيب النفسي وهي تمس اصبعها خائفة منزعجة ، كأنها تنتظر صفعة اعتادت عليها ، ناولها الدكتور قطعة المكعبات في رقة فأبعدت يدها ، وبعد عدة محاولات امسكت قطعة المكعبات التي وضعها بين اناملها ، مستسلمة لم تقاوم ولم ترفض ، ولكنها لم تبدي أي اهتمام بها ، فلبت المكعبات على سطح الطاولة ، ثم عادت لبرودها الموروث ، عينها لا تغفل عن الطبيب الذي يحاول مساعدتها ، تلاقيه بنظراتها ، كانوا صغار السن لذا لم يفهوا ان من حولهم استخدمهم لمصلحة ..

طفل آخر صغير بعمر سنة وبضعة أشهر ، يلبس قميص رصاصي داكن ، نحيل ، شعره قصير ، يحكم قبضته واصباعه خجلاً ويفرد السبابية والابهام ، يجلس بلا حراك أمام الألعاب .. كأنني كنت معهم هناك داخل الحجرة ، غرقنا في هدوء عميق نحدي بالفتى ... لم يمد يده ، كان عليه ان يلتقطها ، أو يجب عليهم وضعها بين اصابعه أيضاً ، كانت عيناه تتموج في صمت ، وتنجول في هواء الحجرة الكئيبة ، ان هذا الطفل ملامحه تدل على قوة وحنق ، لكن ذكريات القسوة والشتم والحرمان لها كلمتها .. بعد مدة من الزمن سمح لنفسه ان يُرخي يده الناعمة لتترنح بخجل ورغبة نحو اللعبة ، يتحرك نحو المكعبات ببطء وخوف .. لكنه تذكر ،

ثم أصبح شيئاً فشيئاً غير مبالٍ باللعبة ولا بالأشخاص من حوله ، خس مروعًا ثم انزوى على نفسه في استسلام ، ينكمش ، يتقوّق على نفسه ، ويحاول ان يهدي من روعه عن طريق مص الابهان وفرك عينه بيده الأخرى ، انه ألم موثق نجم عن مدة من الوقت العصيّ ، مدة اطوالها لا تشبه مقاييس الوقت التي نعرفها ، مدة من الوقت تشبه حال طفل طوق حذاءه بيديه رجاء ان لا يغفو ، منتظرًا صباح العيد ..

فاحت في المكان رائحة لا تطاق ، رائحة الألم الموجود في ذهن هذا الكائن البريء ، لكن التجربة استمرت على ماض .. . رغم اني كنت أشاهد عبر الشاشة ، إلا اني شعرت وبيقين مُسَهَّب ان بإمكانني لمس بشرة الطفل ، وتمنيت ان ابرم له خده الرقيق ، وأمسَّد له شعره ، واسمع دقات قلبه الخائرة العملاقة ..

الطفلة رقم سبعة ، والأخيرة ، طفلة تعاني من نقص الوزن ، نحيلة ، بشرتها شاحبة ورهيفة ، جبهتها متقدمة للأمام ، يرتسם على وجهها الكثير من الألم ، تُبدي جموداً واضحاً ، منعزلة ، غير مهتمة تماماً بما حولها ، وغير مهتمة بالمكعبات أيضًا ، أو غير ذلك .. . تبدو مذعورة كأنها تعرضت للضرب قبل لحظات ، تنظر لكل مكان وتلاحظ كل الاشياء من حولها ، ما عدا المكعبات التي أمامها ، وكأنها لا تراها ، لا تنتفع بنظرها ابعد من مستوى حالها وأحلامها ، يرتجف جسدها ،

انزعاج ، تشوش ، فلق متزايد ، ارتعاش الشفة ، بلبلة في التنفس ، ثم تصوب نظرها نحو الأرض ، كأنها توضح لنا مدى الخذلان الذي تعاني منه ، عينين باردينين كشتناء قضاء العمادية ، ناعستين كحضرته . . . وهناك داخل عينيها الخضراوين الرائعتين غشاوة لامعة من دموع لم تتحدر بعد ، ما سر هذا الهلع على وجهها ؟ انه مفعول العنف لا أكثر ، ظلام الفكر الأبوى وبقايا اصوات تخمش الروح ، ساد صمت كثيف . . . على كل حال ، انه شعور غريب ان ترى إنساناً على هذه الحال المزرية ، ويحتاج إليك إلى درجة البكاء ، لكنك لا تستطيع ان تحرك ساكناً ، او تهشّ غباراً ..

ما سأقوله لك الآن هو خلاصة بحث سنين عزيزة ، لا اطالبك ان تقتطع به ، ولكن اطالبك باحترام ما ستقرأه ، لأن هذه المعلومات لم تأتي من الدراسة والكلام وقراءة الكتب فقط ، وانما جاءت بعد عراك وصراع مع قساوة الأيام ، وخشونة الحياة ، وتکبد الألم ..

ان هذه التجربة التي أوضحت كيف ان الطفل المدلل الذي تربى في ظروف عائلية طيبة ، مليئة بالحنان والحب والاحترام فيما بينهم ، الطفل الشبع بالاهتمام والطعام ، ينغمس في اللعب ، يشعر بالأمان ، مطمئن ان من حوله لن يؤذيه .. اما الطفل المحروم من عطف وحنان الوالدين ، هو طفل فلق ، مضطرب ، خائف ، يهتم بمراقبة الاشخاص من حوله أكثر من الاهتمام بالأشياء التي يحبها ،

وهو متتأكد انهم مستعدون للإلحاق الضرر به ، ومتتأكد انهم سيحرمونه ما يُحب عن قريب ، فإنها - أقصد التجربة - تبين وبساطة السبب من وراء ان الكثير منا ، ولهذه اللحظة وفي هذا العمر ، وكل ما يشغل باله هو الاشخاص المحيطين به ، ورأي الاشخاص الذين يراقبونه ، يخاف من عقابهم ويبحث عن رضاهم . . . السبب هو الظلم والحرمان منذ الطفولة ، ونقص الحنان ، واضطهاد الاهل ، من الضرب والتعذيب ، الكلام الجارح ، الصراخ بوجه الطفل ، الاهانة المستمرة ، منعه من ممارسة حقه كمخلوق ، ومنعه من ممارسة حقه في التصرف كطفل ، وأساليب العقاب المتتوعة التي يتعرض لها في طفولته .. كل هذا هو السبب الرئيس لضعف شخصية الفرد ، وارتخاء قيمته في عينيه ، وبالتالي الشعور بهوان نفسه أمام الآخرين..

تبين لنا هذه التجربة السبب في اننا نراقب الاشخاص من حولنا بإسراف ، مما يجعلنا ننسى ونغفل عن المرح والتمتع بالأشياء الجميلة حولنا ، ونقضي العمر بين قلق وحزن ، بين وشوشة لا تقطع في الرأس ، بين تعذيب وإهانة للنفس . . . وبالمقابل تعظيم كل ما يحيط بنا والخوف منه .. وفوق كل هذا فإننا نعتبر آراء الناس حولنا ذات أهمية قصوى ومصيرية ..

ثم ، أننا عندما نعرف السبب ، فإن الحل يأتي ملازماً له .. لأن فهم السؤال هو نصف الجواب . . . وكما يُقال: إذا ظهر السبب بطل العجب ..

الآن ، وبعد ان عرفنا السبب ، فالحل هو التجاهل .. نعم ، التجاهل ولا شيء غير التجاهل ، التجاهل بكل انواعه وألوانه . . . الفائدة الأولى من هذه التجربة هي ، انتبه لأولادك وكل صغير انت مسؤول عنه ، لا تصنعهم في مثل هذه البيئة وهذا الحال ، ولا تضعهم في مثل هذا الموقف . . . اما الفائدة الثانية ، هي التجاهل .. لكن التجاهل انواع واقسام كثيرة ، اكثر من ان تحصى هنا ، ولكنني سأذكر لك بعضاً منها ..

واعلم أيها الأخ الحبيب والصديق القريب ، ان التجاهل ليس تكبر وتبختر على الاشخاص من حولنا ، وإنما هو تجاهل للأخطاء ، وتجاهل للهفوات والزلات ، وتجاهل لحفظ الود بين اثنين يحتاج أحدهما للآخر ..

■ يتجاهل الزوج نك بعضهم بالسکوت ، أو الموافقة احياناً ، والتبسم ، ليس خوفاً ، وإنما للحفاظ على العائلة من الضياع .. لأن تجارب النك التي مروا بها سابقاً ، النك من كلا الطرفين ، أوضحت لهم ان الجدال والصراخ وقت المشكلة لن ينفع بقدر أنملة .. وهنا يأتي دور التغافل والتجاهل عن الزلات ، تجاهل العثرات والمشاكل المنزلية التي لا يسلم منها بيت ، ولا يحصل هذا التجاهل إلا بمساعدة الزوجة في التربية ، وأمور البيت ، وغسل الأواني ، واللعب مع الأولاد ، والسير مع الزوجة ليلاً ، إلى كل مكان ..

■ كذلك عند شجار الأولاد فيما بينهم وبعض الاجحاف والسلط من هنا وهناك ، نحتاج للتجاهل وعدم التدخل ، حتى لا تزرع الحقد والكراهية فيما بينهم ، لأن الأولاد مهما تشاورو ، سوف تسمع ضحاك وقهقهة بعد ثوان . . . أما ان تدخل الشخص الكبير ، وضرب هذا وصرخ بالآخر ، وحرم الابن الاكبر من اللعب ، وقد استخلص حكمه بناءً على أقوال أصغرهم ، فيها هنا يكمن الجور والظلم ، وزرع بذرة الانف'am والعداوة ..

■ وذلك العجوز ، جاري الطيب ، كان يذهب من بداية شارعنا إلى نهايته ويعود لبيته ، يجوب الشوارع في المنطقة سيراً على الاقدام ، مرتدياً جورب ثخين ، ليشتري باقة كرسى أو قلم رصاص ، أو قطعة حلوى لحفيده .. يتتجاهل مرضه المزمن ، ويتجاهل التفكير فيه ، بينما غيره يرقد في الفراش ، يقتل نفسه ببطء ، جراء تأمل المرض والتبصر بمضاعفاته ..

■ عندما تمشي في الشوارع والأسواق تجاهل التفاتة تؤذني رقبتك ، لتعرف نوع سيارة زميلك في العمل ، أو شكل زوجته وأولاده ومستوى اناقته في اختيار ملابسه .. كن عزيز النفس ..

■ لا تهتم بما يقال عنك ، فانت تعرف من انت ، لا تقلل من قيمتك ولا تجبر نفسك على إرضاء من حولك . . . تجاهل وتمسك بما تعتقد وتقتنع انت به ، حتى ان كان لا يوافق رغباتهم ، فلست مجبوراً ان تفكر مثل الآخرين ،

واعلم ان افكارك أثمن من ان تضييعها قرباناً لهم . . .
ابحث عن رضا الله ثم ارضي نفسك ، ولا يهمك ما يقال خلفك ..
اذا كنت لا تعرف قل لا أعرف .. اذا كنت لا ت يريد قل لا اريد .. نسيت
قل نسيت .. اخطأت ، اعترف وقل نعم لقد اخطأت .. ان كنت فقير
وميسور الحال ولا تملك ما يملك غيرك ، قل نعم انا فقير ولا املك هذا
الشيء ، ولم اجربه اصلاً .. وهذا ليس عيباً ونقصاً فيك .. فلا يوجد
انسان كامل وسليم وأموره تمام التمام ، لا يوجد انسان لا يخطئ
ويعرف كل شيء ، ويتذكر كل شيء .. فالكمال لله وحده .. فلماذا كل
هذا الخوف ، ولماذا الخجل والتمثيل والتصنع ..

■ سر على مهل أينما كان مشوارك ، ولا يهم ان تأخرت
على وسيلة النقل .. تجاهل الاستعجال ..

■ تجاهل حتى الاشياء البسيطة .. الصوف المكور على
سترتك ، والخيط البارز من ملابسك ، تجاهل حتى غبار التراب على
حذائك ..

■ تجاهل الحزن والغضب ، تجاهله بالعمل والابتعاد عن
الفراغ ، لا تضييع وقتك سارحاً كالبعوض ، تمصّ روحك من روحك ..

■ انت تتعب نفسك في تخيل مراقبة الناس لك ، اخطأت في
احد الايام خطأً بسيطاً لم ينتبه له الشخص الآخر ولم يعره اي اهتمام ،
اما انت تفكّر به وتبلغ ، وفي الحقيقة لا أحد يراقب ، الناس تنسى ،
الناس لا تهتم ، كلّ مرّه ق بحاله ،

تهاون أيها الحبيب ، هدى من روحك ، لا تكن متزمنت ، كن سهلاً وخذ الأمور بسهولة ، لماذا تعذب نفسك ؟ لو تجاهلت لسملت ، وكما يقال: لن تجد الهدوء أبداً ان كان مصدر الضجيج في أعماقك ..

التجاهل ممتع وعزز للنفس ، يقلب حياتك رأساً على عقب ، فانت بين أمرتين ، إما ان تبالغ بمراقبة كل شيء ، أو تتجاهل وتحيا مطمئن منشرح الاسرار ، هادئ البال ... أكثر طالب يقضى أوقاته مرحًا في الحياة الجامعية هو طالب يوازن على ارتداء الملابس الدارجة - الكاجوال - التي تتبع على الراحة الشخصية الفردية ، وحذاء شبه رياضي ، وقميص وبنطال تلقائي ، لا يصف شعره مهما لعبت به الريح ، غير مبالٍ بهذه الأمور الصغيرة ، يذهب مبتسمًا ويعود مرتاحاً ..

على عكس من يلمع حذائه ، ويراوغ الطلاب يومياً للحفظ عليه بنفس مستوى البريق حتى انتهاء الدوام ، وكذلك يفعل مع القميص ، ويتحصله لو تحرك وخرج من احدى الجهات ، ويراقب خصلات شعره حائراً ، ينظر في زجاج السيارة ، وكل شباك يمر به ، وأي باب مظلل يصادفه في الطريق ، انها مصيبة ترهق البال ..

التجاهل مُتعة وربح وفوز وفائدة ، عندما تريده شيء وتمناه بشدة ، وتحاول الحصول عليه ، وتمسك به ، وتنثبت بيديك ، وتلوي عليه قدميك ، وتعضه بأسنانك ، وتنوسل .. وكلما ألحت وركضت خلفه سوف يصعب عليك أكثر ، ويبعد عنك ، ولن تحصل عليه مهما كانت تضحياتك . . . ولكن ، لو أنك تجاهلت وهدأت ، وانتظرت غير مُكترث ، لجاءك بأشهل ما يكون وأيسر الطرق ، وأقلها ثمناً . . . ولهم أحسن من يبرع ويجيد التجاهل منذ صغر سنّه ..

لذا ياصديقي القريب ، تجاهل كل ما يؤرقك ، تجاهل كل صغير وكبير ، تجاهل البشر وغير البشر ، وخاصة الوساوس التي تهيج وتختبط داخلك .. تجاهلها وإلا سيصل بك الأمر ، ان تقوم بغسل الصابون بالماء والصابون قبل ان تغسل به وجهك ..

تجاهل وساوس الشيطان التي تغلي داخل رأسك ليوقع
البغضاء بينك وبين صاحبك ، هل يكرهني ؟ هل أغضبته ؟ هل سينتقم
مني ؟ هل تصرفت معه بطريقة صحيحة ؟ ووووو ... الخ . . .
تجاهل واستمر بما عليك القيام به ، لا ترك مجالاً للشيطان يتلاعب
بك وبعقلك ، وحتى ان اساء إليك شخص ، لا شجار ولا حقد ، تجاهل
فقط وحافظ على راحة قلبك ..

تجاهل لتحفظ بأشياء ثمينة ، فإن السعادة في التجاهل . . .
بدون هذا التجاهل البسيط سوف تخسر الكثير ، وأول ما تخسره هو
صحتك وسعادتك ، وتخسر القريب والبعيد .. تجاهل هذه الشرارة
داخل رأسك ، والتي تشبه تجمع للذباب على جيفة كلب ..

في أحد المساجد ، وبعد انتهاء الصلاة ، نظر أحد المصلين
إلى شيخ المسجد فوجده يرفع أربعة أصابع ويباعد بينهما ، وكأنه يكلم
شخصاً يجلس أمامه ، تعجب الرجل .. إذ لا يوجد أحد امام الشيخ ،
فذهب إليه وسألة ، فقال الشيخ: ان الشيطان جاء يوسموس لي ويقول:
ان صلاتك بها خطأ .. فقلت له: لا اصدقك ، إلا إذا حضرت اربع
شهود ..

التجاهل ينفع حتى مع الشيطان ..

.. حى ينفع حتى مع الشيطان

كلمة لابد منها ..

بعد حياة طويلة ، بين غباء وتسريع ، بين شجاعة وخوف ،
بين حزن وضحك وبكاء ، بين تصاغر وفخر ، كالمسافر بعد عناء
واختصار .. تجلس كالعجوز لتسريحة ، لا شيء في جسدك يشعر
بالحماس ما عدا عقلك المشغول ، تفكك كيف مرّ العمر ومضى ،
وتعاتب روحك .. لو غيرت بعض التفاصيل لكان السفر أجمل وأسهل
وأكثر هدوءاً .. لن تتمكن من تغيير الماضي ، وجلّ ما يشغل بالك هي
أشياء معنوية ، وافكار في رأسك فقط .. لكن صوت في داخلك يحذرك
ويقول: انه لا يزال في العمر بقية ، ولا ضير ان حاولت مجدداً ..

انت الآن ، مقتنع إلى حد التكبر بمقولة " من يضحك اخيراً
يضحك كثيراً " .. توبح نفسك وتنتظر لها كعجوز متغصن مدر جليه
فوق بعضهما كسلاً ، وقد أمست بشرته كأنها قشر بطيخة صفراء
ذابلة .. اعتقد ان ما تحتاجه الآن هو حزمة بسيطة من الافكار ليس
من الصعب ان تبدأ معها من جديد .. انقضت تلك الأيام التي قلت فيها
ان من الغباء ان يمرّ الوقت بحزن وخصام ، ووجه عبوس .. ثم
ادركت ان الأمر ليس بيديك ، ومهما حاولت سياتيك ما يعكر مزاجك
وصفو حياتك ، بلا أرادة منك ..

تضحك وترمح وتقهقه كالأطفال ثم تندم وتقول: كم كنت سخيفاً . . . ثم تصمت ولا تتفوه إلا بالمفید من الكلام ، وتنصنع القوة والجرأة ، وتنقطب جبينك .. ثم تندم مرة أخرى وتلوم نفسك قائلاً: لقد ضاعت الاوقات والاساعات بذر ، لو اني لعبت وقفزت ومرحت.. لتكشف ان هذه الدنيا حسرات لا تنتقطع . . . تبني بيت ، ثم بعد ان يكتمل تقول: لو اني أزيلت هذا الحائط لأصبح البيت أوسع ، ولو استبدلت هذا الباب لكان أجمل . . . سترى ان ما فعلته البارحة صار اليوم خطوة ساذجة ، وغداً تدرك كم انت احمق الان ، وهذا حال الجميع ، وفي جميع الاوقات . . . لقد كانت الحياة حلوة ومرة ، ولا تزال كذلك ، لم تتغير ، عشها وتخطاها على هذا الحال ..

يا صديقي الحنون .. لماذا تعذب روحك ، ان الحياة لا تستحق كل هذا الاهتمام ، قال الله سبحانه ((رَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) وصفها بأنها زهرة ، والزهرة هي اسرع جزء من اجزاء النبات يبدأ بالذبول ، ولا بد ان تدرك انه ما من داعي لكل هذا الانشغال والاهمام بها ، والحياة لا تستحق هذا التأمل والتمعن بتفاصيلها ..

از عجك سائق سيارة الاجرة في نصف الطريق ، ولا ي سبب كان ، لا مشكلة ، انزل واستأجر غيرها . . . لم يعتني بك البائع ولم يهتم لأمرك ، لا مشكلة ، ولا تغضب . . . جارك سيء ، تغافل .. أولادك يتشارحون فيما بينهم ، ابتسם ..

الحياة لابد ان تحتوي على الحلو والمر في ساعاتها ، والفرح والترح في أيامها . . . هل تذوقت الرمان اليمني ؟ من عيوبه انه حلو فقط ، تفرح في البداية لأنك اشتريت رماناً حلواً لن يعاتبك عليه الأولاد ولن تلومك عليه الزوجة ، وعند تكرار شرائه تملّ طعمه وتعاتب نفسك بنفسك ، ثم تذهب لتشتري الرمان الحلو والحامض ، فتجد انه اطيب وأذ ..

كذلك الحياة ، ولا بد للأيام من تنوع ، ولا بد للشئون والظروف من تباين واختلاف ، حتى يبتعد عنك الملل ، ولتعرف طعم وحلاوة الجانب الآخر ، وهذه الصعاب تجعلك تعرف وتقدر قيمة الخير الذي انت فيه ، كما ان الجوع يجعل الطعام أشهى ..

فلا تبالغ في عقاب نفسك ، ياصديقي .. سيمضي العمر على كل حال ، وكل سعيد مطمئن بحاله . . . لا تهتم ، الغني يضحك والفقير يمرح .. الغني يمرض والفقير يجوع .. الغني فلق بشأن الديكور الداخلي والفقير متغير بألوان واجهة الدار . . . قال الخضر لموسى عليه السلام: ياموسى ، ان الناس معدّبون في الدنيا على قدر همومهم بها . . . قام باحثون بتجربة علمية على فأر ، حيث قاموا بتسليط الاصوات المزعجة عليه وحرمانه من الراحة لإجهاده ، ووضع القطة قريراً منه لتخويفه بشكل مستمر ، وبعد خمسة أشهر فقط أصابه الشيب والوهن ، واعتنقت جسده الامراض ، ثم مات ..

يا صديقي الجميل ، ستراك بعد رحلة طويلة ان كل ما ظننته من انجازات ونجاحات ، وقوة وشباب ، لم يعد مهماً ، وليذهب حيث ذهبت الصحة والأموال . . . وتكشف مع تقدم العمر انك لم تعد تبالي ولن تغريك الذكريات . . . انت الآن مدرك كل الادراك ، ومتيقن كل اليقين ، انك لم تكن يوماً الشخص الأفضل في هذه الحياة ، ولن تكون كذلك ، ولا تريد ان تصبح الأفضل . . . فكل ما يهمك وتتمناه الآن ان تهأ وتمضي بسلام . . . انت الآن لا تأبه لأي شيء ، وراض عن كل شيء .. أيها الفتى العجوز ، لنبدأ بهذا ..

كان في مدینتنا رجل منحوس تهجم عليه المصائب من كل مكان ، كما تهجم خلية النحل على طفل يأكل الحلوي .. هذا الرجل يُخلّص نفسه من مشكلة ثم يدخل في اسوء منها ، تعتقه السلطات لتهمة كيدية ، هو يعلم انه بريء ، وانا أعلم انه بريء ، والجميع يعلم انه بريء ، حتى انت تعلم انه بريء .. لكنه يقضي الكثير من الوقت بين التعذيب والتحقيق ، والاصفاد والبدلة الصفراء .. ثم يخرج من غضب الحكومة ومبشرة إلى حوادث السير ، وعراك الشوارع والنزاع العشائري ، والسجون والغرامات ، بغضّ مشاكله ويفرق بينها ويتملص منها ، وما ان يخرج بكفالة ليرتاح قليلاً ثم مرة أخرى إلى دولاب المصائب .. تجوال بين البلايا والقوارع والسجون .. يدخل سجناً ويخرج من آخر .. ثم تبين ان هذا الشخص قد أهان والدته يوماً وأساء معها الادب ، وبالغ في الاساءة ..

ثم انه ندم واعتذر ، والألم بدورها صفت عنه وسامحته ،
لكن المصائب لاحقته لعشر سنين ، وربما طول العمر ، أو أبد الدهر ،
وربما مات والناس تدعوا عليه ليزداد عذاباً ..

والآن ، عليك ان تفك في كل هذه الشرشرة في حياتك
واللخبطة في سعيك ، ما سببها ؟ ربما ذنب أحدثه ونسيته ...
لتكتشف في مرحلة ما ، ولا بد من ذلك ، ان كل أحزانك سببها
الذنوب ... كل مصائبك وخسارتك والبال المشوش ، والقلب المترع
بالمهوم ، والروح المتعبة ، كل هذا سبب الذنوب ، عندما آذيت شخصاً
واستهذأت به ، وظلمت ، ونظرت للسوء بسوء ، وخدعت غيرك ،
كل ذل سببه ذنب ... كان رجال الدين فيما مضى يقولون: ان الرجل
ليذنب الذنب بالليل ، فيصبح عليه مذلة ... وبالمقابل فإن كل
افراحك ، وراحة قلبك ، والأموال التي جاءتك بلا تعب ، كانت بسبب
الاحسان للناس والتفاوض عن الزلات ..

وتكتشف ان كل حدى صغير أو كبير هو من الله ، وأمره إلى
الله ، وجزاؤه على الله .. ولا أعتقد انه قد فات الاوان ... وعندما
تدرك عواقب ونتائج أخطاء الماضي ، وتعرف ان هناك طريق أفضل
وأجمل لتلزمه ، وتنوي التوبة مما مضى والبدء من جديد ...
فإن فكرة التوبة والتخلص من الذنوب التي اقتلت رقبك ستصبح
معركة كر وفر بينك وبين الشيطان ..

لكن ، مهما كان الذنب عظيماً ، لا تخف ولا تيأس ، فإن باب التوبة مفتوح ، عُد إلى الله وتوسل إليه ، ليقبل توبتك ويغفر لك ما مضى ، ويعينك على ما سيأتي .. توسل إليه وارجع رجوع المعترض النادم ، كما فعل قوم النبي يونس عليه السلام .. بعثه الله إلى أهل نينوى ، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوا ، وتمردوا عليه بکفرهم وعنادهم ، فلما طال عليه أمرهم ، خرج من بينهم ووعدهم حلول العذاب بعد ثلاثة أيام .. فلما خرج وتحققو وتيقنو نزول العذاب بهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة والانابة ، وندموا على ما كان من افعالهم مع نبيهم ، فلبسوا "المسوح" وهو الثوب الغليظ من الشعر يلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد ، يلبسه الرهبان للتظاهر بالبراءة والطيبة والتوبة والذل ..

ثم عجّوا إلى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا إليه ، وتمسکوا لديه ، وبكى الرجال والنساء ، والبنون والبنات والأمهات ، وفرقوا بين المواشي وأولادها .. فجارت الانعام والدواب ، ورغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة .. فكشف الله عنهم العذاب بحوله وقوته ورأفته ورحمته .. فما كان من هذه القرية ، إلا ان آمنت بكمالها وتمامها ..

ومما تكتشفه أيضاً .. الآن .. أو بعد لحظات ، أو سنوات ، وهذا يعتمد على سرعة الاستنتاج والبديهة لديك ، تكتشف ان الخير في اتباع من خلقك ، ولن تحصل على قلب هادئ مطمئن إلا بالعودة للطريق السليم . . . وتكتشف انك لو قرأت كتب الدنيا كلها لن تحصل على الخير ، إلا باتباع تعاليم من خلقك ، وهو أعلم بحالك ، ويعلم ما تحتاج إليه ، ويعلم ما هو خير لك وأذكي . . . أما إذا أردت العيش بعيداً عن القوانين الربانية ، سوف تبقى تدور في دوائر ، ثم تعود لنقطة البداية ، أو أسوء من ذلك . . . فاتبع ولا تماطل ، ولا تجادل ، ولا تخف ، فلن يذهب شيء تفعله الله هباءً ولا سدى .. تأكيد يا صديقي ان الثقة بالله منزلاً عالية ، وانه لن يُضيّع لك تعباً ..

أفلس رجل صالح فقال لزوجته: تصدقني بكل ما في البيت ، فعلت إلا الرحي أبنته .. طرق الباب بعد ساعة ، فإذا بأحددهم يملأ الدار قمحاً .. رجع الزوج فرأى القمح ، وقال لزوجته: أفعلت ما طلبت منك ؟ .. قالت: نعم ، إلا الرحي ، أبقيته خيفة الحاجة له .. قال الرجل: لو أخر جتيه لجاءك القمح دقيقاً ، فاتبعي الآن بطحنه ..

ومن هذه التعاليم التي لا ينصلح الحال إلا بها ، ان بعض السخط من طبخ زوجتك لأنه لم يعجبك ، كان يمكن معالجته باتباع قاعدة بسيطة ، ويمكنك تجربتها في المنزل متى أردت وهي .. (ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قطُّ ان اشتهاه أكله وان كرهه تركه)

وكل معضلة و厴ز خارج المنزل ، مع قريب أو صديق ، وكل مشكلة مع جار أو غريب ، كان يمكن تسويتها واستبدالها مودة ومحبة ، باتباع قاعدة أخرى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْتَكَ وَبَيْتَهُ عَدَاؤُهُ كَانَهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ } . . . وقال رجل من الطيبين الاوائل: لذة العفو أعدب من لذة التشفى ، وأقبح فعل المقتدر الانتقام ..

وكذلك المحافظة على الصحة والفكر والنشاط ، وحصول العافية وسلامة الجسد ، يمكنك نيلها والحصول عليها بتطبيق قاعدة أخرى والمداومة عليها .. قال رسول الله ﷺ: ما ملأ ابن آدم وعاء شرّا من بطنه ، حسبُ ابن آدم أكلاتُ يُقْمَنُ صلبه ، فإن كان لا محالة فثلاث لطعامِه وثلاث لشرابِه وثلاث لنفسِه . . . وهذا مشاهد ومُجرب ، لأن راحة المعدة في قلة الطعام ، وراحة الروح في قلة الآلام ..

وهلم جراً في كل صغير أو كبير من أمرك ، الآيات والتعاليم الالهية كثيرة ، ويفرِّيك ان خيرها ونفعها مستمر معك في الدنيا والآخرة . . . وعندما تقرأ كتاب " رياض الصالحين " سوف تعلم ان كل صغيرة وكبيرة ، وكل شاردة وواردة ، وكل ما يعنيك ويعينك في حياتك ، موجود ذكره وطريقة أدائه وانجازه في هذا الكتاب ، بأفضل وأسهل وأسلم طريق . . . عندها حافظ على ما بقي من هذه التعاليم لأنها كثيرة لا تحصى ، وخيرها كثير أيضاً ..

وفوق هذا الخير كله ، خير أعظم منه يوم القيمة ، وهو جنة فيها مala عين رأى ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال رسول الله ﷺ . . . وقال ايضاً: ان في الجنة لسوقاً ، يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحتو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدها حسناً وجمالاً ، فيقولون: وانتم والله لقد ازددتم بعدها حسناً وجمالاً ..

وقال ايضاً: أول زمرة تلجم الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصرون فيها ، ولا يمتحنون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، أمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقة ما ..

أيها الصديق النبيل تتبه فما هذه الدنيا إلا جسر نعبر عليه وطريق نسير فيه ، لنصل إلى وجهتنا الصحيحة ودارنا الأزلية الذي خرجنا منه ، ونعود إليه إن شاء الله ، هذه الدنيا حلم نصحو منه عما قريب ، ولا شيء غير هذا ..

وتدرك في نهاية المطاف انك كنت مشدود البال ، ومتوتر الاعصاب والحال ، وبلا فائدة ، استعجال ومشاكل بدون سبب ، وكلما جاء الغد ستقول: هل كان ما حدث يستحق كلما جرى . . . قال أحد الصالحين: وما الدنيا؟ ما مضى منها فحلم ، وما بقي منها فأمانى ..

ثم بعد كل هذه الصولات والجولات ، والتجارب والمغامرات والمواقف والتحديات ، بعد كل هذا .. سوف تموت . . .

فلا تنس الموت ، فهو لن ينساك .. وفكـر في النهاية أكثر من الـبداية ..

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه لولده حين حضره الموت: يابني ان الموت اجل من ان يوصى ، لكني سأصف لك ، أجدوني كان جبال رضوى على عنقي ، وكأن في جوفي الشوك ، وأجدوني كان نفسي يخرج من ابرة ..

بعد ان راودته هذه الافكار ، اعتذر العجوز في جلسته وقد تنشط عقله وحدّ بصره .. الآن .. وقد فهم ان عليه ان يستمر مادام في العمر بقية ، يستمر لكن على هذا الطريق الجديد ، فقد آمن الان واطمئن ان العبرة بالنهائيات ، فقال لنفسه بهدوء: انها دستة من الافكار اجعلها اما نهاية لشر او بداية لخير .. فأنات من سيخutar ، وليس من الصعب ان تبدأ بها .. ولتكن نهاية علمك هي بداية عملك ..

يا صديقي الطيب ، اتبع الخير ، مع انك لن تلقى من اتباع
الخير والعمل به إلا الخير ، وتغمرك السعادة في الدنيا والآخرة . . .
لا تؤذي مخلوقاً في هذه الدنيا مهما كان حجمه ومرتبته ، فربما كان
عند الله عظيماً .. تؤذيه لتبتسم لحظة ، ويبكي من آذيته حفية حتى
الممات ..

يا صديقي الحبيب ، لا تعاند ولا تجادل ، وكن مثل هذا الاعرابي ، رجل من البدو لم يرتحل بين البلدان ، لم يقرأ كتاباً ، ولم يدرس العلوم والطب ، ولم يتصلب الموضع ، لكن قلبه نقى ، قلبه نبه فطن ، يدرك الخير ويقوده إليه ..

قال الاصمعي: أقبلت ذات يوم من مسجد البصرة ، فبينما أنا في بعض سِكَّتها إذ طلع اعرابي جلف على دابته ، متقلد سيفه وبيده قوس .. فدنا وسلم وقال لي:

- من الرجل؟ ..
- من بنى الاصمع ..
- هل انت الاصمعي؟ ..
- نعم ..
- ومن أين أقبلت؟ ..
- من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ..
- وهل للرحمن كلام يتلوه الأدميون؟ ..
- نعم ..
- اتل على شيئاً منه ..
- انزل عن دابتك .. فنزل ، وابتداة بسورة الذاريات ،
- فلما انتهيت إلى قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقٌ وَمَا تُوعَدُونَ} .. قال:
- يا أصمسي ، هل هذا كلام الرحمن؟ ..

- اي والذى بعث محمداً بالحق انه لكلامه ، أنزله على نبىه
محمد ﷺ . . . فقال لي:

- حسبك ، ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها
بجلدها.. وقال: أعنى على تفريقها ، ففرقناها على من
أقبل و أدبر .. ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما
تحت قدمه ، وولى مدبراً نحو الbadية وهو يقول: {وَفِي
السَّمَاءِ رِزْفُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} . . . فأقبلت على نفسي
باللوم ، وقلت: لم تتنبه لما انتبه له الاعرابي ..

فلما حججت مع الرشيد دخلت مكة ، فبينما انا أطوف بالکعبه إذ هتف
بى هاتف بصوت دقيق ، فالتفت فإذا هو الاعرابي الذى أعرفه . . .
 وسلم على وأخذ بيدي وأجلسنى من وراء المقام ، وقال لي: اتل كلام
الرحمن .. فأخذت اقرأ في سورة الذاريات ، فلما انتهيت إلى
قوله {وَفِي السَّمَاءِ رِزْفُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} .. صالح الاعرابي: وجدنا ما
وعدنا ربنا حقاً ..

ثم قال: وهل غير هذا ؟ .. قلت: نعم .. يقول الله عز وجل: {فَوَرَب
السماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِّثْلُ مَا أَنْكُمْ تَنْتَطِقُونَ} ..
فصاح الاعرابي: يا سبحان الله ، من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟
ألم يصدقه حتى الجئوه إلى اليمين ؟ ..
قالها ثلاثة ، وخرجت فيها روحه ..

يا صديقي الرائع .. ها قد وصلت إلى نهاية ماختّطت يدي في هذا الكتاب ، ولّك علىّ وصيّتان ، من صديقٍ لصديق .. الوصيّة الأولى .. ابتعد عن النساء ، لأنّ عزّة النفس تأتي من الابتعاد عن النساء ، والجنة تأتي من الابتعاد عن النساء ، وخير الدنيا اجمع يأتي من الابتعاد عن النساء .. والمال والرزق والنجاح والفلاح يأتي من الابتعاد عن النساء ، وكلما ابتعدت عن النساء ابتعدت عن الفقر ، وكلما ابتعدت عن النساء تخلصت من الذل .. وكما قلت لك قبل قليل ، عليك تجنب النساء والحدّر منها ، لأنّ الواحدة منها كأنّها قطعة من الحديد ، سواءً سقطت عليها أو سقطت هي عليك ، ألحقت بك ضرراً .. فاسمع نصيحة مُحِبٍ ، قبل أن تجرب الفقر والذل ثم تندم .. ولو أردت يوماً التأكّد من كلامي ، راقب تصرفات الرجال من حولك حين يخالطون بالنساء ، وخذ منها درساً واتعظ .. لأنّ السعيد من اتعظ بغيره ..

أما الوصيّة الثانية هي .. لا تؤذني أحداً .. ما نفعك وما تستفيد ان جعلت شخصاً ينام حزيناً مكرراً ، وما يضرك ان ينام شخص مبتسم بسببك .. انت تؤذني وتتنسى ، وصاحبك يعاني الهم والغم .. هل تعلم كيف يعامل الرجل الحزين عائلته ؟ وكيف تعامل المرأة الحزينة أولادها ؟ ..

ربيع العمر قصير ، وخريفه طويل ..

.. קיץ קצוף ורطب ، גשם קיץ